أدهم شرقاوي

" قس بن ساعدة "

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي



- لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي
- أدهم شرقاوي
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٩

دولة الكويت / محافظة العاصمة

تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤

تويتر : Dar_kalemat@

إنستجرام : Dar_kalemat

بريد إلكتروني :

Dar_Kalemat@hotmail.com

info@darkalemat.com

الموقع الإلكتروني :

http://www.darkalemat.com

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي

رواية

أدهم شرقاوي
(قسّ بن ساعدة)

٢٠١٩



الإهداء

ذَهَبَ الرَّازيُّ يوماً إلى نيسابور ، فتراكضَ له النّاس
فقالتْ امرأةٌ عجوز : من هذا؟
فقيل لها : هذا الرَّازِيُّ الذي يحفظ ألف دليل على وجود الله!
فقالتْ : لو لم يكُنْ في قلبِه ألف شكٍّ ما احتاج إلى ألف دليل!
فلمّا بلغه قولها قال : اللهمّ إيماناً كإيمان العجائز!
هذه الرّواية مُهداة للمؤمنين بالله إيمان العجائز بلا فلسفةٍ ولا تعقيد .
الذين لو قيل لأحدهم أعطِنا دليلاً على وجود الله ،
لربما تلعثم ولم تُسعفه لغته .
ولكن ما يضرّه ، وحسبه من الإيمان أنّ كل خلية من جسمه تُؤمن
أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله!

أمّا قبل:

أعدُكِ أن تكونَ هذه هي المرّةُ الأخيرةُ التي أكتبُ فيها عنك!
وحين أقولُ لكِ أنّها المرّة الأخيرة ، فهذا يعني أنّي أُشيّعُكِ لا أوثّقُكِ!
هذه الكلماتُ جنازتكِ ، وأنا الآن أحملكِ إلى مثواكِ الأخير . . .
أحفرُ قبركِ سطراً سطراً ، وأهيلُ عليكِ الحروف . . .
هكذا أنا ، إذا أردتُ أن أتخلّصَ من امرأةٍ كتبتُ عنها!
ويسرّني أن تكتشفي أنّي لم أعدْ أريدُ الاحتفاظ بكِ!
أتركِكِ خلفي غير آسفٍ عليكِ كما يتركُ رحّالة مخاضة من طين!
أنفضكِ عنّي غير عابئ بكِ كما ينفضُ أعرابيٌّ غبار السّفر عن أطراف ثوبه بعد أن يأوي إلى خيمته ،
وها أنا آوي إليّ بعد سفري الطويل فيكِ ومعكِ ،
آنَ ليَ أن أستريح من سفرٍ كان كلّه وعثاء . . .
آنَ ليَ أن أتحرر من براثنكِ ، وأعيدكِ غريبةً كما كنتِ . . .
آن ليَ أن أنصبَ خيمة عزائكِ ، لا لأتقبّل العزاء بكِ ، أنتِ عندي الآن أقلّ شأناً من هذا!
ولكن لا بُدّ من خيمة عزاءٍ لإتمام مراسيم موتك!
هذه الكلمات خيمة عزائكِ ، فعظّم الله أجركِ بكِ!

أمّا بعد:

الموتُ موجعٌ يا وعد . . .

ولكنّ الأكثر وجعاً هم أولئك الذين يموتون فينا وهم أحياء!

ما أبشع أن يصبح قلبُ المرءِ قبراً لشخصٍ ما زال يمشي على الأرض!

مررتُ البارحة بجانبك . . .

كان ما بيننا من المسافة مقدار ذراع ، وما بيننا من الجفاء مقدار ما بين الأرض والسّماء!

وأنا على قناعةٍ الآن أننا لا نكره بجنونٍ إلا أولئك الذين أحببناهم بجنون!

أحببتكِ كأنّه ليس لي أحدٌ أحبه بعدكِ . . .

وها أنا أكرهكِ كأنّه ليس لي أحدٌ أكرهه بعدكِ!

حكايتي معكِ كحكاية القرشيين مع أصنامهم!

كانوا يصنعون آلهتهم من تمرٍ ، يعبدونها وجه النهار ، ويأكلونها آناء الليل!

ليتَ أسناني تطالكِ ، لكنتُ أكلتكِ ، لا من الجوع ، ولكن من البغضاء!

ولكنّ الشّيء المؤكّد لديّ الآن أننا نحن الذين نصنعُ أصنامنا ، ونختارُ جلادينا!

أنا ضحيّة نفسي يا وعد!

أنـتِ لـم تقـومي إلا بالدّور الذي سـمـحتُ لكِ أن تقـومي بـه!

أنا جلاد نفسي وإن كان السوط بيدكِ!

وأنا ذابح نفـسي وإن كـانتْ سِكّينكِ مـا زالتْ تقطر من دمي!

إيّاكِ أن تعـتقـدي أنّي أُحـاولُ أن أُشعـركِ بالذّنب ، أبداً يا وعـد ، كلّ مـا في الأمـر أنّي الآن أُنظّفُ جـرحي بكِ قـبل أن أخيطه ، فالجروحُ التي لا تُخرِجُ أضغانها لا تلتئم! وأنا أريدُ أن أشفى منكِ ، وأطوي هذه الصّفحة إلى الأبد!

لا أُخفيكِ أنّي فكّرتُ أن لا أكتب إليكِ ، أن أُلملم ما تبقّى منّي وأمضي ، ولكنّي آثرتُ أن لا أفعل ، لأنّي أعرفُ أنّ الأشياء التي نهربُ منها ستبقى تلاحقنا حتى نُقرر في لحظةٍ ما أن نستدير ونواجهها! ولأنّي لا أُجيدُ الهرب ، قلتُ في نفسي : لنتواجه الآن!

وعندما أقولُ لكِ : لنتواجه . . . فلستُ أبحثُ عن نصر ، كلانا نعرفُ أنّ معاركَ الحُبّ ليس فيها منتصر ومهزوم ، إمّا أن ينتصر الإثنان معاً ، أو يُهزمان معاً! وأنا مهزومٌ بكِ ، تماماً كما أنتِ مهزومة بي ، بغض النّظر عن أسباب الهزيمة!

لا شيء يُرمِمُ خسارتي لكِ ، كما أنّي على يقين أنّه لا شيء يُرممُ خسارتكِ لي ، فبرغم ما حدث لا أُنكرُ أنّكِ أحببتِني ، وهذا ما يزيدُ الأمر مرارةً!

ولكنّي أردتُ أن نتواجه لأنه لا يستقيمُ أن أُدير ظهري لكِ ، وتديرين ظهركِ لي ، وبيننا قضيّة لم تُغلق بعد ، وإن كانت تلك القضيّة لعلاقة حُبٍّ هي الآن في حكم الأموات ، والضّربُ في الميّتِ حرام!

أتذكرين الحافلة يا وعد؟ هناك التقينا ، فتعارفنا ، ثم صرنا حبيبين ، ثم عدنا غريبين كما كُنّا!

يُخيّل إليّ الآن أن تلك الحافلة كانت تشبه الحياة إلى حدٍّ بعيد ، كُنّا نركب فيها جميعاً ، ونسير معاً ، ولكن لكلّ منا وجهته!

أنا إلى الجامعة ، أنتِ إلى عملكِ في البنك ، الخالة آمنة إلى المستشفى الحكومي ، هشام إلى الصّحيفة ، ريحان إلى دار الأيتام ، العم أحمد لزيارة قطعة من قلبه ، ماهر إلى كلّية الشريعة ، العم كامل إلى مكتب استقدام العاملات ، لجُين إلى محل الملابس ، أم عادل لزيارة ابنها في السجن ، خليل إلى المرفأ ، سمير الصبيُّ الصّغير إلى الشارع لبيع الورد ، وآخرون سقطوا سهواً رغم أنّه كانت لهم وُجهة ، حتى السائق أبو أمين كانت له هو الآخر وُجهة!

فتعالي أعود بكِ إلى أوّل الطريق . . .

طريقنا ، أو ما قبل ذلك بخطوة ، عندما كان لكلٍّ منّا طريقه!

هذه العودة تحتم عليّ أن أعبر أرض الذكريات ، التي هي أشبه ما تكون بحقل ألغام ، لا أعرف أي خطوة ستطيح بي ، فكل الخطوات فيها محفوفة بالمخاطر ، ولكني لا أجد بدًا من

المضي إلى حتفي ، لأن أحملها معي أينما وليتُ وجهي!

أعـيدُ ترتيب الأحـداث ، حـتى تلك التي لم تكن تبـدو لي على قدر بالغ من الأهمية حينها ، فكل شيء قد حدث يبدو لي الآن وكأنه كان متواطئًا معكِ على خداعي ، ثمة عداوة تتشكل في داخلي تجاه الأشياء ، وكأنها هي من قادتني إليكِ لا قلبي!

كـان ذلك اليـوم أحـد أيام أيلول ، بداية عـامي الجـامـعيّ الأخير في كليّة الهندسة ، كان تفكيري منصبّاً كيف أنهيه بذات الاجتهاد والجدّ الذي أنهيتُ فيه سنواتي الأربع الماضيّة ، وقـد عـزمتُ منذ وضـعتُ هذا الـهدف نصب عـينيَّ ألا أسـمح لشيء أن يثنيني عنه ، لذلك فقد أخـذتْ الدراسة جُلَّ وقـتي وتفكيري وانتباهي ، وقد آتى ذلك الجهد أُكله ، فـها أنا قـاب قوسين أو أدنى من قطف ثمار ما زرعتُ ، عام واحد فقط وأصبح «المهندس كريم» . كنتُ في شوق إلى حرف الميم الذي سيكون قبل اسمي على مكتبي ، هكذا نحن في بداية حياتنا نحسبُ أنّ الألقـاب سـتـصنعنا ، إلى أن ندرك في لحظة مـا أننا نحن الذين نصنع ألقابنا!

أول عامين لي في الجامعة ، كنتُ قد اعتدتُ ركوب حافلات النقل العـام ، الأمـر الذي كـان يعـرضني للتـأخـر عن مـوعـد محـاضـراتي أحيـانًا نظراً لتوقفه المتكرر ، والوقـوف طيلة الطريق غـالبًـا ، حـتى تعـرفتُ بعـدها على أبي أمين ، صـاحـب حـافلة خاصة ، ومن حسن حظي أن طريقه كان يمر بطريق الجامعة التي

أدرس فيها ، وهكذا بدأتُ رحلتي اليومية مع أبي أمين الذي كان يجمع رفاق الرحلة طوال طريق الذهاب والإياب .

المرة الأولى التي رأيتكِ فيها كنتِ تجلسين في الحافلة على المقعد المقابل لي ، كنتِ بجوار النافذة ، وأخذتِ في مراقبة الطريق كحال من لا يجد ما يشغل به رحلته ، وكنتُ أفعل ذلك أيضًا ولكني على عكسك كنتُ أشيحُ بنظري أحياناً إلى الداخل ، حيث اتخذ الآخرون أماكنهم عشوائيًا ، وتشاغلوا عن مشاغلهم بما لا يشغلهم حقيقة . أما أنتِ فطوال الطريق كانت نظراتكِ مسمّرة على ما تريكِ إياه النّافذة!

في اليوم التالي كان المقعد بجوارك فارغًا ، وكنتِ كاليوم السابق مستغرقة في تأمل المشهد خارجاً ، جلستُ بجوارك دون أن أحاول تشتيت انتباهكِ ، وحين انطلقنا انتبهتِ من شرودكِ ، وبدا أن عينيكِ وعقلكِ لم يكونا يتأملان ذات المشهد ، كنتِ تضعين حقيبتكِ على جزء من المقعد الذي جلستُ عليه ، غير أني لم أرَ ضرورة لإزاحتها ، فقد أخذتُ المساحة التي أحتاجها منه ، اعتذرتِ بتهذيب وأخذتها في حضنكِ ، فأخبرتكِ أن لا بأس في ذلك ، وأخرجتُ من حقيبتي بحثًا كنتُ أعمل عليه ، بغرض مراجعته قبل تسليمه .

كنتِ أول من قطع الصمت بسؤالك عن وجهتي ، فأخبرتكُ أني طالب جامعي ، تبادلنا بعدها الأسئلة المعتادة بين غريبين ، وأجبنا بما يجيب الناس به عادة شخصاً يظنون أنهم لن

يقابلوه مرة أخرى ، كانت الأسماء أول ما تبادلناه ، باعتبار أن الاسم أول إشارة تعريفية يشير بها الإنسان عن نفسه!

قلتُ بعد سؤالك لي ما اسمك : كريم ، وأنتِ!

قلتِ بثقة مبالغ فيها ، أو هكذا شعرتُ : أنا وعد!

تشرفنا يا وعد ، ثم عقبتُ قائلاً : يقولون كلٌ له من اسمه نصيب ، فما نصيبك من اسمك؟

قلتِ مازحة : يقوم الناس بقطعي باستمرار!

أجبتكِ : على غرار قطع الوعود أم قطع الشجر؟

سألتِ : هل ثمة فرق؟

- بالطبع ، فرق كبير!
- ما الفرق؟
- قطع الوعد يوحي بالثقة والتمسك ، بينما قطع الشجر لا يوحي بغير الزوال والتخلي!
- أظن أن لكَ من اسمك نصيبًا وافرًا يا كريم!
- شكرًا لحسن ظنك ، ولكن من أين جاء هذا الظن؟
- من كونك تسرف في التفسيرات واستخراج المعاني!
- أعترف أنها عادة سيئة لا أستطيع كبح جماحها في نفسي!
- ليست بهذا السوء ، فلا تبتئس!

رميتِ تعليقكِ الأخير بلهجة ساخرة ، ثم ألقيتِ نظرة من النافذة وأنتِ تقولين : الأحاديث تسرق الوقت! ها قد وصلنا . . .

غـادرتِ الحـافلة ، وغـادرتِ كـذلك الحـيـز الذي شـغلتـه من تفكيري أثناء حديثنا ، وأكملتُ أنا طريقي المعتاد دون أن ألتفت خلفي أو أفكر مرتين في الشخص الذي صنفته عابراً لا أكثر .

مرّ أسبوع على حديثنا الأخير ، وعلى جلوسنا متجاورين في الحافلة ، وها هو اللقاء الثاني قد جاء بكِ أنتِ هذه المرة إلى جواري ، كنا في طريق العودة ، وكنتِ آخر من يصعد الحافلة في إيابنا ، ولم يكن من شاغر سوى المقعد المجاور لي ، تنحيتُ جانبًا كردة فعل طبيعية لأفسح المجال لكِ ، رغم أني لم أكن أشغل حيزًا من مقعدكِ ، حييتني بإيماءة من رأسكِ ، فأجبتكِ بابتسامة مرحبة ، سألتني بأدب عن حالي ، فأجبتكِ أني بخير ثم أعدتُ لكِ سؤالك من باب التهذيب أيضًا ، فأخبرتني بتلقائية أنكِ منهكة فقد كان يومًا شاقًا على حد تعبيرك ، ثم استغرقتِ بعدها في حديث طويل عن الأعمال البنكية والمصرفية ، ونزق العملاء ، وتطلّبهم . . . وكنتُ أنصت إليكِ ببعض الاهتمام ، وأحاول أن أخفف عنكِ ببعض العبارات المعتادة ، ولكنك يبدو أنك لم تكوني بحاجة لذلك ، فقد ختمتِ حديثكِ بعبارة ساخرة مفادها أنكِ تحبين التذمر وتهويل الأمور ، فأجبتكِ على غرار نمطكِ الساخر في الحديث : أن الاعتراف بالحق فضيلة!

كنتِ بارعة في كسر الحواجز النفسية ، وتبديد جو الغربة الذي يسود اللقاءات العابرة غالبًا ، كنتِ منطلقة في أحاديثك ، تشعريني أحياناً أننا التقينا قبل عام لا قبل أيام ، بينما كنتُ

على عكسكِ أحبُّ المحافظة على المسافات والإبقاء على الكلفة بيني وبين من لا يربطني بهم رابط ، أو أن معرفتي بهم حديثة ، وكانت تلك أولى نقاط الاختلاف التي لاحظتها بيننا .

في الأيام التي تلتْ ذلك كان ثمة مكان شاغرٌ دوماً لكِ بجانبي ، أو لي بجانبكِ ، وكأن الأيام ترتبُ لنا تلك اللقاءات ، وما زاد الطين بلةً ، أني كنتُ أجدك تحملين لي كوبًا من القهوة في الصباح قائلة أنكِ لا تستمعين بالقهوة إن لم يشاركك أحدٌ شربها ، وكنتِ تتحدثين دائمًا عن كراهيتكِ الشديدة للوحدة ، وكأنه هاجس دائم لديك .

سألتكِ يومها : ألا تبالغين في ذلك؟ أعني توجسك المفرط من البقاء وحدك!

قلتِ لي وقد أظهرتِ بعض اللامبالاة المفاجئة - وهو شيء تفعلينه دائمًا ، أعني إظهار الأمر وضده- : قد لا تكون الوحدة أمرًا فظيعًا ولكنني لا أحتملها ، ربما أنا كائن مفرط في اجتماعيته ، وربما هي شيء ضد الفطرة البشرية ، يعني أننا فطريًا نحتاج للرفقة والجماعات .

- أتفق معكِ أن الوحدة التامة تتنافى مع فطرة الإنسان ، ولكن الوحدة أنواع ، والناس في مستويات مختلفة منها ، صحيح أننا نحتاج إلى رفاق ، ولكن ليس أي رفاق يمكنهم أن يبددوا ذلك الشعور ، إن من الرفاق من يزيده فداحة فينا ، ومنهم من يجعله فينا لشدة بعده عن فهمنا ، أظن أننا لا نحتاج

إلى الرفقة ، بل نحتاج إلى من يستطيع مشاركتنا أفكارنا واهتماماتنا ومشاعرنا ، لأننا عكس ذلك لا نتخلص من الوحدة بل نضاعفها .

- أنت تميل إلى فلسفة الأمور ، لكني أرى أن الأمر بسيط جدًا ، انشغِلْ عن نفسك بالآخرين قدر استطاعتك ، حتى لا تفقد عقلك!

- أنا لا أفلسف الأمر بل أنتِ من يُسطحه! إن انشغالكِ بالآخرين عن نفسك يجعلكِ تفقدين نفسك وهذا أسوأ من فقدانكِ عقلك .

- وكيف ذلك؟

- كل منا يحتاج إلى البقاء مع ذاته بعض الوقت ، أن يسمح لصوته الداخلي أن يصبح مسموعًا ، أن يُنقّح كل تلك الأفكار التي يمليها عليه الآخرون طيلة الوقت ، أن يعرف أخطاءه ، ويكوّن رأيه حول ما يحدث في حياته ، تخيلي لو قضينا كل الوقت نسمع آراء الآخرين ، وننصت لأقوالهم وآرائهم ، وننشغل عنا بهم ، ألن تختفي ذواتنا المستقلة إلى الأبد؟ ثمة قدر من التوازن مطلوب في كل شيء ، يستطيع الإنسان امتلاك حياة اجتماعية سوية دون أن يفقد روحه في سبيل ذلك ، لن تقتلك بضع ساعات تقضينها مع نفسك ، بل ربما تجعلكِ قادرة على استيعاب من حولك بشكل أفضل ، وأؤكد لكِ أنها لن تفقدكِ عقلكِ بل ستجعل فكركِ أوسع .

- كلامك جميل ، ولكنه يبقى جميلاً في حيزه النظري ، فهو صعب التنفيذ ، وحتى أن تنفيذه يبدو لي مستحيلاً ، إن حياتي لا تكاد تخلو من البشر ، حتى وإن أردتُ أن أختلي بنفسي ، لن أجد مساحة فارغة تسمح بذلك .

- المسألة لا تتطلب مساحة فارغة ، أحيانًا بعض الصمت يفي بالغرض .

- هل تقصد أني ثرثارة!

- هل تشعرين أنكِ كذلك؟

- أعرف أني كذلك ، لأني أكره الصمت أيضًا .

- يبدو أن قائمة الأشياء التي تكرهينها تطول!

- نوعًا ما ، لا أحب الأمور التي تجلب التعاسة أو تعبر عنها .

- لا أحد يحب التعاسة ، ولكن ما علاقة الصمت بالتعاسة؟

- الصامتون كئيبون عادة ، لا يمكن التكهن بما يفكرون ، كما أن الصمت لا يمكن أن يكون تعبيرًا عن السعادة .

- بلى يمكن ، إن الإنسان لا يجب أن يرقص ويغني ليقول أنه سعيد ، ليس شرطاً أن يُعبّر الجميع عن مشاعرهم بالطريقة التي تعبّرين بها أنتِ ، هناك ألف طريقة للتعبير عن الفرح ويمكن للصمت أن يكون واحدًا منها .

- كيف يمكن ذلك؟

– ببساطة عليكِ إدراك اختلاف وسائل التعبير بين الناس ، جميعنا قد يحس بذات الشعور لألم ما ولكن بعضنا قد يصرخ وبعضنا الآخر يتأوه وبعضنا سيذرفً الدموع ، وهناك من يبتلع وجعه دون أن يراه أحد .

– هذا في الألم ، ولكن كيف يكون الصمت تعبيرًا عن الفرح!

– الصامت نفسه في الوجع ، قد يكون هادئًا في الفرح ، لأن هذا طبعه يا وعد ، وهذا أسلوبه في التعبير ، لا يمكنك أن تسألي أحدًا يقهقه حين يسمع نكتة ، لماذا تضحك هكذا بينما يكتفي آخر بالابتسام .

– كلام منطقي ، ولكن ما زلتُ لا أتقبل أن يبقى المرء هادئًا في لحظاته السعيدة ، لا بد أن يملك كل إنسان قدرًا من الانفعال يظهر في لحظات الفرح أو لحظات الغضب .

– عدم إظهار المرء لانفعاله لا يعني أنه لا يملك القدرة على الشعور به ، بل يعني أنه قادر على الإمساك بزمام نفسه .

– ولماذا على الإنسان أن يفعل أمرًا متعبًا كهذا بينما يحق له إبداء مشاعره!

– ويحق له أن لا يبديها ، أو أن يبديها بالطريقة التي يراها مناسبة ، ولكن بالحديث عن الغضب فإن إبداءه لا يعد أمرًا محمودًا ، ولا يأتي غالبًا بعواقب محمودة ، لذلك فـ«الشديد من يملك نفسه عند الغضب» .

كان أوان مغادرتك قد آن في تلك اللحظة ، لذلك اكتفيتِ بهزة بسيطة من كتفيكِ علامة عدم الاقتناع التام بالأمر ، غير أني هززتُ رأسي بالمقابل علامة اليأس منكِ ، وكان هذا ما يحدث غالبًا حين أدخل معكِ في نقاش ما ، حيث أنكِ لا تظنين أن ثمة رأي آخر صائب في هذا العالم غير رأيك ، وهذا ما يجعل الكلام بيننا يمضي إلى طريق مسدود في الغالب ، لكنه في مجمله يجلب متعة خفية لي ، وكأني أتسلى فعلاً برؤيتك تعارضين وتجهدين نفسك في إثبات صحة ما تقولين ، ولكن دون جدوى من كلا الطرفين .

بدأتُ مع الأيام أعتاد رفقتكِ في ذلك الطريق ، أعتاد أحاديثنا ، ويبدو أن الاعتياد أول مراتب الصداقة ، فقد صرنا نروي لبعضنا تفاصيل أيامنا ، والمواقف الغريبة التي تباغتنا ، أو أني من كنتُ أفعل ذلك ، فقد تبين لي لاحقًا أن معرفتي بكِ لا تتخطى حدود ما أردتِ لي أنتِ معرفته ، وقد كان ذلك جليًا من خلال القدر اليسير من التفاصيل الحياتية الخاصة التي كنتِ تخبرينني بها ، ولكني عزوتُ ذلك لكونك تعيشين حياة هادئة بسيطة ، من البيت إلى العمل ومن العمل إلى البيت ، وكانت حكايات العمل وحدها التي تطفو على سطح أحاديثك ، بينما لا تتحدثين أبدًا عن البيت ، أو العائلة ، أو المواقف التي يجدر بها أن تحدث في حياتكِ الخاصة ، كما كنتُ أفعل أنا ، حيث أحدثكِ عن التفاصيلِ التي أعيشها دون أن أبدي أي تحفظ .

كنتُ أخبركِ عن شجاراتي الصغيرة مع أختي التي تصغرني بعامين، ومواقف أمي التي لا تتوقف عن معاملتي كطفلٍ في الخامسة، وجدالاتي مع جارنا الذي لا يريد أن يصلح ميزاب داره ويكفينا شر المرور تحت الماء الذي يتسرب منه فتتلوث أطراف ثيابنا! كنتُ أحدثكِ حتى عن أصدقائي وزملاء الدراسة، وأصف لكِ تفاصيل علاقاتنا ومواضيع الجدل بيننا، ولكنكِ لم تكوني تتحدثين عن أي شخص في حياتكِ، حتى بدا لي أنكِ مقطوعة من شجرة، ولأني لستُ من الذين يسألون الآخرين عما لا يتحدثون عنه من تلقاء أنفسهم، اكتفيتُ بالحديث والإصغاء لما تفصحين عنه من دون جرِّكِ إلى اعترافاتٍ لا تريدين الإدلاء بها، لأنني لم أكن أشعر بأني أَعيش معكِ أكثر من مشاعر ودية تفرضها الصداقة والرفقة الجميلة، ولم يكن أي من أبواب القلب قد أُشرعت لوجودك، غير أني كنتُ أحرص على الحصول على حصتي اليومية من الحديث معكِ.

ذات مرة سألتني من دون مقدمات: ما أكثر صفة تبحث عنها في المرأة التي ستكون زوجتك؟

كان سؤالاً مباغتًا، لذلك لم أجد جوابًا تلقائيًا له، وقلتُ بدلاً من ذلك: لم يسبق لي أن فكرت في شروط أو مواصفات، لأني لا أجد أنه من اللائق أن نتحدث عن الإنسان كسلعة تخضع لصفة محددة، أظن أن المسألة لا تتم بهذه الطريقة، يعني أن نضع صفاتٍ وشروطًا ثم نبدأ البحث

في الآخـرين عنهـا ، وحين لا نجدها نتـركـهـم ونجرب غيـرهم ، بالإضـافـة إلى أن الصـفـات قـد تكون نسبـيـة في الأشخـاص ، يعني أن كل إنسان يحمل قدرًا معينًا من كل صفة ، والمواقف هي من تجعله يظهرها ، أيضًا فإن الصفات في الأشخاص تتباين وتختلف بناءً على الصفات الأخرى الموجودة فيه ، فمثلاً لو قلنا أني أبحث عن صفة الصدق في الناس ، فقد أجد إنسانًا صادقًا لا يكذب ولكنه أيضًا صريح جدًا ، فتخيلي ماذا يمكن أن ينتج عن هكذا مزيج! ربما كـانت الوقاحة ، وعـدم المداراة والمراعاة! ولو قلنا أن خفة الظل صفة رائعة وجذابة فتخيلي أن تجتمع مع خفة العـقل في إنسان ، هذا سيجعله مجـرد مهـرج! كـما أن الـذكـاء والغرور سيجعلك تقابلين شخصًا لا يُطاق ، ولنفترض أن إنسانًا اجتمعت فيه الصفات الحلوة التي نريدها جميعًا ، هل يمكن أن أكـون شـخـصًا مناسبًا لهـذه الصـفـات؟ بمعنـى أن المسألة ليـست وصفة طبيّة يمكن الحصول عليها وتطبيـقـها ، صـفـات الإنسان نفـسـه حين تتـفـاعـل تنتج مـزيجًا مخـتلفاً عن تصورنا ، فكيف بتفاعل صفات شخصين مختلفين! باختصار لستُ مع فكرة فتاة الأحلام أو فتى الأحلام الرائجة هذه .

– كالعادة ، جواب معقد لسؤال بسيط!

– لأني لا أسـتطيع أن أعطي أجـوبة لا أقـتنع بهـا ، من الممكن أن أعدد لك ألف صفة أرغب في وجودها في المرأة التي أريدها زوجـة ، ولكـن ربما أجـد امـرأة لا تحـمـل أي صـفـة منهـا

فأحبها وأتزوجها! المسألة أن هذه الأمور ليس لها خارطة توصلنا إلى المكان المطلوب ، والتطلب فيها هو التعقيد لا أخذها كما تأتي ، قد يبدو جوابي معقدًا ، ولكن فكرتك عن تحديد وتضييق الأمر هي المعقدة في الأساس .

– أفهم هذا ، ولكن يمكنك أن تحلم بشيء دون أن تحققه ، يمكنك أن تخبرني بالصفات التي تعجبك ثم تتزوج امرأة لا تحملها!

قلتِ ذلك وأنتِ تبتسمين بسخرية ، ولكني أجبتُ بجدية :

– لقد أجبتكِ بما أفكر به ، لم أحدد صفة من قبل ، لأني لم أحلم أحلام اليقظة حتى في مراهقتي .

– هذا فظيع ، وكيف عشتَ حتى الآن؟

– ألهذا الحد تبدو حالتي متدهورة!

– بل أسوأ ، أنتَ تكتفي بهذا الواقع السيئ ، رغم أن لديك مساحة واسعة من الخيال!

– إنني أدخر خيالي لأمور أكثر أهمية ، ولا أجد الهروب من الواقع مجديًا ، بل محاولة جعله مكانًا صالحًا للحياة .

– ستموت يومًا بجرعة زائدة من الجدية!

– وأنتِ ستسقطين يومًا من صرح أحلامك الشاهق هذا وتدقين عنقك!

– على الأقل سيبدو مشهد وفاتي أكثر إثارة من مشهد وفاتك .

– النتيجة واحدة .

هكذا كنا ، كقطبي مغناطيس ، كل منا يحمل في داخله ضد الآخر ونقيضه ، ولكننا بشكل ما كنا نستطيع مواصلة الأحاديث دون شجار ، فكل نقطة لا نتوصل فيها إلى اتفاق - وهي أغلب النقاط - نجعلها مادة للسخرية ونخرج منها ضاحكين ، لم أشعر أني غضبتُ مرة من طريقة تفكيرك رغم أنها تتعارض مع كل ما أؤمن به ، ولكنها كانت تحمل لي دائمًا فكرة جديدة ، وصوتًا آخر حتى لو لم أتفق معه ، كنتُ أحتاج أن أسمعك وأحدثك ، لأرسخ قناعاتي أو أراجعها ، وهذا ما يجعلني أخوض معكِ كل حديث حتى نصطدم بالطرق المسدودة في نهايته ونتوقف .

في أحد أيامنا الأولى التي جمعتنا وجدتكِ منكبة على بعض أوراقكِ بانهماك شديد ، حتى أنكِ لم تشعري بحضوري ، كان يبدو عليكِ أنك تحاولين حل معضلة أو ما شابه ، لم أجد أنه من اللائق مقاطعة انشغالك ، فربما كنتِ بحاجة إلى التركيز ، لذلك أخرجتُ كتابًا كنتُ أقرأه وتابعت القراءة بصمت ، حتى سمعتكِ بعد دقائق تطلقين تنهيدة محبطة ، وتخاطبين نفسك قائلة : يبدو أن هذا الأمر لن يتم!

التفتُ إليكِ قائلاً : عفوًا أردتُ بذلك إثبات حضوري ، ومعرفة ما يشغلك لهذا الحد ، فأجبتِ : أتحدث عن هذا العمل المزعج ، أظن أني لن أستطيع تسليمه في الوقت المحدد ، لا أجد فكرة مناسبة .

- هل يمكنكِ إطلاعي عليه لعلي أكون ذا فائدة!

- كُلفتُ بحملة إعلانية للمصرف ، باختصار عليَّ أن أجد وسيلة أقنع بها الناس للاقتراض من المصرف!

قلتُ لك ساخراً : أي أن تقنعي الفأر بالدخول إلى المصيدة ، على أنها وسيلة نجاته!

- بالضبط

- يبدو لي أن الناس لا تنتظر دعاية ، لأن الحاجة أكبر دعاية لذلك ، فهم سيتجهون إلى البنك في أول ضائقة ، فالغريق قد يتعلق بقشة وقد يتعلق بأفعى إن اضطر .

- لماذا أشعر أني الأفعى في هذا السياق!

- لا أنتِ أيضًا من ضمن الغرقى ، موظفو البنوك هم عملاء للبنوك أيضًا كالآخرين ، ألا تملكين حسابًا لديهم كغيرك ، هذا يعني أنكِ على السفينة ذاتها .

- هذا صحيح ، ولكن عمل الدعاية الآن ، تكليف لا أستطيع فلسفته ، مهما كان الأمر ، فإن عليّ أن أُظهر البنك في دور الراغب في المساعدة ، الذي قلبُه على العميل ، حتى وإن كان دوره استغلال حاجة الناس ، أو حتى إقناعهم أنهم في حاجة إلى ما لا يحتاجون إليه حقًا!

- أفهم ذلك ، كل الدعايات أساسًا كذلك ، في مظهرها تبدو أنها تقدم خدمة جليلة للآخرين ، ولكن في جوهرها ما هي إلا محاولة لاستلال أكبر قدر من المال من جيوب الناس .

- ولكنها في نهاية المطاف تقدم خدمة نحتاجها ولو نسبيًا ، كل عمليات التجارة تقوم على الفكرة ذاتها ، وهو شيء اتفق الناس على قبوله جملة ، وإن رفضوه تفصيلاً!

- لا أحد ينكر ذلك ، ولكن الدعايات مجرد عمليات تجميلية ، أحيانًا تبرز جمال الأشياء ، وأحيانًا تفسدها وتنفر منها .

- وهذا بالضبط ما يجعلني مترددة ومحبطة ، لا أجد فكرة براقة!

- عليكِ أن تتركي الأمر لخيالك ، هذه لعبتكِ ، أم أنكِ نسيتِ حثَّكِ المستمر لي على التمسك بالخيال وإهمالَ الواقع؟

- لم أفهم الآن هل هذا تشجيع أم توبيخ!

- تشجيع طبعًا ، واعتراف بأنكِ بارعة في نسج هالة من الجمال حول الأشياء العادية ، فقط عليكِ التخلص من شعوركِ بأن عليكِ تقديم الأمور بفخامة هائلة ، البساطة والتلقائية أحد أهم أسرار الجاذبية ، إضافة إلى مزج ذلك بما يحتاج الناس إليه وما يرغبون بسماعه .

- شكرًا على كلماتك المشجعة ، سأحاول أن أجد ضالتي بشكل ما ، بالمناسبة هذه هي المرة الأولى التي تمتدحني فيها .

ختمتِ عبارتكِ بهذه الكلمات مرفقة بغمزة من إحدى عينيكِ ، فأجبتُ على ذاتِ نمط أسلوبكِ في الحديث :

- لم أفهم الآن أهذا شكر أم عتاب!

قلتِ وأنتِ تستعدين لمغادرة الحافلة :

- أيهما أعجبك فهو لك .

دعكِ من هذا الآن ، وتعالي أرجع بكِ إلى شخص التقيناه في الحافلة ، وكان عزيزاً على قلبكِ وقلبي ، إنّها الخالةُ آمنة يا وعد لا أحسبكِ قد تنسينها يوماً ، فالأشخاص في الذاكرة بعمقِ الأثرِ لا بطولِ العِشرة! والخالة آمنة وإن لم تُمضِ معنا وقتاً طويلاً إلا أنها تركتْ فينا أثراً بالغاً ، أو على الأقل فيَّ أنا ، فلا أُريدُ أن أتكلمَ نيابة عنكِ ولا أن أُملي عليكِ انطباعاتي عن الآخرين ، ولكنني بدوتُ واثقاً في بدايةِ كلامي لفرطِ ما أعرفه عنكِ! أنا أحفظُكِ عن ظهر قلب يا وعد ، أعرفُ ما يَروقُ لكِ وما يُزعجكِ ، أعرفُ نوعية الناس الذين تُحبينهم والذين لا تُحبينهم ، أعرفُ جيداً المواقف التي تنطبعُ في ذاكرتكِ وتلك التي تَمُرُّ بكِ مروراً عابراً ، لهذا الحد أعرفكِ ، تخيّلي!

كانت الخالة آمنة نقية كماءِ وضوء ، عذبة كآية تتحدثُ عن الجنة ، قريبة من القلب كأذانِ الفجر ، تَألفُ وتُؤلفُ ، هكذا هم المؤمنون ، وأحسبُها كانتْ واحدة منهم! كان فيها إيمان العجائز الذي يدعو الناسُ أن يكونَ فيهم! إيمانٌ بسيطٌ بعيدٌ عن التعقيد والتكلف ، مُمتلئة رضا وحباً لله ، لم تكُن تحفظ من القرآن إلا قِصار السور ، ولم أسمعها مرةً تنطقُ بحديثٍ شريف ، ولكنها إذا ما تحدثتْ فإن مضامين الآيات والأحاديث تبدو جليةً في لُغتها العامية البسيطة ، هي واحدة من الذين

جعلوني أؤمن أن الإيمان جوهر وسلوك حياة ، أكثر منه مظهراً وفلسفة!

كانت تُرافقنا كل عشرة أيام يوماً ، ثلاثة أيام في الشهر تذهبُ معنا صباحاً وترجعُ عصراً ، ولكن هذه الفترة القصيرة من الرفقة لم تَحُلْ دون أن تجعلَها صديقتي!

لا تتعجبي ، كانت الخالة آمنة صديقتي فعلاً ، على فارق السِّنِ بيننا ، والثقافة ، والاختصاص في الحياة ، إلا أني كنتُ أشعر بكثير من الراحة بقربها ، بكثير من الأفكار والمعتقدات المُشتركة ، وإن كان لكلٍّ منا طريقته في التعبير عنها!

كانت الخالة آمنة مصابة بالسَّرطان ، وعليها أن تأخذَ كل عشرة أيام جرعة دواء كيماوي في المستشفى الحكومي ، لهذا كانت تركبُ معنا ، أتذكرين يوم قلتُ لكِ : هذه الحافلة كالحياة نركبُ فيها معاً ولكن لكلِّ واحد منا وُجهته!

كان للخالة آمنة وُجهة أيضاً!

في البداية لم يخطر لي أن يكون السرطان هو مرضها ، كانتْ مُبتسمة دوماً ، ودودة ، لا شيء يوحي أن هذه المرأة محكومة بالموت عما قريب ، فقد قالَ لها الأطباء أنها لن تتجاوز سنة على أبعد تقدير!

ولكن عندما أخبرَتْني بمرضها فهمتُ لماذا كانت تبدو في طريقِ العودة مُتعبة على عكس ما تبدو عليه في الصباح! كان الدواء الكيماوي يُنهكها!

وما زلتُ حتى هذه اللحظة مذهولاً ، كلما تذكرتُها سألتُ نفسي كيف لإنسان سيُوَدِّع الحياة قريباً أن يكون قوياً إلى هذا الحد ، طبعاً الأعمار بيد الله أولاً وأخيراً ، ولكنها دار أسباب نهاية المطاف!

كانت تُخبرُ قصصاً كثيرة ، وتحفظُ أمثالاً لكل حادثة وموقف ، وأعتقدُ أن هذا الشيء هو الذي جذبني في شخصيتها ، فاقتربتُ منها أكثر ، وكان فارق العمر بيني وبينها مُريحاً للاقتراب ، أعتقد أنه لو كان لديها أحفاد فسيكونون بعمري تقريباً ، وهكذا كانتْ علاقتي بها ، جدة بحفيد ، وحفيد بجدة ، رغم أني كنتُ أناديها خالتي آمنة!

ما زلتُ أذكرُ أول قصة روتْها أمامي ، طبعاً ككل الجدات لا تضع للحكاية عنواناً ، ولكني اليوم أُسمِّي حكايتها تلك بحكاية «شارب الأسد»!

كانت الخالة آمنة ناقمة على بنات هذا الجيل ، خصوصاً المتزوجات منهن ، ودوماً ما كانت تُردد أنهنّ لسنَ «ستات بيوت» ولا يصبرنَ على أزواجهن ، وأنهنَّ كثيرات الزعل والغضب قليلات الرضى ، ثم بعد أن تقرأ على مسامعنا هذا المُوَشّح تقول جملتها الشهيرة : «يا خالتي خليني ساكتة أحسن»!

حدّثَنا السائق أبو أمين عن كِنَّتِهِ التي طلبتْ الطلاق ، وذهبتْ إلى بيت أهلها بانتظار أن تصل ورقة الطلاق إليها! ولم يكن أبو أمين مُتحسّراً على هذا الزواج الذي سينهار ، كان

يقول : هذا أفضل ، على الأقل لن يسمع الجيران صوتنا بعد الآن ، أنا قلبي يحرقني على الأولاد ، الأولاد فقط!

كانتْ هذه الجملة كفيلة أن تشعلَ النار في صدر الخالة آمنة ، فجادتْ علينا بقصتها الأولى «شارب الأسد»!

قالت تُمهِّد لقصتها : صدقوني أنا لا ألوم الرجال ، الحقُّ دوماً على النساء ، المرأة إذا أرادتْ أن «تعيش وتنستر فستعيش وتنستر» ولو كان زوجها وحشاً ، وإن أرادتْ المشاكل فستختلِقها ولو كان زوجها ملاكاً!

اسمعوا هذه القصة :

يُحكى أنَّ امرأةً أرادت أن تتطلّقَ من زوجها ، فذهبتْ إلى شيخ القرية كما هي عادة المرأة التي تُريد الطلاق ، علّه يساعدها على مُفارقة زوجها!

ولكن شيخ القرية بعد أن سمعَ شكوى المرأة لم يرَ في حديثها ما يدعو إلى طلب الطلاق ، كل ما في الأمر أن زوجها عصبي قليلاً وأنها لو قامت بتحمُّلِه ، وعدم الرد في وجهه عندما يكون غاضباً فلن يحدث بينهما مشاكل ، ثم إن لكل إنسان طبع!

حاولَ الشيخُ أن يُثنيها عن طلب الطلاق ولكنها بقيت مُصِرَّة ، وعندما رأى عنادها ، عمد إلى الحيلة ليُلقِّنَها درساً في الحياة!

قال لها : حسناً سأساعدك في الحصول على الطلاق ولكن بشرط!

- أنا موافقة على شرطكَ يا مولانا الشيخ!

- ولكنكِ لم تسمعيه بعد!

- أنا موافقة عليه دون أن أسمعه ، قُلْ لي ماذا عليّ أن أفعل وسأفعله ، المهم أني لا أريد أن أبقى على ذمة هذا الرجل!

- حسناً ، عليك أن تُحضري لي شعرةً من شارب الأسد!

- جئتُ إليكَ لتُطلِّقني لا لتقتُلني يا مولانا ، كيف أُحضر لك شعرةً من شارب الأسد؟!

- هذا هو شرطي الوحيد ، إما أن ترجعي إلى بيتك وتعيشي مع زوجك وإما أن تُحضري لي شعرة من شارب الأسد!

- حسناً ، أعطني بعض الوقت يا مولانا .

- خذي وقتكِ يا ابنتي .

لم تنم المرأة تلك الليلة ، بقيتْ حتى الصباح تُقلِّب الأمور برأسها ، وتُفكر بطريقة تجعلها تحضر للشيخ شعرةً من شارب الأسد ، ثم اهتدتْ إلى فكرةٍ جهنميةٌ وقررتْ أن تُنفِّذها على الفور!

ذهبتْ إلى السوق واشترتْ خروفاً ثم ذهبتْ به إلى الغابة ، وتقدمتْ حيث عرين الأسد ، فلما رآها من بعيد ، ربطتْ الخروف بشجرة ، ووقفت بعيداً تنظر!

جاء الأسد ، والتهمَ الخروف ، وعاد إلى عرينه .

صبيحة اليوم التالي ذهبتْ إلى السوق واشترتْ خروفاً آخر ، وتقدمتْ هذه المرة به مسافة أقرب إلى عرين الأسد ، وربطته ، ووقفت قريباً منه تنظر!

فقام الأسد والتهمَ الخروف وعاد إلى عرينه لينام!

في اليوم الثالث اشترت خروفاً جديداً ، وذهبت به إلى عرين الأسد ، مُصمِّمة هذه المرة على انتزاع الشعرة من شاربه! تقدمت على بعد خطوات من عرين الأسد ، وربطت الخروف هناك ، فقام إليه الأسد والتهمه ، ثم عادَ لينام ، فاقتربتْ منه ، وأخذتْ تمسح على رأسه حتى نام ، عندها مدتْ يدها ببطء إلى شعرة من شاربه ثم نزعتها ، وعادت بها مُسرعة إلى الشيخ ، وقالت له : تفضل يا مولانا الشيخ .

– ما هذا يا ابنتي؟!

– هذه هي الشعرة من شارب الأسد التي وعدتني إن أحضرتها لك أن تُطلِّقني من زوجي!

– وكيف أحضرتِ هذه الشعرة؟

أخبرَتْه المرأة بما كان منها على مدار الأيام الثلاثة . . .

عندها قال لها الشيخ : أليس من العار يا ابنتي أن تنجحي في ترويضِ أسد مفترس ، ثم تفشلي في ترويض زوجك الإنسان! لو استعملتِ مع زوجكِ الحُب والهدوء والمُراعاة التي استخدمتِها مع الأسد لبُلوغ حاجتك لصار بين يديك أطوع مما كان الأسد!

فخجلتْ المرأة من نفسها ، وعادت إلى البيت مُصممة أن تُصلح ما بينها وبين زوجها!

هذه إحدى حكايا الخالة آمنة يا وعد ، وهي غيض من فيض ، وعُود من حزمة ، ربما لن تروق لكِ هذه القصة ، أو لعلكِ تعتبرينها ضرباً تحت الحِزام ، غير أني لم أقصد إلا أن أسرد الأشياء كما هي ، إلا أنّ ضربةً تحت الحَزام لن تضر!

أول مرة حدّثتني عن مرضها ، فطرتْ لي قلبي ، يومها سألتُها أنا ذاك السؤال الغبي الذي أتمنى اليوم أنّي ما سألتها إياه! بعض الأسئلة التي نسألها للآخرين جارحة يا وعد ، جارحة حقيقةً لا كناية ، تخترقُ الآخرين وتستقرُّ عميقاً في قلوبهم كما تفعل السكين! تخيلي مثلاً أن تقولي لامرأة : لِمَ لَمْ تُنجبي حتى الآن؟!

صدقيني هذا ليس سؤالاً ، هذه طعنة! وهكذا يبدو لي اليوم سؤالي للخالة آمنة ، رغم أن سؤالي لم يكن من باب الفضول أو الرغبة في المعرفة بقدر ما كان من باب أنّي مُهتّم فعلاً ، فقد كنتُ وما زلتُ أؤمن أن إظهار الاهتمام هو إظهار للحُب ، لا حُب بلا اهتمام ، أو بالأحرى لا تُخبرني أنك تحبني ، اهتمَّ بي وسأعرفُ لوحدي أنك تحبني!

قلتُ للخالة آمنة : لماذا تذهبين إلى المستشفى الحكومي ، ما بكِ؟

فقالتْ لي وهي تحبس في العين دمعة جاهدتْ كثيراً كي لا تنحدر على خدها ، وفي الحلق غصّة جاهدتْ كثيراً كي لا

تَظهر في صوتِها ، ولكن هيهات ، ثمّة أشياء لا يُمكن إخفاؤها ، ثمّة دموع واضحة يراها حتى الأعمى وإن لم تنهمر من العيون ، ثمّة غصّة في القلب لا بُد أن تظهر مهما حاولنا وأدَها ، ثمة ندوب في الروح لا يُمكن التحايل لإخفائها ، ندوب الروح كشمسِ الظهيرةِ مهما حاولت الغيوم حجبها إلا أن شيئاً منها يتسلل ويُضيء ويقول لك : أنا هنا!

- أنا مُصابة بالسرطان يا بُني!

- أنا آسف ، لم أكن أعرف ، وأعتذر إن كان سؤالي جارحاً .

- لا تعتذر ، أنتَ لم تخطئ .

- أنا فقط أردتُ أن أطمئن عليكِ .

- أعرف يا كريم ، لا تشرح لي!

- شكراً لتفهمك يا خالة آمنة ، وأسأل الله أن يشفيك .

سادَ بعدها صمتٌ رهيبٌ لم أعرف كيف أقطعه ، ويُخيَّل إليَّ الآن أننا لو بقينا جالسَين قرب بعضنا بعضًا إلى قيام الساعة ، لم أكن لأجد كلمات أكسر بها جدار الصمت ، ولكن الخالة آمنة التي كانت تضجُّ بالحياة لم ترضَ أن يستمر الصمت أكثر من هذا ، فقالت لي وكأنها تستأنفُ حديثنا السابق : قال لي الأطباء لن تعيشي أكثر من سنة ، لقد مضى منها ستة أشهر .

أرادتْ أن تقولَ شيئاً ولكني قاطعتُها قائلاً : الأعمار بيد الله يا خالة آمنة ، وكثيرون هم الذين شفاهم الله من هذا

المرض ، وكثيرون قال لهم الأطباء : لم يبقَ لكم من الحياة إلا القليل ، ولكنهم عاشوا أكثر من الأطباء الذين تنبأوا بوفاتهم!

– أعرفُ يا بُني أن الأعمار بيدِ الله ، وشكراً لك لأنك تُحاول أن تُخفِّف عني بعض الذي أجده ، ولكن صدِّقني أنا لستُ خائفة من الموت ، كلنا سنموتُ نهاية المطاف ، إن لم يكن اليوم فغداً ، وإن لم يكن بالسرطان فبغيره ، حدثتني أمي رحمة الله عليها عن قصة وزير سليمان عليه السلام مع ملك الموت ، أتعرفها يا كريم؟!

– لا يا خالة آمنة ، لا أعرفها ، هلا تكرَّمتِ وقصصتِها عليَّ ، تعرفين أني أحبُّ حكاياكِ!

– حسناً ، يُحكى أن نبيَّ الله سُليمان عليه السلام كان صديقاً لملك الموت ، وكان ملك الموت يزوره من وقت إلى آخر بصورة إنسان كي لا يرتعب الناس الذين في مجلسه ، وفي إحدى زيارات ملك الموت إلى مجلس سُليمان عليه السلام ، أخذَ ملك الموت يُطيل النظر في وجه أحد الوزراء الجالسين في المجلس بطريقةٍ لفتتْ أنظار الجميع وليس الوزير فقط!

ثم قامَ ملكُ الموت وغادرَ المجلس!

فسأل الوزيرُ نبيَّ اللهِ سُليمان : من هذا الذي كان يُطيل النظر إليَّ يا نبيّ الله؟

– هذا ملك الموت أيها الوزير!

– ولِمَ كان ملك الموت ينظرُ إليَّ هكذا يا نبي الله؟

- لا أعلم!

- أسـألكَ بالله يا نبيَّ اللهِ أن تأمـر الريح أن تحـملني إلى الهند على جناح السرعة فإني لا أُطيق الجلوس في أرضٍ كان ينظر ملك الموت فيها إليَّ بهذه الطريقة!

- ومـا يُغنيك لو أمـرتُ الريح أن تحـملك إلى الهند ، إن الأعمار بيد الله ، لا تطول ثانية ولا تقصر ثانية!

- أعـرفُ يا نبي الله ، ولكني لن أجلس في هذا البلد ، أسألك بالله أن تأمر الريح أن تحملني إلى الهند!

أمرَ نبيُّ الله سُليمان الريحَ أن تحمل الوزير إلى الهند على جناح السُّرعة ، ثم لم يمضِ وقتٌ طويل ، حتى عاد ملك الموت ودخل على سُليمان عليه السلام ، فقال له سيدنا سليمان : لماذا كنتَ تنظر إلى الوزير بهذه الطريقة يا ملك الموت!

فقال له : إنَّ الله أمرني أن أقبض روح الوزير في الهند ، ولما جئتُ إلى مجلسك ووجدته عندك ، وقد اقتربَ موعد موته ، قلتُ في نفسي ، ما الذي سيأخذ الوزير إلى الهند ولم يبقَ من عُمْره إلا لحظات ، ولكني أعلمُ أن علم اللهِ لا يُخطئ ، فلما ذهبتُ إلى الهند وجدته ينتظرني هناك!

- الله ، الله ، يا خالة آمنة ، يا لها من قصة رائعة ، جميلة ومفيدة تماماً كما هي قصصكِ دوماً!

- أهم من القصة هو الدرس الذي نتعلمه منها يا كريم ، كلنا في هذه الحياة كوزير سُليمان عليه السلام ، سنذهبُ بأقدامنا

إلى حيث أُمِرَ ملكُ الموت أن ينتظرنا ليقبضَ أرواحنا!

– معكِ حق!

– لهذا السبب لستُ خائفة من الموت ، لا أُخفيك أن للأمر رهبة ، ولكن ليس إلى درجة الخوف ، أنا أُحسنُ الظن بالله ، وأُحبُّه أكثر مما أخافه ، أو بالأحرى أخافُ أن أُقابله بذنوبي! ثم عندما أُقارن ذنوبي بما أعرفه عن عفوه ورحمته ، أتيقّن أنه سيكون رحيماً بي أكثر من كل الناس الذين يحبونني!

– هنيئاً لكِ هذا الإيمان ، وهذه الطمأنينة يا خالة آمنة ، إنّ الرضا على قدر الله وقضائه شيء يُغبطُ عليه من كان في حالتكِ ، بعض الناس قد يتسخط على الله ، فيقول لماذا أنا بالذات ، ولماذا ابتلاني الله أنا وعافى غيري!

– أعوذُ بالله أن لا أرضى بقضائه وقدره ، أتُصدقني يا كريم أني لستُ راضية فحسب ، بل أنا سعيدة!

– سعيدة؟!

– أجل سعيدة ، أتعرف لماذا!

– لماذا؟

– لأني أرى رحمة الله من خلال هذا المرض ، صدِّقني يا كريم إن موقفنا من الأشياء يختلفُ وفقاً للنظرة التي ننظر بها ، وأنا حين أنظرُ إلى كل ما أصابني لا أرى إلا رحمة الله ، لقد أهداني هذا المرض ليُخفِّف عني ذنوبي وسيئاتي أولاً ، ولكي يجعلني أستعد ، وأنا اليوم علاقتي بالله أوثق مما كانت عليه

قبل المرض ، أليستْ هذه رحمة يا كريم ، أن يَبتليك وكأنه يُهيِّئك للقدوم عليه نظيفاً مستعداً؟!

– مُذهلة أنتِ يا خالة آمنة ، والله مذهلة ، قرأتُ عن فلسفة الموت كثيراً ، عن المرض ، عن تساؤلات الناس والفلاسفة ، ولكنّي لم أقرأ مرةً عن أحد يأخذ الأمور بهذه البساطة وهذا الإيمان الذي تأخذينها بها!

– الحمد لله على كل حال يا كريم . . .

– الحمد لله على كل حال يا خالة آمنة . . .

إلى هنا انتهى الحوار مع الخالة آمنة يا وعد ، ولكن حوارات كثيرة دارتْ بعدها ما زلتُ أحفظها عن ظهر قلب ، ولكن أكتفي بذكرِ ما ذكرته لكِ ، يكفيكِ من القلادة ما أحاط بالعُنق!

ولعلكِ تسألينَ ما الذي حدثَ للخالة آمنة ، خصوصاً أنكِ توقفت عنَ المجيء معنا ، لقد ذهبتْ إلى الله نظيفة مُستعدّة ، وهنيئاً لَها هذا الإيمان الذي استقبلَتْ به مرضها ، وهنيئاً لهاَ هذا الإيمان الذي غادرَتْ به الدنيا!

جميلة أنتِ يا وعد ، وأجمل ما فيكِ ابتسامتكِ ، أول مرة انتبهتُ كم هي فاتنة كانت في بداية حديثٍ لنا ما زلتُ أذكره كأننا أجريناه منذ لحظات ، وكانت أحاديثي معكِ متعة توازي متعة النظر في عينيك عن قرب ، قلما نتفق في أفكارنا ، وكان هذا شيء يسعدني بالمناسبة ، جميل أن يجد الإنسان بقربه شخصًا له نظرة أخرى للأمور ، وما زلتُ أؤمن أن الاختلاف لا يعني التضاد ولا التنافر ، ولا بُدَّ لأي حبيبين أن ينظرا إلى الوجهة نفسها ، ما أعنيه هو ما يلاحظه كل منهما من معالم الطريق ، على أي حال يومها لم نكن قد صرنا بعد حبيبين ، كنا في بداية تعارفنا ، وكانت الطريق قرابة الساعة ، وكما يقول العرب : الحِداء زاد الراكب ، كنا جميعًا نستعيض عن الحِداء بالحديث .

سألتني يومها دون مناسبة ، تماماً كما هي عادتك عندما تجول في رأسك فكرة تريدين أن تناقشيني بها ، هل تؤمن بالحب من أول نظرة؟!

قلتُ لكِ : لا .

– هذا طَبيعي بالنسبة لإنسان يوشك أن يصبح مهندسًا ، العلمُ يتلف أحاسيس الناس

– على أساس أنكِ تخرجتِ من كلية الآداب ، وعشتِ مع

مجنون ليلى ، وكُثير عزة ، أنتِ درستِ التجارة والاقتصاد ، وتعملين في بنك ، فأنتِ إذًا رأسمالية!

ابتسمتِ يومها ، ثم انفجرتِ ضاحكة ، وكانت تلك أول مرةٍ ألاحظ فيها كم هي جميلة ابتسامتكِ ، كنتِ عندما تبتسمين تصبحين امرأة أخرى غير التي أنتِ عليها ، من خلالكِ آمنتُ أن الابتسامة هي أفتك مستحضرات التجميل!

لم يكن جوابي لكِ ليجعلكِ تتخلين عن مناقشة فكرتكِ معي!

فقلتِ لي : لماذا لا تؤمن بالحب من النظرة الأولى؟

- ولِمَ عليَّ أن أؤمن به!

- لأن في الإنسان حاسة يعرف من خلالها عند رؤية شخص ما أنه ما ينقصه!

- القلب أبصر من العين يا وعد ، والعقل أبصر من كليهما!

- ومتى كان الحب معادلة حسابية يتم حلها بالعقل؟

- ما قصدته هو الاختيار الواعي للحبيب ، العين أداة للحكم على المظهر الخارجي ، لا أنكر أنها مهمة في اختيار الحبيب فلكل منا مواصفات جمالية مادية يريد أن تتوفر في شريكه ، ولكن ليس كل ما يعجبنا يقع في قلوبنا!

- ها أنت تعترف بحكم القلب إذًا!

- ليس بالضبط ، أنا لا أُنحّي القلب تمامًا ولا أترك له زمام الأمور ، أنا دومًا بين بين .

– ولماذا على الإنسان أن يكون بين بين؟

– لأن الإنسان يخلط بين الإعجاب والحُب .

– وهل هناك حُب دون إعجاب؟

– لا ، ولكن هناك إعــجــاب من دون حُب! وأنتِ حين تؤمنين بالحُب من أول نظرة فكأنكِ تجعلين منهما شيئًا واحدًا!

– أنا أعتمد على إحساسي فقط!

– ولكن الأحاسيس شاعرية وليست عقلانية!

– صحيح ، ولكن الحياة العقلانية مملة!

– وكذلك الحياة الشاعرية متهورة!

– شخصيًا أفضل التهور على الملل!

– أنا لا أفضل أيًا منهما ، لا أحب أن أعيش علاقة مملة ولا متهورة ، لماذا عليّ أن أختار أحد الشرين ما دام بإمكاني أن أوفق بين عقلي وقلبي؟

– الحب الذي لا يلغي العقل ليس حبًا!

– بالعكس ، الحب الذي لا يقوده العقل هو مسخ حُب!

– هل تستطيع أن تنكر أن عشرات قصص الحُب كانت من أول نظرة ، وأنها استمرت حتى آخر العمر؟

– لا أنكر أني سمعتُ عن علاقات حب كهذه ، ولكني بالمقابل أؤمن أنها لم تستمر لأنها كانت حبًا من النظرة الأولى ، بل لأنها وجدت ما يكفل استمرارها ويغذي بقاءها فاستمرت .

– لماذا تفترض أن الحب يحتاج مقومات أخرى ، ألا يكفي وحده ليجعل علاقة ما تستمر؟

– الحب ليس حكرًا على علاقة بين رجل وامرأة ، وإن كان هو الشائع بين الناس ، بين الأم والابن حب ، وبين الأب والبنت حب ، وبين الأخ وأخيه حب ، وبين القريب وقريبه حب ، وبين الصديق وصديقه حب ، لكنك تعرفين أن هذه العلاقات ليست جميلة دومًا ، هناك أولاد يضعون والديهم في مأوى العجزة وهناك أخ يأكل حق أخيه ، وهناك قريب يظلم قريبه ، وهذا حُب موجود في هؤلاء بالفطرة لا يمكن لأحد أن ينكره ، ولكن الحُبّ المعاملة ، لا تكفي المشاعر فقط ، نحن بشر يا وعد ، ومتناقضون حدّ الذهول ، من الأمهات من هي على استعداد أن تقطع من لحمها لتطعم أولادها ، ومنهن من تتركهم لتعيش حياتها ، ومن الإخوة من لا يسره أن يُشاك أخوه بشوكة ويسلم هو ، وقد قتل قابيل أخاه هابيل لأجل امرأة!

– وما أدراك أن الذي نختاره عن عقل كما تقول سيعاملنا بالحُبّ ، أنتَ تعطي عقلك القدرة على التنبؤ!

– لا أعطي عقلي القدرة على التنبؤ ، وإنما أثق أنه يساعد على استشراف المستقبل!

– يساعد إذًا ولا يحكم حكمًا جازمًا!

– صحيح ، ولكن فرص نجاح العلاقات الناتجة عن عقل أكثر من فرص نجاح العلاقات الناتجة عن عين!

– هذا يعني أنه لا يمكنك أن تحب امرأة إلا إذا أخضعتها للدراسة!

– للدراسة؟ من قال هذا؟

– أنتَ ، ألا ترى أنك تتعامل مع مشاريع الحُب بمنطق التاجر المقبل على مشروع جديد ، يضع جدوى اقتصادية ، يحسب كل شيء بالورقة والقلم؟

– ليس بالضبط ، أنا لا أقول أني أخضعها للدراسة بقدر ما أقول أن المعيشة تكشف الناس ، الإنسان مواقف يا وعد ، قل لي ماذا تفعل أقل لكَ من أنتَ!

– إذاً أنتَ ضد الزواج التقليدي جملةً وتفصيلاً لأنه لا يتيح لكَ معرفة شريك حياتك حق المعرفة ، وأنّه يضعك معه ، وأنتَ وحظك عندها!

– نوعًا ما أنا كما تقولين . . .

– هذا يعني أنك لن ترتبط بامرأة إلا إذا كنتَ قد عرفتها عن قرب أولاً؟

– هذا صحيح!

– رغم أنك تعامل الحياة بشكل علمي كما هو واضح حتى في شأن الحب الذي هو حالة شعورية ، إلا أن العلم لا يُنكر أن الحب من أول نظرة قابل للحدوث!

– العلم يقول هذا؟

– أجل ، العلم يقول هذا!

– لم أسمع بهذا من قبل!

– العلماء الذين درسوا نشاط الدماغ البشري خلصوا إلى أن عاطفة الحُبّ من أول نظرة ممكنة الحدوث! وهناك أشخاص ممن شملتهم الدراسة جربوا بأنفسهم الحب ومن أول نظرة ، تلك اللحظة الرائعة عن وقوع الحب ، فقد قالوا أنهم باللحظة التي التقت فيها أعينهم بأعين أحبائهم عرفوا من فورهم أنهم ينظرون إلى ما كانوا يبحثون عنه .

– لا أكذّب هذا ولا أصدقه ، ولكن عبارة ممكن الحدوث تعني أن هذا احتمال وليس حتمية ، والعلم هنا يُفسر ظاهرة ولا يضع قانونًا ، أنا لم أنكر أني سمعتُ عن الحب من النظرة الأولى ، ولكن لا أقول أنه حتمي ، وأزيدك من الشعر بيتًا أن كثيرًا من هذا الحب انتهى بكارثة وأنتِ تعرفين هذا .

– انتهاء هذا الحُب بهذه الطريقة لا يعني أنه غير قابل للاستمرار ، فالحب الذي تؤمن أنتَ به يفشل أحيانًا .

– هذا صحيح!

– حتى علم النفس يقر بوقوع الحب من النظرة الأولى!

– حقًا؟

– أجل ، يقول علماء النفس إن إحساس الحُب من أول نظرة يعتمد على أوضاعنا النفسية لحظة الوقوع في الحب ، أحيانًا نفشل في تمييز العيون الساحرة التي تنظر إلينا ، وأحيانًا نقع فريسة تلك النظرات ، ويقول علم النفس أيضًا أن الوقوع في

الحب يستغرق حوالى ثلاثين ثانية ، ويزيد علم النفس النفس شيئًا قد لا يُعجبك!

– ما هو؟

– يقول : أنّ الرجال يقعون في الحبّ أولاً!

– ولكن هذا ليس رأي علم النفس!

– لقد قرأت هذا الكلام بنفسي!

– أصدقك ، ولكن أريد أن أخبرك أن علماء النفس لم يكونوا يومًا على رأي واحد في قضية واحدة! هناك مدارس في علم النفس ، وهناك آراء متضاربة في مسألة واحدة ، ويكفي ردًا على هذا كله أن أخبرك أن «سيغموند فرويد» واضع علم النفس ينكر الحُب جملة وتفصيلاً ، وأنه يقول إن الحب هو رغبة مقنعة لممارسة الجنس!

– وهل تؤمن أنت بهذا؟

– لا ، ولكني سقتُ لكِ كلامه لأخبركِ أن ليس كل ما يقوله علم النفس صحيح .

– وليس كل ما يقوله خاطئ أيضًا!

– بالتأكيد ، ولأثبت لكِ أن علم النفس قد يقول الشيء وضده أحيانًا ، فإن «أريك جودمان» طبق دراسة على مجموعة كبيرة من الشباب من الجنسين في المدارس الثانوية في نيويورك ، وخلص إلى أن الانطباع القوي الناجم عن اللقاء الأول بين الرجل والمرأة ، والذي يسميه الناس الحب من أول نظرة

يكون وهماً وخداعًا في أغلب الأحوال! حيث يكون هذا الإحساس وليد ولع أحدهما بفكرة الحب نفسها ، أو لأن أحدهما حاول تجسيد صورة أو صفات المحبوب الموجودة في الخيال عند الآخر ، ثم يتبين له أن الخيال مخالف للواقع ، كما أن الإعجاب القائم على الشكل وليس الجوهر سرعان ما يتلاشى . وأضاف «جودمان» أن المحب عندما يكتشف أن الواقع قد اختلف عن الخيال ، وأن الحب من أول نظرة لم يسفر عن عاطفة مثمرة ، وأن المحبوب ليس فتى أو فتاة الأحلام يشعر وقتها أنه المسؤول عن خداع نفسه!

- يبدو أن الأمر كما قلتَ ، آراء واتجاهات . . .

- هو كذلك فعلاً!

- بالمناسبة ، أغلب الذين كانوا مثلك ينكرون الحُب من أول نظرة وقعوا نهاية المطاف فريسة له .

- إذا حدث هذا يومًا فسأقول لكِ أني كنتُ مخطئًا!

- أنتَ عنيد ، وقد لا تفعل!

ضحكنا يومها وأنهينا الحديث دون أن تقنعيني ودون أن أقنعكِ ، ولكنها كانت فرصة لأعرفكِ من الداخل أكثر!

تعالي لنعقد هُدنةً الآن ، ونتابع غدًا حرب الذكريات المستعرة التي أخوضها عني وعنكِ!

ولنرجع إلى رفاق الحافلة ، تصدقيني لو أخبرتكِ أني صرتُ أؤمن أن أجمل الأشخاص في حياتنا ليسوا أولئك الذين نخرج لنبحث عنهم ، وإنما أولئك الذين نتعثر بهم في طرقات الحياة أثناء اتجاهنا إلى مكان آخر؟!

لن أنسى ما حييتُ ماهراً وهشاماً ، لا شكَّ أنكِ تذكرينهما أيضًا ، أحسبهما من الأشخاص الذين لا يمكن نسيانهم بسهولة ، لأنهم ببساطة من الأشخاص الذين لا يمكن العثور عليهم بسهولة! الغريب في الأمر أنه لا يمكنني أن أذكر أحدهما دون الآخر ، ذكرى ماهر تستحضر هشامًا ، وذكرى هشام تستحضر ماهرًا ، تمامًا كشخصيتي «توم» و«جيري» وشخصيتي «شرشبيل» و«السنافر»!

لا تضحكي ، تعرفين أن هذا هو التوصيف الأمثل لما كانا عليه! كانا شخصيتين متضادتين ، والشخصيات المتضادة كأقطاب المغناطيس يجذب أحدهما الآخر ، لا يمكنني الجزم أنهما انجذبا في عقليهما لبعضهما بعضًا ، ولكن مما لا شك فيه أنهما جذبانا إلى الحوارات الفكرية الشيقة التي كانت تدور بينهما ، وتدور هو لفظ ملطّف كما تعرفين ، بتعبير أدق كانت

تلك النقاشات تستعر! كانا كالزيت والماء في كوب واحد ، يستحيل أن يختلط أحدهما في الآخر إلا بتحريك شديد ، ولكن بعد دقائق يهدأ المزيج ويعودان لينفصلا!

كان ماهر طالبًا في السنة الأخيرة في كلية الشريعة ، لم يكن يشبه أئمة المساجد الذي أعرفهم ، كان مثقفًا إلى أبعد حد ، يقرأ كثيرًا ، ويعرف في شتى العلوم ، متواضعًا ، مبتسمًا على الدوام ، ويصغي باهتمام ، لهذا أحببناه جميعًا! ولطالما تمنيتُ لو كان أئمة المساجد على شاكلته لأني على يقين أن أئمة المساجد يتحملون مسؤولية كبيرة في ابتعاد الناس عن الدين!

أما هشام فكان صحفيًا ، تخرّج قبل سنة من كلية الإعلام ، كان وسيمًا مثقفًا ، حادًا في طبعه ، يصعب تصنيفه ضمن فئة أو حزب ، لم يكن يساريًا بالمعنى الأكاديمي لليسارية ، وإن كان فيه من اليساريين بعض زهدهم ، ولم يكن رأسماليًا وإن كان مفتونًا بالحضارة الغربية كما أعتقد ، إلا أن أهمّ صفة فيه أنه خُلق ليعترض! لم يكن يعجبه شيء ، كأن سنفور معارض وسنفور غضبان قد حطا رحالهما فيه!

هاتان الشخصيتان المتضادتان هما اللتان أنجبتا لنا حوارات فكرية وثقافية استمتعنا بها جميعًا ، ولا زلتُ أذكرُ حواراتهما كأنها جرت بالأمس ، بعض هذه الحوارات فاتتكِ إذ كانت تحدث أثناء غيابكِ ، وبعضها كنتِ شاهدة عليها ، وأنا على يقين أنكِ أيضًا تذكرين بعض ما دار بينهما ، فكثيرًا ما كنا أنا

وأنتِ نُبدي الآراء حول ما قالاه ، كنتُ أنا في أغلب الأوقات في صف ماهر ، وكنتِ أنتِ أغلب الأوقاتِ في صفٍّ هشام وقلّما تبادلنا الأدوار!

من الحوارات العالقة في ذاكرتي ، حوارهما عن الدِّين والحُبِّ ، استمر هذا الحوار راكبًا معنا في الحافلة أسبوعًا كاملاً ، وكان الراكب الأم في حافلتنا!

كنتُ أريد أن يطول الطريق فلا أضطر لانتظار الغد ليتابعا من حيث توقفا ، بدأ الحوار فجأة تمامًا كما كانت تبدأ الحوارات عادة ، يخيم على هشام دقائق صمت فيما يبدو لنا ، ولكن معارك الأفكار تدور في رأسه ، ثم يلقيها على ماهر على هيئة سؤال ، وهذه المرة لم تكن مختلفة عن غيرها ، كان الصمتُ مطبقًا إلا قليلاً ، عندما قال هشام موجهًا كلامه إلى ماهر :

– أتعرف يا ماهر ، يُخيل إليّ أن الدّين لم يهتم بكل جوانب النفس الإنسانية .

– وما الذي دعاك إلى مثل هذا الاعتقاد يا هشام ، وهل جاءت الأديان إلا لتأخذ بيد الإنسان نحو تحقيق إنسانيته!

– خُذ عندك مفهوم الحُبّ مثلاً . . .

– ما به؟

– ألا ترى أن الدين لم يعره الاهتمام الكافي؟

– أي حُبّ تقصد ، هذا الشعور المطلق ، أم أنك تعني الذي يربط رجلاً وامرأة؟

- الذي يربط رجلاً وامرأة!

- وكيف عرفت أنه لم يعره الاهتمام الكافي؟

- لأني قرأتُ القرآن أكثر من مرة ، ولم أجد آيات تتطرق إليه!

- هذا موضوع طويل يا هشام ، لا تكفي له الطريق!

- ما علينا أن نكمل في الغد إن ضاق علينا الوقت ، أم أنك لا تجد ردًا ولا تريد أن تُسلّم لي فيما أعتقده!

- تعرف أني لا أعاند ولا أكابر ، ولا أقف ضدك ، إنما نضرب الرأي بالرأي ، ونطرح الفكرة إزاء الفكرة ، ولك الحق في أخذها أو ردها ، تمامًا كما هذا حقي إزاء ما تطرحه من أفكار!

- هذا صحيح ، أنا أمازحك فقط ، والآن عُد بنا إلى ما نحن فيه .

- حسنًا ، لك هذا! بداية عليكَ أن تعرف أن الإسلام ليس قرآنًا فقط ، وإنما هو قرآن وسنة ، ومن ثم إجماع وقياس . . .

- أعرف هذا!

- إذًا عليكَ أن تعرف أيضًا أن القرآن عندما يسكتُ عن أشياء فليس بالضرورة أنه يقف ضدها! أو لا يعيرها الاهتمام الكافي ، فعلى سبيل المثال لا يمكنك أن تقول لي : إن شراب المانغو حرام لأنه لم يأتِ الحديث عن إباحته في القرآن! لأني سأجيبك أن الأصل في الأشياء الإباحة لا الحُرمة ، والقرآن

يحدثنا عن القليل الذي هو حرام ، ويترك الكثير الذي يُفهم ضمنًا أنه حلال ، هذا أولاً!

أما ثانيًا فإن هذا القرآن جاء مجملاً في كثير من آياته ، ولم يفصل ربنا إلا حيث يقتضي التفصيل ، خُذ عندك آيات الميراث مثلاً ، أما كثير من الأشياء فأشار إليها وترك للناس فرصة أن يُعملوا عقولهم بها!

- وهل أشار إلى الحُبّ ، أو إعجاب المرأة بالرجل والعكس؟ لا أعتقد هذا!

- هذا لأنك لم تلتقط الإشارة وليس لأنها غير موجودة ، فعدم إدراكنا لشيء ليس دليلاً على عدم وجوده!

- هذا صحيح ، ولكن أين أشار القرآن إلى هذا؟

- خُذ عندك قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، ألا تجد أن النص القرآني قد أقرّ بعاطفتها نحوه إذ قال ربنا : ﴿قد شغفها حبًا﴾ ألا تجد أنه أثبت وجود الحبّ؟

- ولكنه كان ضد هذا الحُبّ!

- كان ضد هذا الحب لأنها كانت امرأة متزوجة ، فهو مع العفة وليس ضد الحبّ! وحين يصف القرآن هذا الشغف منها بيوسف عليه السلام فإنه يقرّ بوجود الحب ، وحين يقف ضده فإنما يقف ضده لوقوف الحب ضد العفة ، وليس لمجرد أنه شعور!

- ربما معك حق . . .

- من الذي يكابر الآن؟

– حسنًا معك حق دون ريب ، والآن أكمل ، أين الإشارة الثانية؟

– الإشارة الثانية كانت في قصة موسى عليه السلام ، وإن كانت هذه المرة أخفى من التي قبلها!

– وكيف هذا؟

– عندما قتل موسى عليه السلام الرجل من آل فرعون ، واجتمع الملأ يأتمرون به يريدون أن يقتلوه ، جاء من يخبره بما اجتمعوا له ، ونصحه أن يخرج من مصر ، فأخذ موسى عليه السلام بنصيحته وتوجه إلى مدين ، وهناك وجد على عين الماء الرعاة يسقون ماشيتهم ، ومن بين الرعاة امرأتان انتظرتا أن يفرغ القوم من سقاء ماشيتهم حتى يتسنى لهما أن يسقيا ، وعندما انصرف الرعاة وبقيت المرأتان قام موسى عليه السلام إليهما ليساعدهما في سقاء قطيعهما فقد كان رجلاً شهمًا ، وسألهما عن حالهما لأن الرعي كان شأن الرجال ، فأخبرتاه أنهما ترعيان لأن أباهما رجل مُسن وليس لهما أخ ذكر يقوم بعبء هذا الأمر عنهما ، فسقى لهما ، ثم انحاز إلى شجرة ظليلة يقيل تحتها ، وعندما عادت الفتاتان إلى أبيهما حدثتاه بالذي كان من هذا الرجل الغريب معهما ، فأرسل إحداهن في طلبه ليكافئه على صنيعه هذا ، فمشت ومشى موسى عليه السلام خلفها ، فأخذت الريح ترفع طرف ثوبها فيظهر شيء من أسفل ساقها ، فطلب منها أن يمشي هو أمامها ، فأعجبت هذه المرأة بأمانته كما

أعجبت بقوته من قبل إذ سقى القطيع وحده ، فقالت لأبيها : ﴿يا أبتِ استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ وكان أبوها شعيب عليه السلام فطنًا لماحًا ، عرف أنه وقع في قلبها شيء من حُب موسى عليه السلام فقال له : ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين﴾!

– فعلاً إشارة موغلة في الخفاء لم أنتبه لها ، ولكن ألا ترى معي أن موضوعًا بهذه الأهمية ما كان ليترك للإشارات يلتقطها قلة قليلة ويغفل عنها الكثيرون ، ولا تبرر لي هذا بقولك نزل القرآن مجملاً في كثير من آياته!

– لا أحتاج أن أبرر لك ، إنما يُبرر المتهم ، وما دام القرآن كلام الله فليس لأحد أن يقول : لو قال الله هذا وترك هذا!

– لم أقصد هذا ، ما قصدته أن الأمر على هذا القدر من الأهمية ولا بأس عليّ إن تساءلتُ لماذا لم يأتِ مفصلاً؟

– أبدًا لا بأس عليكَ ، ومن حكمة الله في الآيات المجملة أنه أرادنا أن نمعن عقولنا في كلامه سبحانه . . .

– معي حق إذًا!

– معك حق من جهة ، وليس معك حق من جهة أخرى!

– وكيف هذا؟

– معك حق من جهة أن الأمر هام جدًا ، عليه قوام استمرار البشرية وعمارتها للأرض ، وليس معك حق في أن

تُنحي السنة الشريفة كلها وتكتفي بالقرآن ، ثم نتساءل لماذا لم يُفصّل الإسلام في المسألة؟

- وهل في السنة تفصيل في أمر الحب؟

- ليس في السنة فقط ، وإنما في عمل الصحابة أيضًا ، وكلام الفقهاء . . .

- وهل نجد هذا فعلاً؟

- طبعًا نجده!

- وأين ورد هذا؟

- سأخبرك ، ولكن ليكن صدرك رحبًا فهذا حديث يطول!

- قل ، كلي آذان صاغية!

- لنتفق أولاً على أن نقرأ ما بين السطور ولا نكتفي بظاهر الكلام ، فأنت تعرف أن في خبايا الكلام أخبارًا أكثر مما في ظاهرها .

- حسنًا اتفقنا!

- يقول رسول الله ﷺ ، «لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح» . فهل برأيك أن هذا الكلام إقرار بأن الحُبّ عاطفة بشرية طبيعية علينا أن نسلك في سبيلها الطريق الصحيح الذي وضعه الإسلام ، أم أنه موقف مضاد للحُب؟

- بل هو إقرار ، وإلا لقال كان من الخطأ أن يكون هناك حُب من البداية!

- أحسنت ، مربط الفرس إذاً أن لا يتعارض الحب مع العفة ، أما الحُب من حيث ما هو شعور فلا شيء فيه ما دام هو

شعور ، وإنما كان الإسلام ضد ما يُرتكب من خطايا تحت مظلة الحُبّ!

- كلام منطقي ، ولكن لا يمكن بناء نظرية متكاملة من حديث واحد!

- ليس بالضرورة ، يكفي حديث واحد لينتج عنه حكم شرعي يجب التزامه ، ولكنني أبشرك أن في الموضوع أكثر مما تعتقد . . .

- وأين ورد هذا؟

- أما أنكَ قد سألت فاسمع إذًا ، وتعالَ معي نمشِ الطريق من أولها ، ولنبدأ بالذي هو خير الناس وسيدهم ، رسول الله ﷺ ، إنك لتعرف أنه لم يكن قبل النبوة على دين قومه ، وأنه قبل الوحي بفترة حُببت إليه الخلوة ، فكان يحمل زاده ويصعد إلى غار حراء حيث يقضي الليالي ذوات العدد هناك متأملاً في هذا الكون وفي هؤلاء الناس ، ثم يعود إلى بيته ، ثم ما يلبث أن يشتاق إلى ما حُبب إليه ، فيترك بيته عائدًا إلى غار حراء ، ثم حانت اللحظة الحاسمة التي أراد الله فيها أن يُغير وجه هذا الكوكب إلى الأبد ، كانت الأرض على موعد مع السماء ، وكان هذا الصادق الأمين جليس الغار حلقة الوصل بين السماء والأرض ، فنزل عليه جبريل بأول القرآن الذي كان كما تعرف ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ، وكان من الطبيعي أن يُصاب بالهلع يومذاك ، إنها رهبة الوحي الأولى ،

وثقل المسؤولية ، وحجم الأمانة والرسالة ، فكان لا بد أن يرجع إلى مكة ، برأيك إلى من عاد!

- إلى من؟

- قد تعتقد أنه عاد إلى بني هاشم وهم أهله ، أو إلى أبي طالب عمه الذي رباه منذ نعومة أظفاره ، أو إلى حمزة عمه الآخر الذي كانت تلقبه العرب بصائد الأسود فلم يكن يغريه غيرها من الطرائد ، أو لعلك تعتقد أنه عاد إلى أحد أصدقائه المقربين ، ولكني أقول لك أنه لم يعد إلى أي واحد من هؤلاء . . .

- فلمن عاد إذًا؟

- عاد إلى خديجة زوجته ، ولم يجد حرجًا أن يبدو أمامها مرتعدًا مرتجفًا ، يطلب منها أن تغطيه وتضمه إليها ، فقد كانت مكة كلها عنده في كفة ، وكانت هي في الكفة الأخرى ، كانت امرأة بعراقة قرية يقدسها العرب ، وبحجم قبيلة تُعلي الصحراء قدرها ، لقد أحبها كما لم يُحب أحدًا من قبل ، وكما لن يحب أحدًا من بعد! فلم تكن زوجته فقط ، كانت أباه الذي لم يره ، وأمه التي ماتت عنه طفلاً ، وإخوته الذين لم ينجبهم له أبواه ، وقد عرف فعلاً إلى من يأتي ، فقد كانت امرأة بحجم المجيء ، منذ اللحظة الأولى التي أوى فيها إليها ، هدّأت من روعه ، وطمأنته ، وأخبرته أن من كان بمثل أخلاقه فلن يخزيه الله أبدًا ، وعددت له محاسنه ، كيف يعين المحتاج ، ويطعم الجائع ، ويعين الناس على نوائب الدهر ، ولما هدأ وذهب عنه

الروع ، أخذته إلى قريبها ورقة بن نوفل وكان طاعنًا في السن ، عالمًا بالتوراة والإنجيل ، فلما سمع منه ، أخبره أن هذا هو الوحي الذي كان يأتي الأنبياء من قبل ، بالله عليكَ أهذا حبٌّ أم لا؟

- بلى إنه حب ، ولكن قد يقول قائل إنها الفطرة والغريزة فهو لم يكن رسولاً بعد ولم تصبح له شريعة!

- إن قال قائل هذا فقد صدق ، ولكن ألقى الحجة على نفسه ولم يلقها علينا!

- وكيف ذاك؟

- منذ متى كان الإسلام ضد الفطرة والغريزة؟ إنه الدين الذي تأوي إليه الفطرة كما يأوي رضيع إلى أمه ، أما عن الغريزة فما جاء الإسلام ليكبت الغرائز وإنما ليهذبها فهذا شيء مشترك بين الإنسان والحيوان ، وقد أراد الله بهذا الدين أن يرفعنا!

- فماذا عن كونه لم يكن قد صار نبيًا بعد؟ .

- تقصد أنه لم يكن رسولاً بعد ، فالنبوة قد تحققت له بنزول الوحي ، أما الرسالة فقد تحققت له بسورة المدثر في قول ربه : ﴿قم فأنذر﴾! ولكن دعنا ننظر إلى حاله بعد أن صار نبيًا ورسولاً . . .

- هذا هو الذي أريده بالضبط!

- عندما مرضت خديجة رضي الله عنها مرضها الذي ماتت به ، نظر إليها وهي طريحة الفراش تئن وتتوجع ، فقال لها : بالكره مني ما يجري لكِ يا خديجة! أي يوجعني ما

يوجعكِ! أبعد هذا الحب حُب ، وبعد هذا العشق عشق! لم يتضامن فقط ، ولم يواسِ فحسب ، كان شريكًا في الوجع! كان يتألم لألمها ويتوجع لوجعها . . .

– موقف جميل لا شك ، ولا سبيل إلا إلى الإشادة به ، ولكن ما عساه يقول على مسمعها؟ أيملك إلا أن يجاملها!؟

– إذًا يحتمل هذا الموقف أحد أمرين :

الأول : أن يكون يحبها فعلاً ويتوجع لوجعها .

الثاني : أن يجاملها ويطيب خاطرها .

– بالضبط ، فلماذا تجزم أنت بالاحتمال الأول؟

– لأن المجاملة إنما تكون للحاضر لا الغائب أليس كذلك؟

– بالتأكيد!

– إذًا فلننظر إلى حبه لها وقد ماتت ، ولم تعد المجاملة تفيدها هي ولا يحتاجها هو!

– فكيف كان الحال بعد موتها؟

– ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، إذ فقد عمه الذي كان يدافع عنه ، وزوجته التي كان يحبها في عام واحد ، فسمى ذلك العام عام الحزن ، ولما لم تعد الأرض كلهاً تصلح أن تكون عزاءً له ، استدعاه ربه إلى السماء ، ليطيب خاطره عما فقد في الأرض!

– ولكنه تزوج بعدها!

– ولكنه بقي يحبها حتى آخر لحظة من عمره!

- وما أدراك؟

- كان قد تجاوز الستين من العمر عندما رأى نسوة قد شارفن على الثمانين ، فخلع رداءه ، وأعطاهن إياه ليجلسن عليه ، وقال لمن حوله يُبدد دهشتهم : هؤلاء صويحبات خديجة! هذا هو حب العمر الذي لا يطويه الموت يا هشام ، وأزيدك من الشعر بيتًا إن شئتَ!

- فإني أشاء ، ولأول مرة أجدني أحاورك مستمتعًا ، راغبًا في السماع أكثر من رغبتي في الحديث!

- فاسمع إذًا ، تقول زوجته عائشة رضي الله عنها : ما غرت من امرأة كما غرت من خديجة ، ولقد ماتت قبل أن يتزوجني رسول الله ﷺ بثلاث سنين ، وكنتُ أسمعه يذكرها ، وإنه كان ليذبح الشاة ثم يهدي منها لصديقاتها!

وقد حدث مرة أن جاءته عجوز فأحسن استقبالها ، وقال كيف أنتم؟ كيف حالكم ، كيف كنتم بعدنا؟ فقالت : بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فلما خرجت سألته عائشة : يا رسول الله تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟

فقال : يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة!

أحبٌّ هذا يا هشام أم غير ذلك؟

- والله إنه لحُبّ!

- أتحب أن أزيدك من الشعر بيتًا أخيرًا؟

- إن شئت فافعل!

– كانت عائشة رضي الله عنها تغار من خديجة وهي تحت التراب كما أخبرت هي ، وكما أخبرتك أنا ، ومرة قالت له وهي في شدة غيرتها : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ، أما زلتَ تذكرها وقد أبدلك الله خيرًا منها؟

فقال لها : واللهِ ما أبدلني الله خيرًا من خديجة! تلك امرأة رزقني الله حبها ، آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، وكان لي منها ولد! أرأيت هذا النبل يا هشام! إنه يرفض أن يُطيب خاطر حي على حساب ميت يحبه ، كان يحفظ غيبتها وهي تحت التراب!

– إنه حقًا نُبل!

– فهل يستقيم أن يسأل أحدٌ بعد هذا أين هو الحُب في الإسلام وهل الإسلام إلا دين الحُبّ يا هشام؟

– ولكن لا تؤاخذني يا ماهر إن قلتُ لكَ ، لعلها عاطفة طبيعية ، يشعر هو بها فلماذا تجعل أنتَ منها شريعة؟

– لأن كل ما يفعله ويرتضيه ﷺ هو شريعة ، فهو وإن عمل لنفسه فإنما يُشرّع للناس ، ولو كانت هذه العاطفة حرامًا في شريعته لنُهي عنها وقد نُهي عن عواطف أخرى . . .

– وكيف ذلك؟

– لقد استأذن ربه أن يستغفر لأمه فنهاه ، واستأذنه أن يزور قبرها فأذن له ، والسبب في النهي أنها كانت من أهل الفترة

حيث ينقطع الرسل ، لا من أهل التوحيد! وقد يشك أحد أنه يحب زوجته ولكن لا يشك عاقل أنه يحب أمه ، ورغم حبه استأذن ربه في أمرها ، وبهذا تستنتج بما لا يدع مجالاً للشك أن ما أظهره من عاطفة إنما كان حلالاً في الدين الذي جاء به ، أليس كذلك؟

- هذا صحيح ، ولكن . . .

- متى ستكف عن قول لكن هذه يا هشام؟

- حتى لا أعود أشعر بها تجول في رأسي!

- فماذا لديك الآن؟

- أريد ما لديك أنتَ ، أما انبريت تخبرني أن ما تحدثنا فيه عن الحُب ليس شأنًا شخصيًا للرجل الذي جاء بالشريعة وإنما هو شأن الشريعة؟

- أعتقد أننا خرجنا من هذه النقطة

- لا أقصد أنكَ لم تفعل هذا سابقًا ، ما قصدته هو إخباري بالشواهد التي تشدُّ بها أزر قولك!

- حسنًا فهمتُ ، ولكَ هذا!

- فقل إذًا!

- نكمل مع صاحب الشريعة ، ولكن في شأن قلوب الناس لا في شأن قلبه ، ثم ننتقل تدريجيًا إلى شأن الصحابة ومن ثم التابعين والفقهاء في هذا . . .

- وهو كذلك!

– تعرف دون شك أن المجتمعات القديمة عرفت كلها الرِّق ، وقد جاء الإسلام وأمرُ الأمم عربها وعجمها على هذا الحال ، ولا أريد أن أتطرق لما فعله الإسلام في شأن تحرير العبيد حتى لا نبتعد عما نحن فيه ، وإنما كانت هذه الكلمات لوضع ما سأخبرك به في سياقه التاريخي والحياتي لزمن وقوعه . . .

– حسنًا فهمتُ ، فما الذي ستخبرني به؟

– سأخبرك عن قصة قلب فطره الحبُّ ، فانبرى صاحب الشريعة يحاول أن يداويه ، والقصة باختصار ، أن رسول الله ﷺ قال لعمه العباس يومًا : «يا عباس ، ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بُغضِ بريرة مغيثًا»؟!

وبريرة كانت أمة مملوكة لأناس من الأنصار ، وكان لها زوج يقال له مغيث ، فتاقت نفس بريرة إلى الحرية ، وكاتبت أسيادها لأجل عتقها ، وهي إحدى طرق الإسلام في تحرير العبيد ، حيث يكتب العبد عقدًا مع سيده على أن يسدد له مبلغًا من المال نظير حريته ، فقبل أسيادها ، وقصدت بريرة عائشة زوج النبي ﷺ لتعينها في تأمين هذا المبلغ ، وكانت رضي الله عنها لا تردُّ سائلاً ، فأعانت بريرة لتنال حريتها ، وعندما تنشقت بريرة هواء الحرية ، كان أول ما فكرت به أمر زواجها من مغيث ، فالشرعُ يعطي الأمة إن هي تحررت خيار أن تبقى مع زوجها العبد أو تفارقه ، فقررت بريرة مفارقة مغيث!

وكان مغيث بحبها حبًا جمًا ، يلحق بها في طرقات المدينة باكيًا شاكيًا وجدًا يجده في قلبه ، ويرجوها أن ترجع إليه ، ولكنها لم تكن ترأف لحاله ، وعزمت على أن تمضي قدمًا فيما بدأت به!

ولما يئس مغيث منها أن تجيب طلبه ، ذهب إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يشفع له عند بريرة علها تُراجعه! ولأن الرحمة المهداة لم يكن يرضيه أن يُكسر قلب ، ذهبَ إلى بريرة ليشفع لمغيث عندها ،

وقال لها : يا بريرة ، لو راجعته فإنه زوجكِ وأبو ولدك!

فقالت له : يا رسول الله ، أتأمرني؟

فقال : إنما أنا شافع . . .

فقالت : لا حاجة لي فيه!

والآن يا هشام أعرني سمعك وقلبكَ ، من الناحية الدينية فإن محمد بن عبد الله نبي الأمة ومغيث وبريرة ليسا إلا تابعين من أتباعه ، ومن الناحية السياسية فإن رسول الله ﷺ هو رئيس الدولة وهما ليسا إلا مواطنين من بين ألوف مواطنيه ، ومن ناحية اجتماعية هو أعرق العرب قبيلة ونسبًا وهما عبدان ، ولكن النبي من جهة ، ورئيس الدولة من جهة ثانية ، والرفيع النسب من جهة ثالثة ، لم يجد حرجًا أن يذهب بنفسه ليشفع في قلبٍ أدماه الحُبّ ، وليطفئ نارًا في الصدر أشعلها الفراق!

- ولكنها لم تجبه في شفاعته هذه!

- هذا صحيح ، ولكن هذه نقطة تُحسب له ولشريعته ولا تُحسب عليه وعلى شريعته!

- وكيف هذا؟

- فمن ناحية ما هو إنسان لم يرضَ أن يُفطر قلب ، وسعى جاهدًا أن يلم شعثه ويشفع ، ومن ناحية ما هو رئيس الدولة لم يرضَ أن يكون دكتاتورًا يُلزم الناس بشيء لا يريدونه ، ولهم الحق في رفضه ، ومن ناحية ما هي شريعة فهذا إعلاء لشأن المرأة في أن تختار زوجها ، إن هذه الشريعة السمحاء لا ترضى أن تُجبر امرأة على زوجٍ لا تريده ولو كان الشافع في هذا الأمر هو نبي الأمة!

- فعلاً هي نقطة تُحسب له ولشريعته!

- ولم يكن هذا شأنه وحده ﷺ ، فعلى هذا سار أصحابه ، يتألمون أن يفترق الأحبة ما دام هناك سبيل ليجتمعوا وقد تعاطف عمر بن الخطاب مع عروة وعفراء!

- ومن عروة وعفراء هذان؟

- عروة وعفراء كانا عاشقين في الجاهلية ، أحبا بعضهما منذ نعومة أظفارهما ، وتقدم عروة إلى والد عفراء يخطبها ، فوعده أن يزوجه إياها إن جمع مهرها ، وبالفعل ذهب عروة في تجارة يبيع ويشتري ويضع الدرهم على الدرهم مهرًا لعفراء! ولكنه لما عاد حاملاً المهر وجدَ أن أباها قد زوجها لأحد الأثرياء!

وعندما بلغ ذلك عروة ، هام على وجهه حزينًا ، وظلّ يرثي حاله بالشعر ، ويذكر عفراء حتى مات ، وكان من أعذب ما قال فيها :

فويلي على عفراء ويلاً كأنه
على الصدر والأحشاء حدُّ سِنانِ
كأن قطاة علقت بجناحها
على كبدي من شدة الخفقانِ

وعندما مات عروة ظلَت عفراء تبكيه إلى أن ماتت هي الأخرى!

ولما سمع عمر بن الخطاب بقصتهما قال : لو أدركتُ عروة وعفراء لجمعتُ بينهما!

أتعرف ما الذي نستشفه من القصة يا هشام؟

- ماذا؟

- نخلص إلى نتائج هامة في نقاشنا هذا :

أولاً : استنكار عمر بن الخطاب رضي الله عنه لموقف الأهل الذين فرقوا بين عاشقين أرادا أن يسلكا طريقًا حلالاً ، وكل هذا لأجل دراهم معدودة ، وقوله جمعتُ بينهما هو الذي يُفهم منه عدم رضاه عن التفرقة بينهما .

ثانيًا : وقوله جمعتُ بينهما ، رسالة توجيهية إلى كل أهل أن لا يقفوا في وجه القلوب المتحابة ، بل يعينوها لتجتمع تحت سقفٍ واحدٍ بالحلال ، إنه لا يرضى أن تتكرر قصة

عـروة وعـفـراء مـع أسـمــاء أخـرى ، وهـذا إنمـا اسـتـقـاه عمـر ﵁ من هذه الشريعة العذبة ، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له : في حجري يتيمة قد خطبها رجل موسر ورجل معدم ، فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم! فقال له رسول الله ﷺ : لم نرَ للمتحابين غير النكاح!

ثالثاً : هذه القصة إشارة إلى رقة قلب عمر بن الخطاب ، هذا الرجل الصلب الشديد ، محطم الإمبراطوريات ، وفاتح البلدان ، كان إنسانًا مع مرتبة الشرف ، يتعاطف مع المحبين وإن عاشا في زمان غير زمانه ، ولو أنهما عاشا في عصره لجمع بينهما وهو الخليفة يومذاك .

رابعًا : هذا دليل قاطع أن الإسلام لم يحرم شعور الحُب في ذاته ، وإنما جعل له طريقًا واحدًا ومسلكًا نبيلاً هو الزواج ، فكما أخبرتك سابقًا أن الإسلام لم يكن يومًا ضد الحُب وإنما ضد الفظائع التي تُرتكب باسم الحب ، فما رأيك الآن؟

– كلام جميل حتى الآن ، ولكنك أخبرتني أنك ستحدثني عن الحُب كما تحدث به الفقهاء ، وهذا ما يعنيني أكثر مما أخبرتني به حتى الآن!

– والسبب في هذا؟

– السبب في هذا هو أن ورود هذا في كتب الفقهاء يعني

أنه أصبح له قوة النظرية الموثقة وليس الاستدلال الشخصي!

– التفاتة جميلة منك يا هشام ، ولكَ ما سألت عنه!

– حسنًا ، فلتبدأ ، ولكن سأقاطعك إذا استدعى الأمر هذا!

– أنت تفعل هذا دومًا فلا جديد!

– أين أصنف هذه الجملة؟ في باب الامتعاض مثلاً؟

– لا أبدًا ، صنفها في باب الملاحظة!

– قل أيها اللطيف ما عندك . . .

– قبل أن أبدأ بالفقهاء المتقدمين ، لماذا لا أخبرك ما قاله أحد المتأخرين ، لعلّ هذا يخبرك قبل الخوض في غمار ما نحن بصدده أنه ليس ثمة فجوة في هذا الفهم وإن كان ثمة فارق شاسع في الزمن .

– ابدأ من حيث شئت ما دام يندرج في الباب ذاته .

– وهو كذلك ، يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله : ما في الحب شيء ، ولا على المحبين من سبيل ، إنما السبيل على من ينسى في الحب دينه ، أو يضع خلقه ، أو يهدم رجولته!

فلو تأملت في هذا القول تجده يُعبّر عما دأبتُ أخبرك عنه ، ألا وهو أن الإسلام ليس ضد الحب وإنما ضد ما يُرتكب باسم الحب ، فالإسلام مع العفة ، وليس ضد القلب! وإنما يضع نقطة نظام تقول : إن القلب الذي يضرب بالعفة عرض الحائط لم يعرف الحُبَّ حقًا!

– أعتقد أن هذه النقطة صارت واضحة لكثرة ما أخبرتني بها . . .

– آسف إن أضجرتك بها!

– لا أبدًا ، ما قصدتُ قوله أنها صارت مفهومة ، على أنها ما ترتكز عليه نظرة الإسلام للحب كما تقول!

– هي كذلك ، ولنبحر الآن مع الفقهاء ، فعلى ما يبدو أنك تتوق لسماع شيء جديد .

– أنا كذلك فعلاً!

– ألّف كبار الأئمة رسائل في الحب والعشق ، منها كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم ، وكتاب «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن القيم ، وقد تطرقوا لتعريف الحُبّ ، وذكروا المذموم منه والمحمود والمباح ، بل إن من الفقهاء من اشتهر بعشقه كداود الظاهري صاحب الكتب الكثيرة في الحديث والتفسير والأدب ، وقال فيه نفطويه : دخلتُ عليه في مرضه الذي مات فيه ، فقلتُ له : كيف تجدك؟

فقال : حُبّ من تعلم أورثني ما ترى!

فقلتُ : وما يمنعك أن تستمتع به مع القدرة عليه؟

فقال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظر المباح ، والآخر اللذة المحظورة ، فأما النظر المباح هو الذي أورثني ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فيمنعني منها ما رُويَ عن ابن عباس : من عشق وكتم وكفّ وصبرَ غفر الله له وأدخله الجنة!

وبسبب العشق هذا ألف «ابن داود» كتاب «الزهرة» ، ومن طريف ما ذكر فيه ، أنه قد جاءته يومًا فتوى يقول السائل فيها :

يا ابن داود يا فقيه العراق
أفتنا في قواتل الأحداق
هل عليهن في الجروح قصاص
أم مباح لها دم العشاق

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين :

عندي جواب مسائل العشاق
فاسمعه من قرح الحشا مشتاق
لما سألت عن الهوى هيجتني
وأرقت دمعا لم يكن بمراق

– يبدو أن كلام صاحبك ابن داود هذا يندرج تحت النقطة التي اتفقنا على أنها صارت واضحة جلية ، فما قول صاحبيك ابن حزم ، وابن القيم؟

– هذا صحيح هي تحت ما صار واضحًا ، ولكن الجديد فيها هي أن الفقيه لا يمنعه فقهه أن يكون عاشقًا ، وإنما يمنعه ورعه أن يرتكب الحرام بسبب العشق! أما عن ابن حزم وابن القيم فسيأتيك من خبرهما ما يرضيك! ونبدأ أولاً مع ابن حزم . . .

– حسنًا : هاتِ ما عندك!

- يتفق دارسو الأدب ، على قلة ما يتفقون كما تعلم ، أنّ «طوق الحمامة» لابن حزم هو أروع كتاب درس الحب في العصر الوسيط ، فقد تتبَع أطواره ، وحلل عناصره ، وجمع فيه بين الفلسفة والتاريخ ، والواقع ، وواجه أدق قضاياه في وضوح وصراحة .

- فما أهم ما قال في كتابه هذا؟

- جعل ابن حزم كتابه طوق الحمامة في ثلاثين بابًا ، لم يترك شيئًا يخطر على بالك إلا قاله تحت باب من أبوابه تلك ، من الأشياء التي تطرق لها طبيعة العاشقين ، وأين يكون التشابه بينهما واجبًا وأين لا يكون .

- فماذا قال في هذه المسألة؟

- يرى ابن حزم أن الحب هو تآلف روحين قبل كل شيء ، فإذا تآلفت الأرواح ، لا يهم بعدها فيما يختلف فيه الحبيبان! فالمتحابان عند ابن حزم لابدّ أن يكون بينهما تشابه واتفاق في الصفات الطبيعية ، ويؤيد قوله بحديث الرسول ﷺ : «الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»! ويرى ابن حزم أنّ الأرواح إذا تآلفت صارت الفوارق الأخرى بين الحبيبين غير هامة ، ولا يمكن أن تقف في وجه هذا الحب ، فمثلاً التوافق في المزاج ، أو مستوى الجمال ، وغير هذا أشياء غير معتبرة في منطق الحب فيقول : «لو كان علّة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن العاشق الأنقص من

الصورة ، ونحن نجد كثيرًا ممن يُؤثر الأدنى! ولو كانت الموافقة في الأخلاق لما أحبّ المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس» .

– هل يقصد أن الجمال ليس مهمًا؟

– ليس هذا ما يقصده الرجل يا هشام!

– فماذا يقصد إذًا؟

– يقصد ما نراه جميعًا في الحياة اليومية ، ومعايشتنا للناس ، أن الإنسان ليس بالضرورة أن يُحب الأجمل ، وأنت ترى أن الإنسان قد يهيم عشقًا في إنسان آخر ، وهو يعرف شخصًا أجمل منه ولكنه لا يعشقه ، وترى أن يتفق رجل وامرأة في الطباع والتفكير ثم لا يكون بينهما عشق ، وإنما قد يعشق كل منهما شخصاً أقل أو أكثر منه جمالاً أو أحسن أو أسوأ منه طباعًا ، أو قد لا يرتبط الأمر بسوء الطباع وحسنها وإنما في اختلافها .

– هذا صحيح ، يحدث هذا كثيرًا ، ولكن الجمال الخارجي نقطة مهمة!

– يقول الناس اليوم : لا تجادلني في شخص تراه بعينيك وأراه بقلبي! وهذا بالضبط ما يقوله ابن حزم وإن كان بمفردات أُخرى ، ثم إن الجمال نسبي ، ما تراه أنت جميلاً قد أراه أنا عاديًا ، والعكس صحيح! ثم لو كان الحب للأجمل ، هذا يعني حسب قولك أن يترك الإنسان حبيبه كلما رأى من هو أجمل منه!

– أنا لم أقل هذا!

– لم تقله صراحه وإنما عنيته!

– أبدًا ، ولكن قلت أن الجمال أمر هام!

– وأنا قلت لك أن الجمال أمر نسبي ، قد نتفق أنا وأنت على جمال امرأة ، وقد نختلف ، ثم إن هذه الجميلة قد تحبها أنت ولا أحبها أنا ، والعكس قد يكون!

– هذا صحيح!

– فإذًا لو كان الجمال الخارجي سببًا من أسباب الحب ، لوجب أن تحبها أنت وأحبها أنا ما دمنا قد اتفقنا على جمالها!

– ليست كل امرأة جميلة يتخذها المرء حبيبة!

– هذا صحيح ، وهذا ما قاله ابن حزم . . .

– ربما!

– ليست الفكرة أن نتوافق فيما قال الرجل ، حتى أنا قد لا أقتنع بنقطة قالها ، الفكرة التي نناقشها ليست الإيمان بما قاله وإنما أن نثبت أنه قال في الحب كثيرًا ، بهذا ينتفي ادعاء المدعي أن الفقهاء لم يعرفوا الحب ولم يتحدثوا فيه أبدًا!

– هذا صحيح ، هذا ما كنا بصدد النقاش فيه ، ولكن لا يمنع أن ندلي برأينا فيما يقولون

– لا يمنع أبدًا!

– فماذا قال غير هذه ، وترى أنه يستحق أن تخبرني به؟

– يرى ابن حزم أن العين هي «المعربة عن بواطن النفس»

أي ما نقوله نحن اليوم : العينان نافذة الروح! ويرى أن النظر أول مداخل القلب ، إلا أنه يتعجب من كل من يدعي أنه يقع في الحب من النظرة الأولى ولا يكاد يصدقه فيقول عن هذا العاشق : ولا أجعل حبه إلا ضربًا من الشهوة!

ويؤكد على هذا المعنى مرة أخرى عندما يقول : من أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ويخبر بسرعة الزوال ، وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نموًا أسرعها فناءً ، وأبطؤها حدوثًا أبطؤها نفادًا»!

- ولكن الحب قد يقع من النظرة الأولى يا ماهر!

- لا أنكر هذا يا هشام ، ولكن هذه مسألة خاضعة للرأي ، قد يتفق فيها كثيرون ، وقد يختلف فيها كثيرون ، فليست من المُسَلمات ، ولسنا بصدد محاكمة آرائه وإن كنا نناقشها ، يكفي أن نثبت أنه كان سَباقًا ، وعالج من ألف سنة قضايا في الحب ، لا تزال اليوم مثار جدل لم يتفق عليها الناس .

- هذا صحيح ، فماذا قال بعد؟

- يرفض ابن حزم فكرة التعلق بشخصين في وقت واحد ، ويراها رغبة حسية أكثر منها حاجة وجدانية راقية ، بمعنى آخر يرى ابن حزم أن القلب لا يكون إلا لمحبوب واحد ، وأنّ الإنسان الذي يدّعي أنه يحب شخصين في وقت واحد فهو يخلط بين مفهوم الحب ومفهوم الشهوة ، وطبعًا حين يتحدث ابن حزمٍ بالعموم فهذا يعني أن كلامه ينطبق على الرجل والمرأة ، سواء

ادعى الرجل أنه يحبُّ امــرأتين ، أو ادّعت المرأة أنهــا تحب رجلين ، ولو لاحظت معي يا هشام أن هذه وجهة نظر فريدة وجريئة فعلاً ، ليس بالنظر في محتواها فقط ، ولكن بالنظر إلى الزمن والعصر الذي قيلت فيه ، حيث انتشرت الجواري في المجتمع العربي ككل ، في مشرق الأرض ومغربها ، ناهيك عن الترف الذي عرفته الأندلس حيث كان يعيش ابن حزم .

- فعلاً وجهة نظر جريئة ومتقدمة ، ومن الواضح أن الرجل قد غاصَ في أدق تفاصيل الحُبّ .

- أرأيت! هذا الذي قلته لكَ ، عدم معرفتنا بالشيء لا يعني عدم وقوعه ، وهذا درس بليغ لي ولك في آنٍ واحد ، أن لا نحكم في قضية ، ولا نأخذ موقفًا فكريًا موافقًا أو معارضًا إلا بعد التثبت .

- هذا صحيح ، فهل لابن حزم في رؤيته للحب آراء أخرى؟

- أجل ما زال هناك المزيد .

- فماذا قال بعد ذلك؟

- يرى ابن حزم أن الحُبّ بالدرجة الأولى قضاءٌ وقدرٌ ، كالرزق والموت وعدان لا يُردان! فهو إن كان لا ينفي إرادة الإنسان واختياره في الحب ، كما لا نختار في الرزق والموت ، إلا أن الإرادة عنده يسوقها في باب ما يصدر عنه من تصرفات في سبيل هذا الهوى الذي نزل به ، وليس في اختيار هذا الهوى ، وله في المسألة كلام عذب جميل .

- ما هو؟

- يقـــول ابــن حـزم في طوق الحمـامـة : إن للحبّ حكمًـا علـى النفـــوس مـاضـيًـا ، وسلطانًا قـاضـيًـا ، وأمـرًا لا يُخـالف ، وحدًا لا يُعصى وملكاً لا يُتعدى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفاذًا لا يُرد!

- الله ، الله! كـلام عذب فـعلاً ولكنـي أرى أنه نفى الإرادة مطلقًا ، فجعل الإنسان صريع الهوى كما يكون صريع الموت!

- هو كـذلـك فـعـلاً ، ولكـن مـا أخـبـرتك أنه يرى أن الإرادة ليست في أن يهوى أو لا يهوى ، وإنما في أن يُظهر هذا الهوى أو يكتمه!

- حسنًا فهمتُ ، فماذا عند الرجل بعد؟

- يرى ابن حزم أن الحب أعمى! فهو يُعمي ويعتم ، ويغير في طبيعة الفرد ، فإذا بالعاقل قد يصبح مع الحب أهوجَ ، يفعل مـا لم يكن ليـفـعله لو لـم يكن عـاشـقًا ، أو العكس فـقـد يصـبح الأهوج عاقلاً ، والمتسرع حليمًا ، فنحن لسنا في الحب سواء ، أو بتعبير أدق لسنا في التعبير عن مشاعرنا سواء .

- أتفق مـــعــه في هذه النقطة ، ولكـني لا أوافق أنّ الحب أعمى

- على العكس تمامًـــا ، أنا أرى أنه أعـــمى ، ولو لم يكـن كذلك ما عاش!

- ماذا تقصد بهذا؟

- ما أقصده هو أن الإنسان حين يُحب يُغلق عينيه ، ويصمّ أذنيه عن مساوئ حبيبه ، فلا يرى فيه إلا الحسنات ، أما السيئات فيغفرها الحبّ وإن رأتها العين ، فالحُبّ يحول الحبيب في عين حبيبه من إنسان إلى ملاك ، تمامًا كما يفعل الحقد ، فالحقد هو الآخر أعمى! كلاهما حالة شعورية متطرفة! ولكننا في الحُبّ لا نرى إلا الحسنات بينما في الكره لا نرى إلا السيئات!

- ربما ما تقوله فيه جانب كبير من الحقيقة ، ولكن لماذا قلت لو لم يكن الحب أعمى ما عاش؟

- لأن الحب لو كان بصيرًا ، يتفرس المحبّ فيه في عيوب حبيبه ، ما استمر هذا الحب ، ألا ترى معي أن علاقاتنا الاجتماعية إنما تستمر بشيء من التغافل ، فنحن نرى كثيرًا من الأمور ، ونتجاهلها ونتغافل عنها نظير استمرار هذه العلاقة ، فإذا كان التغافل في العلاقات الاجتماعية أمراً من العقل لتستمر الحياة ، فإن التغافل في الحُبّ أمر من القلب ليستمر الهوى!

- لم أكن أحسبك رقيقًا إلى هذا الحد يا مولانا!

- ضحك ماهر يومها ضحكة مدوية ، وقال لهشام مازحًا : مولاك لولا أن شغله ما ترى لكان إمامًا في الحبّ!

- حسنًا يا إمام الحب ، أما زال عند ابن حزم شيء بعد؟

- لا أذكر الآن إلا ما أخبرتك به ، ولا أحسبني غفلت عن شيء هام ، ولكن إن كنت قد فعلتُ فما سقته لك يكفي

لإثبات أن الرجل إنما تطرق إليه بقلم الأديب ، وعقل المفكر ، وقلب العاشق ، وفكر العالم .

- فأين ستأخذنا الآن في حديثك؟

- وعدتك أن أحدثك عن الحب عند ابن حزم ، وابن القيم ، وبما أننا فرغنا من حديث ابن حزم ، فإن الكلام يقودنا إلى ابن القيم . . .

- وهو كذلك ، فماذا يرى صاحبنا الجديد فيه؟

- بعد أن ذكر ابن القيم في كتابه نزهة المشتاقين كلامًا عن مضار العشق ، وكانت في الغالب ما نراها في العاشقين من الاستسلام ، وتعلق المخلوق بالمخلوق ، أو سعي المرء وراء قلبه حائدًا عن طريق الحلال ، يقول :

فإن قيل لنا قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده ، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده الجمة؟!

فإننا نقول أن للعشق فوائد كثيرة :

أولها رقة الطبع!

فابن القيم يرى أن العشق يهذب النفوس ، ويرقق الطباع ، ويصلح الأخلاق ، فهو من جهة يحمل الإنسان على بلوغ غاية الحنان ، ولا أحنّ من الحبيب على حبيبه ، وإنك لترى الفارس المقدام كالطفل الصغير عند محبوبته ، وإنك لترى المرأة قوية الشخصية والشكيمة ، تتفجر أنوثتها عند حبيبها ، وهذه الرقة في الطبع كانت لتبقى مغلفة مكتومة ، لولا أن جاء الحب ففكّ

قيودها ، وأطلق عنانها! ومن جهة ثانية فإن الحُبّ يدفع الإنسان لتغيير السيء في طبعه خصوصًا ما استقبحه الحبيب من حبيبه ، فتراه يتغيّر أو يعزم وما له من باعث على هذا إلا رضاء محبوبه .

– فما فوائد الحُبّ الأخرى عند ابن القيم؟

– يرى ابن القيم أن من فوائد العشق ترويح النفس من ضغوط الحياة ، فالحُبّ عنده أشبه بواحة خضراء في قلب صحراء قاحلة ، وأشبه بيوم إجازة بعد أسبوع دوام حافل ، وأشبه بهدنة بعد حرب طاحنة ، فكما تفعل الواحة في الصحراء لمن كاد يتلفه العطش ، وكما يفعل يوم الإجازة لمن أنهكه العمل ، وكما تفعل الهدنة لمن عذبتهم الحرب ، يفعل الحب كل هذا في نفس المحبّ!

– فهل من فوائد للحُب عنده بعد؟

– أجل ثمة فائدة أخيرة بعد ، يطلق ابن القيم عند الحديث عنها عنان قلبه وقلمه ، فيسوق أمثلة وأشعارًا .

– يبدو أنها فائدة شيقة ، فهاتها!

– حسنًا لك هذا ، الفائدة الثالثة من فوائد العشق عند ابن القيم هي رقة الحاشية ، ولطف الجانب ، ثم يسترسل قائلاً :

قيل ليحيى بن معاذ الرازي : إن ابنك قد عشق فلانة! فقال الحمد لله الذي صيَّره إلى الطبع الآدمي!

وقال بعضهم : العشق لا يصلح إلا لذوي مروءة ظاهرة ،

وخليقة ظاهرة ، أو لذي لسان فاضل وإحسان كامل ، أو لذي أدبٍ بارع وحسب ناصع!

وقال آخر : العشق حنان الجبان ، ويصفي ذهن الغبي ، ويسخي كف البخيل ، ويذل عزة الملوك ، ويُسكن نوافر الأخلاق ، وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له!

وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ، ويهذب الأخلاق ، إظهاره طبيعي ، وإضماره تكلفي!

وقال آخر : من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجيّ ، والوجه البهيّ ، فهو فاسد المزاج ، يحتاج إلى علاج!

وأنشد الشعراء في هذا المعنى كثيراً :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فمالك في طيب الحياة نصيب

وقال الثاني :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فقم واعتلف تبنًا فأنت حمار

وقال الثالث :

إذا أنتَ لم تعشق ولمِ تدرِ ما الهوى
فكن حجراً من يابِسِ الصخرِ جلمدا

ثم ختم ابن القيم هذه الفائدة بقوله :

وهذا عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أحد الفقهاء السبعة ، عشق حتى اشتهر أمره عليه ، وعدَّ من لامه في حبه هذا ظالمًا ، وقال منشدًا :

كتَمْتَ الهَوَى حتى أضَرَّ بِكَ الكَتْمُ
ولامَكَ أقـوامٌ ولومـهمُ ظُلْمُ
وَنَمَّ عليكَ الكاشحونَ وقَبلَهم
عليكَ الهَوَى قَد نَمَّ لو نَفَعَ النَّمُّ
فأصبحتَ كالنَّهديِّ إذْ ماتَ حَسرة
على إثر هِنْدٍ أَوْ كَمَنْ سُقي السُّمُّ
تَجَنَّبْتُ إتيانَ الحَبيب تَأثُّما
ألا إن هِجرانَ الحَبيبِ هُوَ الإثمُ
فَذُقْ هَجرَها قد كُنتَ تَزعُمُ أنَّهُ
رَشادٌ ألا يا رُبما كَذَبَ الزَّعْمُ

- استطراد جميل وشواهد عذبة فعلاً ، فهل عند الرجل شيء بعد؟

- أجل ما زال عنده أشياء . . .

- فما هي؟

- يحدثنا ابن القيم بعد ذلك عن مقومات الحُب .

- فما هي مقومات الحب برأيه؟

- يرى ابن القيم أن مقومات الحب أربعة أمور :

أولها : النظر ، والنظر عنده إما بالعين وإما بالقلب إذا وُصف له ، فكثير من الناس يحب غيره ، ويفنى في محبته وما رآه ، ولهذا السبب يعتقد ابن القيم أن رسول الله ﷺ قد نهى أن تصف المرأة امرأة أخرى لزوجها كأنه ينظر إليها كي لا تقع في قلبه من حديثها عنها!

ثانيها : الاستحسان ، فإن لم يقع الاستحسان لم يقع الحبُّ ، والاستحسان ليس بالضرورة وفرة الجمال وإنما رضى المحب عن جمال حبيبه ، ولو كان جمالاً خارجيًا عاديًا ، المهم أنه يراه جمالاً يهيم به ، ولعل هذا ما سبق وتحدثنا به ، أن الجمال أمر نسبي!

ثالثها : انشغال الحبيب بحبيبه عن الناس ، فهو عنده أهم شخص في الوجود ، وقد يكون في نظره هو الناس جميعًا!

رابعها : الطمع في وصل المحبوب ، فالمحب يود قضاء أطول وقت مع محبوبه ، فالحب برأيه عطش لا يرويه إلا دوام الوصل ، ومتى فارق الحبيب حبيبه شعر بظمأ إليه!

فهذه المقومات الأربعة هي التي يقوم عليها الحُب عنده .

- يبدو أن ابن القيم هو الآخر قد غاص في الحب عميقًا دراسة وشرحًا . .

- أجل لقد فعل!

- بقي عندي نقطة أخيرة!

- ما هي؟

- أردتُ أن أسأل إن كان ابن القيم يتفق مع بعض ما ذهب إليه ابن حزم قبله؟

- بالفعل ، لقد اتفق ابن القيم في نظرته للحب ، وفهمه له ، في نقاط كثيرة مع ابن حزم

- فما أهم ما اتفقا عليه؟

- يتفق ابن القيم مع ابن حزم أن الحُبّ أعمى! فيرى ابن القيم كما ابن حزم قبله أن الجمال قد يكون في نفسه ناقصًا لكنه في عين المحب كاملٌ ، فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده ، فإن حبك للشيء يعمي ويصم! فلا يرى المحب أحدًا أحسن من محبوبه!

كذلك يتفق ابن القيم مع ابن حزم أن الحب بالدرجة الأولى التقاء أرواح وتآلفها ، وهذا التناسب بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة ، ويسميه بالتناسب الأصلي الذي هو اتفاق أخلاق وتناسب أرواح ، وشوق كل نفس إلى مثلها ، فإن شبيه الشيء منجذب إليه بالطبع ، ولكنه يزيد نقطة لم يتطرق إليها ابن حزم إذ لا ينفي ابن القيم أن الحب قد يقع بين طباع مختلفة ، وإن كان يحصل نادرًا ، إلا أنه قد يحصل ، ويرى أن هذا لا يُعرف سببه كانجذاب الحديد إلى المغناطيس ، فإن كان هذا شأن الجمادات فلا ريب أن وقوع هذا بين الناس أولى!

كذلك تطرق ابن القيم لمسألة لم يتطرق إليها ابن حزم من

قبل وهي الحب من طرف واحد ليس حالة حب سوية ، وإنما مما تمرض به الأرواح!

وهذا كل ما لديّ في المسألة .

– قلتَ ما يكفي يا ماهر!

– فهل عندك شيء بعد أم نغلق هذا الموضوع؟

– بقي في ذهني سؤال واحد!

– فما هو؟

– حين اعتبرتُ أن الفقهاء لم يتحدثوا عن الحب بالشكل الذي أخبرتني به ، فإنما اعتبرتُ هذا لما غلب على ظني أنهم اشتغلوا بالعبادات والفقه ، والسؤال جاء من هذه النقطة ، ما دام الفقهاء اشتغلوا بالعبادات والفقه فلماذا تحدثوا في الحب؟ ما أعنيه ما الذي يدفع فقيه للحديث عن الحب وهناك عشرات الأمور الفقهية التي كان بإمكانه الحديث عنها؟

– لعلّ هذا أجمل سؤال طرحته عليّ في كل ما وجهته إليّ من أسئلة .

– فهل عندك جواب له؟

– بالطبع عندي!

– فما هو؟

– تكلم الفقهاء في الحُب لأنهم سمعوا وقرأوا وشاهدوا أناسًا تعلقتْ قلوب بعضهم ببعض ، فما كان من أهل الشاب أو الفتاة إلا أن وقفوا في وجه هذا الحبّ ، وقطعوا أواصر الوصل

بينهما ، حتى صارت الفتاة زوجة لرجل آخر ، وقلبها عند رجل غيره ، وصار الشاب زوجًا لامرأة أخرى وقلبه عند امرأة غيرها ، فأرادوا أن لا تكون البيوت سجونًا ، وأن لا يكون في قلوب الناس نار تلظى تحرقهم وهم أحياء! تكلم الفقهاء في الحب ، لأنهم عرفوا أن الطلاق إنما يقع كثيرًا بسبب التنافر بين الزوجين سواء في القلوب وفي الطباع ، فأرادوا بحديثهم المستفيض هذا أن تنجو الأُسرة من التفكك ، وما المجتمع إلا مجموعة أُسر ، فإن تفككت تفكك المجتمع وهي قوامه!

تكلم الفقهاء في الحب ، لأنهم عرفوا أنه ميل فطري ، غرسه الله في الناس لأجل عمارة الأرض ، ولما فهموا أن الدين ليس ضد فطرة الإنسان ولا ضد غريزته ، انبروا لهذا الأمر ليحققوا الغاية النبيلة للدين وهي الارتقاء بالإنسان نحو قمة إنسانيته

تكلم الفقهاء في الحُب لأنهم يعرفون أن قتل الأرواح أبشع من قتل الأجساد ، وإن كان لا دية فيها ، فكرهوا أن يُدفن إنسان وهو على قيد الحياة!

تكلم الفقهاء في الحب لأنهم يعرفون أنه ليس عيبًا ولا حرامًا ، ولا تهمة ولا جريمة ، إنه أسمى وأنبل مشاعر الإنسان ، وقد أرادوا أن لا يخجل الإنسان من أجمل وأنبل مشاعره . .

- غلبتني في هذا النقاش يا ماهر ، ولا أجد حرجًا أن أعترف لك بهذا!

- لا يسعدني أن أغلبك يا هشام ، ولا يحزنني أن تغلبني ، فلسنا نتصارع أو نتحارب ، وإنما يحاول كل منا أن يُقنع صاحبه بما يراه صوابًا ، ولكن يسعدني أنكَ اقتنعتَ!

- أجل لقد اقتنعتُ ، ولكن هذا لا يعني أني سأقتنع في المرة القادمة!

- هكذا أنت لا تكف عن المشاكسة وهذا أجمل ما فيك!

وإلى هنا انتهى حوارهما ، وبدأتُ أنا أعشقُ القراءة أكثر ، إحدى مشاكل الإنسان المستعصية يا وعد ، أنه لا يعرف مدى جهله إلا حين يلتقي بمن يخبره وإن كان بشكل غير مباشر أنه لا يعلم!

سألتني مرةً : أيهما أجمل ، الصداقة أم الحُب؟

فقلتُ لكِ : أخشى إن أجبتكِ أن تتهميني كعادتكِ أني أفُلسفُ الأمور مهما كانت بسيطة!

ضحكتِ يومها ، ثم قلتِ لي : أنتَ حقًا تفعلُ هذا دومًا

فقلتُ لكِ : لهذا لن أجيبك!

– أنا أمازحك ليس إلا ، بالمناسبة أنا أحاورك غالبًا لأجل نظرتك المختلفة هذه ، أحب أن أسمع رأيًا ليس شائعًا ، ووجهة نظر ليست رائجة .

– حسنًا ، أنا أؤمن أن الحُبّ جزء من الصداقة ، والصداقة جزء من الحب!

– وكيف هذا؟

– أعني أن الحُبّ الذي ليس فيه الكثير من الصداقة سرعان ما يتلاشى ، كذلك الصداقة التي ليس فيها الكثير من الحب سرعان ما تنتهي!

– لم أفهم!

– دعيني أُبسط لك الأمر . . .

– حبذا لو تفعل!

– الحُب برأيي ليس حكرًا على علاقة تجمع بين رجل وامرأة ، هذا وجه من وجوه الحبّ ليس إلا ، سبق أن قلتُ لكِ

هذا من قبل ، في كل العلاقات الإنسانية يفترض أن تكون هناك نسبة من الحبّ ، وإن اختلفت درجته وشكله ، لهذا لا يمكنني أن أتخيل أني اتخذتُ صديقًا ليس له في قلبي شيء من الحُبّ ، أيضًا الصداقة ليست حكرًا على صديقين ، يمكن للحبيبين أن يكونا صديقين كذلك ، أو بالأحرى إن لم يكونا صديقين فهما لم يبلغا قمة الحُبّ ، وكل زواج ناجح كان فيه من الصداقة مقدار ما فيه من الحُبّ!

- لا أنكر هذا وإن بدا في سؤالي نوع من الترجيح بينهما ، ولكني سألتك أن تختار ليس إنكارًا أن يكون في الصداقة حب ، أو في الحب صداقة ، وإنما من باب الشائع في التسمية ، وليس من باب واقع العلاقة!

- حسنًا ، فهمت!

- فأيهما أجمل الآن برأيك؟

- إن سلمنا أن الحُبَّ الحقيقي هو الذي يحمل في طياته الكثير من الصداقة فإني أختار الحُبّ ، لأنه بالأساس صداقة كللها الحُبّ ، أما إن كنا سنعتبر أن الصداقة شيء والحُبّ شيء آخر ، بمعنى نزع الصداقة من الحب ، فإني أختار الصداقة!

- بالمفهوم الشائع عند الناس ، هل ترى فرقًا بين الحبّ والصداقة؟

- بالطبع!

- ما الفرق بينهما إذًا؟

- أولاً الحُب أناني والصداقة كريمة!

- وكيف هذا؟

- الحُب أناني لأنه يسعى لتملك الآخر ، يريده دومًا له وحده فقط ، وينظر للأمور من منظوره هو ، أما الصداقة فمفهوم الشراكة فيها بدل مفهوم الاستئثار ، فالإنسان يزعجه أن يصرف حبيبه اهتمامه وعاطفته لغيره ، وإن كان قدرًا يسيرًا أحيانًا ، بينما لا ينزعج الصديق إن كان لصديقه صديقًا آخر . . .

- ربما أن مفهوم الصداقة يقبل التعدد بينما يستحيل هذا في الحُبّ!

- ما قصدته أن الحب يقودنا أحيانًا إلى الغيرة ، وإلى التصرف بلا وعي ولا مبرر لذلك عند المحب إلا الحب ، وكأن الحُبَّ قيد ، إما أن نرتضي أن يسجننا الآخرون أو أننا لا نستحق منهم الحُب ، بينما في الصداقة لا نجد كل هذا!

- ولكن هل يوجد حب دون غيرة؟

- الغيرة المتعقلة لذيذة ، ولكن الغيرة المجنونة قاتلة ، وعنها أتحدث ، أحيانًا تصل الأنانية في العاشق أن يغار حتى من اهتمام معشوقه بنفسه ، إنه يريد أن يجعل من نفسه محورًا للكون! أضف أن بين الغيرة والشك خيط رفيع لا يلتفتُ إليه كثير من المحبين ، الغيرة العاقلة تشعر الحبيب أنه غير قابل للقسمة أو المشاركة ، وأنه محط اهتمام ، وأنّ حبيبه مستعد للقتال من أجل الاحتفاظ به ، أما الغيرة المجنونة فتشعر الحبيب

أنه متهم ، وأنه دومًا مراقب ، عليه أن يبرر كل تصرف ، فهو متهم حتى تثبت براءته ، لا بريء حتى تثبت إدانته

- فهمت ، وما الفرق بين الصداقة والحُب أيضًا؟

- الحُب لا تفسير له ولا مبرر ، كما يقول العقاد : «وخلاصة التجارب كلها في الحُبّ ، أنكَ لا تحب حين تختار ولا تختار حين تحب»! هكذا هو الحب يأتي على غير توقع منا ، في الزمان والمكان الذي لا نتوقع أن يأتي فيهما ، أما الصداقة ففي الغالب عقلانية ، وهامش اختيار الأصدقاء أوسع من هامش اختيار الأحبة!

- هذا صحيح نوعًا ما ، ولكن ألا ترى أحيانًا أننا نتخذ أصدقاء فُرضوا علينا!

- وكيف ذلك؟

- رفاقنا في المدرسة مثلاً ، نأتي إلى الصف الدراسي كلنا غريب عن الآخر ، هكذا يجمعوننا لنكون أصدقاء . . .

- لا يمكن اعتبار هذا إجبارًا ، بدليل أن علاقتنا بزملائنا في الصف الواحد ليست واحدة ، هناك مساحة من الاختيار!

- ولكن كثيرًا من الذين كانوا أصدقاءنا في مرحلة الدراسة لم يعودوا كذلك حين انفض جمعنا . . .

- هذا صحيح ، ولكنه عائد لأسباب كثيرة ، منها أننا نخلط بين مفهوم الإلفة والصداقة ، المعاشرة اليومية تولّدُ نوعًا من الإلفة ولكن ليس بالضرورة أن تصبح تلك الإلفة صداقة دائمة ،

ولا تنسي أيضًا أننا على مقاعد الدراسة ، خصوصًا التي نجلس عليها في مرحلة مبكرة من أعمارنا لم يتبلور فيها مفهوم الصداقة في أذهاننا بعد ، إننا نحسب كل عابر وافقنا في موقف صديقًا ، ثم لا تنسي أيضًا أن الدنيا تشغل أهلها ، وتفرق أحيانًا بين الأهل والأقرباء ، فمن الطبيعي أن تُفرق بين الأصدقاء كذلك!

– ربما ، وبِمَ يختلف الحُبّ عن الصداقة أيضًا؟

– الحُبّ هو الذي يملكنا ، بينما الصداقة نحن الذين نملكها! في الحب يتلاشى جزء من العقل لصالح القلب ، في لحظات ما ننقاد لأحاسيسنا ، ونفعل أشياء ونتوقف عن فعل أخرى ، ما كان لنا أن نكون هكذا لولا استسلامنا اللذيذ لقلوبنا ، أما في الصداقة فالأمر على النقيض من ذلك ، إننا نحتفظ بوعينا كاملاً ، نفعل كل شيء عن اختيار وإرادة ، فالحب ضعف شهيّ ، بينما الصداقة قوة عاقلة!

– ألا ترى أنك تعتبر أن الحب يضعفنا بينما الصداقة تقوينا؟

– الأمر كذلك يا وعد! لا شيء يجعلنا ضعفاء أكثر من الحُب ، لا شيء يجعلنا أقوياء أكثر من الصداقة ، الحُبّ يسلبنا إرداتنا ، يخترق تلك القشرة السميكة التي نغلف بها أنفسنا ، لنواجه قسوة الحياة ، أما الصداقة فإنها تجعل تلك القشرة أصلب!

– وبِمَ تختلف الصداقة عن الحب أيضًا؟

- الحب يبدأ معنويًا ثم يتخلى شيئًا فشيئًا عن معنويته تلك ليصبح ماديًا نهاية المطاف ، أو بمعنى أدق يصل إلى مرحلة تمتزج فيها المعنوية بالمادية ، أما الصداقة فتبدأ معنوية وتحافظ على روحانيتها!

- ما الذي تقصده أنّ الحب يبدأ معنويًا ثم يصبح ماديًا؟

- ما قصدته أن الحب في بدايته يكون حالة شعورية صرفة ، غايته مشاعر الطرف الآخر فحسب ، ولكنه ما يلبث أن تصبح له وجهة أخرى ، لا يوجد حبيب إلا ويحب أن يتأمل وجه محبوبه ، أن يمسك يده ، أن يعانقه ويقبّله . .

- أليس هذا شعوراً طبيعيًا؟

- لا أنكر هذا ، أنا أصف لك الأمر ولا أحاكمه!

- حسنًا ، فهمت ، ولكن ألا ترى أنه بإمكان الحب أن يبقى معنويًا ولا ينتقل إلى المادية التي تعتقد أنها خطوة تالية لا بد منها؟

- هذا مستحيل!

- كيف يكون مستحيلاً وقد وصلتنا أخبار الحُبّ العذري؟

- عدم الفعل لا يعني بالضرورة عدم الرغبة فيه!

- كيف هذا؟

- أعني أن بعض العشاق قد لا ينتقلون إلى حالة الحب المادية ليس لعدم وجود الرغبة ولكن لوجود مانع ، قد يكون التقوى مثلاً ، وهي وازع أعترف به ، وأقر بوجوده وأهميته ،

ولكن هناك فرق بين أن لا يمسك الحبيب يد حبيبه عن تقوى ، وبين أن لا يمسكها لعدم رغبته بذلك!

- كلامك غير صحيح!

- والسبب؟

- السبب أنك تجعل من العذريين ، والشعراء منهم تحديدًا - لأن هناك ما يدل على حبهم ذاك- مجموعة من الأتقياء ، وهذا شيء يصعب إثباته بل يستحيل!

- أبدًا ، أنا لا أجعل الشعراء العذريين أتقياء زاهدين ، وإنما أقول أن هناك من يمتنع لأنه تقي ، أما رأيي في الحُب العذري منزوعًا من الرغبة في القرب الجسدي فعلى الأرجح لن يعجبك

- ولمَ قد لا يعجبني؟

- لأني أعتقد أنه حالة عشقية غير سوية!

- وكيف ذلك؟

- سأخبرك ، قرأتُ مرةً دراسة حول هذا الموضوع ، واقتنعتُ بها ، وملخص هذه الدراسة أن الحُبّ العذري حالة مرضية!

- مرضية دفعة واحدة!

- أجل مرضية!

- وكيف تجزم بهذا؟

- سأقنعكِ ، أو بالأحرى سأحاول ، ولكن لا تكوني حادة ، وقبل أن أقول ما عندي أخبريني أنتِ : هل تؤمنين بوجود الحب العذري؟

– لا أصدقه ولا أكذبه ، ما أقوله أنه ما دام وصل إلينا خبره فهذا يعني أنه قد يكون موجودًا فعلاً ، وأن الناس في الحب مذاهب شتى ، وإنما أناقشك من باب ضرب الرأي بالرأي ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وليس من باب التسليم بوجوده ، ولكن بالمقابل لم يصل الأمر عندي إلى نكرانه .

– فهمتُ!

– جيد أن نضع النقاط على الحروف قبل أن تخبرني بنظرية الحالة المرضية للحب العذري!

– أولاً عليكِ أن تعرفي أن هذا كلام قرأته ولستُ صاحبه . . .

– لا يهم ، المهم أنكَ تتبناه وتؤمن به ، إن الأفكار التي نتبناها تصبح أفكارنا ، ولو كان هناك من أقنعنا بها!

– هذا صحيح!

– فهيا إذًا ، هات ما عندك!

– تقول الدراسة أن الحب العذري ليس حبًا جادًا كما يبدو في ظاهره ، بمعنى أدق أن الحبيب يحبُّ الحبّ أكثر مما يحب محبوبه ، فهو يخوض غمار العلاقة رغبة في الحب لا رغبة بالحبيب ولا رغبة في الارتباط . . .

– وكيف هذا؟

– سأخبركِ لا تكوني عجولة!

– لستُ عجولة ، ولكنها تهمة قاسيةّ!

- ولكن لي عليها من الواقع برهان . . .
- هاته إذًا!
- تعرفين أن العرب لم يكونوا يزوجون بناتهم لمن تشبب بهنّ ، أي لمن تغزّل بهنّ على الملأ ، هذا شيء كان يعرفه الجميع في جزيرة العرب ، الكبير والصغير ، والقاصي والداني ، ورغم هذا كان الشاعر العذريّ لا يتورع عن التغزل بحبيبته بشعرٍ تسير به الركبان ، وهو يعلم يقينًا أنه بفعله هذا قد وضع حدًا لارتباطه بحبيبته ، فقيس بن الملوح لم يزوّجه عمه ابنته ليلى إلا لأنه تغزل بها على الملأ ، ولهذا السبب أيضًا لم يتزوج أي من شعراء الغزل العذريين حبيباتهم ، والرجل والمرأة كانا في هذا سواء ، فهي بالمقابل كانت تستعذب أن يُقال فيها الشعر ، وهي تعلم يقينًا أنها متى دخلت قصيدة شاعر فلن تدخل خيمته بعد ذلك زوجة ولو انطبقت السماء على الأرض!
- ما الذي ترمي إليه بالضبط؟
- لا أرمي ، وإنما أقول صراحة ما أعتقده ، كانوا يحبون الحُب ، هذا الشعور العذب أكثر من حبهم للحبيب الشخص ، أي أنها لم تكن علاقة الهدف منها الاجتماع الدائم في خيمة الزوجية ، وإنما كانت علاقة عابثة وإن بدا من ظاهرها الطهر!
- رأي يحتمل الخطأ والصواب ، وإن كان في طياته شيءٌ من بذور المنطق والاستدلال الواقعي
- هي وجهة نظر في النهاية ، تعرفين أن الحُب ليس معادلة

رياضية قابلة للبرهان ، ولا معادلة كيميائية يثبت نتاجها صحتها من خطئها!

- صحيح ، وما عندك غير هذا؟

- الأمر الثاني أن الحبّ العذري لا يُقدس رابط الزواج جملة وتفصيلاً ، ففوق أنه لا يسعى هو للارتباط ، إلا أنه لا يحترم هذا الارتباط أيضًا!

- وكيف ذلك؟

- كانت الحبيبة العذرية إذا زُفت إلى غير حبيبها لا تتورع عن لقائه فيما بعد وهي زوجة لرجل آخر ، ولم يكن الحبيب يمانع أن يبقى يلتقيها وإن كان رجل آخر يصيب منها ما يصيب الرجل من زوجته ، ومن هذا ترين أن هذا التصرف يحمل في طياته ما أخبرتكِ به أولاً وهو حُبّ الحب لا حبّ الحبيب! فالعذري لم يكن يهمه إن كانت حبيبته لرجل آخر ، المهم أن يبقى رابط الحب بينه وبينها ، وهي بالمقابل كانت تشاطره هذا ، فقد كانت زوجة غير عذرية في الخيمة مع زوجها ، وحبيبة عذرية خارجها!

- كلام مقبول نوعًا ما ولكن فيه إجحافًا وتعميمًا!

- وأين الإجحاف والتعميم؟

- الإجحاف أن نظريتك هذه تريد من الناس أن يكونوا أنبياء لا بشرًا ، أي أنك تريد من الرجل والمرأة إذا صار أحدهما لغير حبيبه أن يخلع قلبه من صدره ويلقيه خارجًا ، وهذا محال برأيي ،

أو على الأقل أن البعض يحتفظ بما في قلبه ، والآخر لا يستطيع إلا أن يظهره ، ويرفض أن يتخلى عن قلبه لأن الحياة أرادت له طريقًا آخر .

– هذا الإجحاف برأيك فأين التعميم؟

– التعميم هنا ، أنك تفترض هذا في الحُب العذري فقط ، فكأن غير العذريين إذا تزوج أحدهم غير حبيبه صار من صبيحة اليوم التالي ملاكًا ، ولزم بيت الزوجية!

– لم أقل هذا!

– بلى قلته بالمعنى وإن لم تقله بالحرف!

– ما قصدته أن الحب غير العذري لا يدعي المثالية ، وهو بالأساس حب يقر بالغريزة الفطرية وهو ميل الحبيب لحبيبه روحًا وجسدًا ، فكيف سأحاسبه على شيء لا ينكره أصلاً ، أما في حالة الحب العذري فالأمر مختلف!

– فهمت وجهة نظرك .

– وهل اقتنعتِ بها؟

– بعضها يحتاج إلى تقليب في العقل وتفكير ، وبعضه لا أجدني أميل لأن أتبناه . . .

– هذا أبسط حقوقك في أي نقاش فكري!

– نرجع إلى موضوعنا الأول ، حيث سألتك عن الحب والصداقة ، برأيك هل من الممكن أن تتحول الصداقة إلى حُب؟

- يحصل هذا كثيرًا ، وأنا على قناعة أن الصداقة يمكن أن تصبح حبًا ولكن الحب يستحيل أن يرجع صداقة؟

- ما السبب برأيك؟

- أعتقد أن السبب في هذا يرجع إلى طبيعة كل من الحب والصداقة ، فالصداقة هي إعجاب كل طرف بالطرف الآخر ، بعقليته ، بأفكاره ، بأخلاقه ، بروحه ، وهذا يتوافر في الحب غالبًا ، أي أن هناك أمورًا مشتركة بين الصداقة والحب ، غير أننا في الصداقة نحن ننظر إلى الطرف الآخر بعيدًا عن حدود نوعه ، ذكرًا كان أم أنثى ، أما الحب فهو صداقة أولاً ثم عنصر إضافي هو الرغبة في الطرف الآخر ، رغبة الرجل في أن تكون هذه المرأة أنثاه ، ورغبة المرأة في أن يكون هذا الرجل رجلها .

- ولمَ يستحيل أن يرجع الحُب إلى صداقة؟

- قلتُ لكِ الحب عاطفة أرفع درجة من الصداقة ، والعلاقات الإنسانية تصعد ولا تنزل ، فإذا تحولت الصداقة إلى حب وهذا أمر شائع ، فهذا السياق الطبيعي للمشاعر الإنسانية ، أما العكس فغير وارد ، يستحيل على الناس تقبل مشاعر أدنى مما اعتادوه سابقًا بينما يتقبلون فكرة أن تنمو العلاقات وتزداد .

- هذا صحيح!

- وأنتِ ما رأيكِ في الأمر؟

- اتفق معك هذه المرة تمامًا!

- وأخيرًا وجدنا شيئًا نتفق عليه اتفاقًا تامًا!

- هذا لتعرف أني لا أخالفك لمجرد المخالفة . . .
- أعرف هذا ولكني أمازحك!
- أعرف أنك تعرف ، وأنا أيضًا أمازحك!
- أخبريني أنتِ الآن ، كيف تتحول الصداقة إلى حب؟
- هناك عوامل تدفع بالصداقة لتصبح حبًا . . .
- وما هي؟
- برأيي ، هي ثلاثة عوامل : أولاً : التفاهم ، نحن نميل إلى حب الأشخاص الذين يشاطروننا أفكارنا ونظرتنا للأمور ، وكلما ضاقت مساحة الاختلاف في الصداقة كلما اتسعت رقعة الحُب فيها ، والعكس صحيح!

ثانيًا : الاحتكاك الدائم ، فالعشرة الطويلة والمعاملة اليومية تخلق نوعًا من الإلفة ما تلبث أن تنمو تلك الألفة لتصير حبًا!

ثالثًا : المساعدة في النوازل والمشاكل ، فلا تخلو الحياة من مطبات ، ونحن البشر لا نكترث عادة بالذين نجدهم بجانبنا ونحن أقوياء ، بينما نتشبث بأولئك الذين نجدهم بجانبنا ونحن في قمة ضعفنا واحتياجنا! إن يدًا واحدة تلتقطك حين تسقط هي أجمل من ألف يد تصافحك عند الوصول!

- هذا صحيح ، هذه عوامل مؤثرة برأيي ، ولكن برأيكِ أنتِ ما هي المؤشرات التي نعرف من خلالها أن الصداقة أخذت طور الحب ، ومشت في طريقه؟

- قد لا نعرف أحيانًا أننا وقعنا في الحُب ، بينما نكون قد غرقنا فيه حتى آخر خلية فينا! ولكن وإن كنا لا نعرف أننا وقعنا في الحب إلا أنه من السهل أن يعرف الطرف الآخر هذا ، أو ربما الأشخاص الذين يحيطون بنا ، فكما قلت هناك مؤشرات تدل على أن الصداقة لم تعد صداقة ، من هذه المؤشرات المواقف المفاجئ ، منها هدية من غير مناسبة ، أو ربما بمناسبة فنحن لا نتذكر التفاصيل الخاصة إلا للذين نحبهم أو أولئك الذين يهمنا أمرهم ، والاهتمام ابن الحب ، ومنها نظرة تفضحنا ، عين الصديق هي غير عين الحبيب يا كريم ، وقد قالوا قديمًا : العينان نافذة الروح ، وقد قال الإمام علي بن طالب :

- والعين تعرف من عيني محدثها
إن كان من حزبها أو من أعاديها

المؤشر الثاني هو التلميحات ، تعرف تلك الجمل التي تحمل أكثر من معنى ، هذا الكلام حمال الأوجه الذي نقوله ونحن نعني عمقه لا ظاهره ، نريد من الشخص الآخر أن يفهمه وحده دون أن يضطرنا أن نتنازل عن شيء من كبريائنا ، هي جمل يمكن تفسيرها على الوجهين ، الصداقة والحب ، نلبسها لباس الصداقة والحب كامن فيها!

المؤشر الثالث هو اعتماد كل طرف على الآخر ، عندما يحتاج أحدهما شيئًا فأول من يفكر فيه هو الطرف الآخر ، مع أن هناك أكثر من شخص يمكن أن يقضيه له ، إلا أن هذا يحقق

له مزيدًا من القرب فتجده أحيانًا يطلب من الآخر تلك الأمور التي يستطيع أن يقضيها بنفسه!

والمؤشر الرابع الاهتمام الزائد والمتميز ، ثمة تفاصيل صغيرة ، توحي أن الأمور خرجت عن نطاق الصداقة ، في الحب اهتمام مختلف عما هو في الصداقة ، مختلف تماماً ، نشعر به ولا تصفه الكلمات . . .

أما المؤشر الأخير فهو التواصل المبالغ فيه ، حين نشعر أننا لم نعد نطيق فراق الآخر ، ما إن يفارقنا حتى نهاتفه ، نخترع حجة أو ذريعة لنسمع صوته ، أو سببًا تافهًا لنرتب لقاءاً آخر ، هذه الأشياء لا تكون في الصداقة عادة!

– متأكدة أنكِ لم تقومي بالتجربة بنفسك؟

ضحكتِ يومها بصوتٍ عالٍ ثم قلتِ لي : لمَ تقول هذا؟

– تبدين خبيرة ، بل إنكِ صاحبة مدرسة وفكر في الموضوع!

– ليس كل ما نعرفه يعني أننا عشناه ، نحن نتعلم من تجارب الآخرين أيضًا ، ومما نقرأ ونسمع ونشاهد . . .

– صدقتِ!

وعند هذا الحد ، انتهى الحوار ، كنا قد وصلنا ، ومضى كل واحد منا في طريقه .

أرجعُ بكِ الآن إلى هشام وماهر مرة أخرى ، وعندما أذكرُ لكِ اسميهما فاعلمي أن حرباً ضروساً على وشك الاشتعال! هذه المرة لم تكن كسابقتها حين تناقشا في الحُبّ وتوقفا كثيرًا عند ابن حزم وابن القيم ، يبدو أننا في حضرة القلب نلين سواءً غَلبنا أم غُلبنا ، أما الآن فيحضر العقل ويكشّر كل منهما عن أنياب أفكاره ، ويجلس القلب جانبًا لا مهمة له سوى ضخّ الدّم في جسميهما ليزداد اشتعالاً!

دون سابق إنذار – وهذه عادة هشام كما تعرفين– قال لماهر : لا تنفك كلما أردتَ أن تتذمر من ظاهرة في بلاد الغرب قلتَ لي : هذا نتاج الحضارة الرأسمالية ، وكأن الغرب قبل الرأسمالية أحسن حالاً ، والعالم أقل اشتعالاً ، يا أخي هذا شأن البشرية دومًا ، ولو كنتَ عادلاً لاعترفتَ أن الرأسمالية حاولت أن تضع بعض العقل في رأس هذا العالم!

فقال له ماهر : تبدو صاخبًا اليوم يا هشام

– دعك مني وناقش فكرتي!

– سأفعل ولكن عليك أن تهدأ أولاً ، ولا تكن حادًا!

– لستُ حادًا ، ولعلك ترى فكرتي حادة فتحاول أن تتلافاها بهدوئك هذا ، الصخب الذي تقول عنه يكمن في الفكرة التي أطرحها عليك!

- أسئلتك التي ألقيتها دفعة واحدة ليست صاخبة بقدر ما هي متداخلة ، لا يمكن الرد على مئة سؤال دفعة واحدة ، دعنا نفند الأمور ونمشي خطوة خطوة . . .

- لكَ هذا ، فلنمش خطوة خطوة!

- حسنًا ، ما هو سؤالك الأول؟

- أنتَ ترى الرأسمالية وبالاً على البشرية أليس كذلك؟

- من النادر أن تجد فكرة شريرة بالمطلق ، أو فكرة خيّرة بالمطلق ، كل الحضارات ، الكتب ، الأشخاص ، تحمل في طياتها الغث والسمين ، ولكننا نحكم على الشيء الغالب ، لأن وجود ثغرة في فكرة خيّرة لا يجعلها فكرة شريرة ، تمامًا كما أنّ وجود نقطة خير في فكرة شريرة لا يجعلها فكرة خيّرة ، وبالنظر إلى الحضارة الرأسمالية من هذه الزاوية يمكنني القول أن لها وجهًا جميلاً لا يمكن إنكاره ولكنها بالمقابل لها الكثير من الوجوه الشريرة .

- أوافقك الرأي في جزئية أنه لا شيء مثالي تمامًا ، ولا شيء خاطئ تمامًا في هذه العالم ، ولكني لا أوافقك أن وجوه الحضارة الرأسمالية الشريرة أكثر من وجوهها الخيّرة ، ولكن دعنا الآن من وجوهها الشريرة التي تدّعيها ، وأخبرني أين هي وجوهها الخيّرة ، فقد كنتُ أحسبك تراها شرًا مستطيراً!

- وجه الحضارة الرأسمالية الجميل كان في بدايتها ، ولكن

سرعان ما سقط القناع الذي حسبناه وجهًا ، فبدا وجهها الحقيقي ، ولكن التزامًا مني بالإجابة على سؤالك أقول : يتفق الاقتصاديون - حتى أشرس أعداء الرأسمالية منهم- وعلى رأسهم كارل ماركس أنّ الرأسمالية في طفولتها كانت خطوة تقدمية مهولة ، وأنها أدّت خدمات جليلة للبشرية في كل مناحي الحياة! فقد زادت الإنتاج وأصلحت وسائل المواصلات ، واستغلت موارد الطبيعة على نطاق واسع لم يكن متاحًا من قبل ، ورفعتْ مستوى الحياة بالنسبة لطبقة العمال عما كانوا عليه في عهد الاعتماد الرئيس على الزراعة!

- إذًا تعترف أنها جاءت بالخلاص لهذه البشرية!

- هذا قبل أن يسقط قناعها!

- ماذا تقصد بهذا؟

- أقصد أن طفولة الرأسمالية المشرقة لم تدم طويلاً ، لأن الرأسمالية بتطورها الطبيعي أدت إلى تكدس الثروات في أيدي أصحاب رؤوس الأموال ، وتضاؤلها النسبي في أيدي العمال ، فصار صاحب رأس المال يُشغل العامل لإنتاج أكبر قدر من البضائع ، ويعطيه أجرًا ضئيلًا لا يكفي لحياة كريمة لهؤلاء الكادحين ، مستخلصًا لنفسه فائض القيمة في صورة أرباح فاحشة يعيش بها حياة ترف لا تقف عند حد!

- وما المشكلة في هذا؟ إنّ صاحب رأس المال يريد أن يزيده ، والعامل إنما يعمل ليعيش .

– المشكلة التي لا تراها في كل هذا ، هو أنكَ تنظر للأمور نظرة ضيقة على صعيد الأفراد فقط ، متناسيًا أنها فكرة مجتمعية . . .

– وأي ضرر حصل للمجتمع تراه أنتَ ولا أراه أنا؟

– الضرر الأول أن الرأسمالية جاءت ردة فعل على الإقطاع والطبقية ، فإذا بها تؤسس لطبقية جديدة وإقطاع جديد ، طبقة تملك المال وتستأثر به ، وطبقة كادحة تنمي هذا المال نظير لقمتها! ولا أبالغ إذ أقول أن الإقطاع الذي عرفته أوروبا كان أقل شرًا من الرأسمالية!

– الإقطاع أقل شرًا من الرأسمالية؟

– أجل أقل شرًا!

– إذًا أنت مع الإقطاع ضد الرأسمالية؟

– لا ، أنا لستُ مع هذا ولا ذاك ، وإنما أفند لك الأمور ، وأقارن القديم بالجديد . .

– لنفترض أنك أقنعتني ، وأنك لا تطبل للإقطاع ، فأين كانت الرأسمالية أكثر شرًا من الإقطاع؟

– أكثر شرًا لأنها تحمل في طياتها بذورًا عدوانية! فالإقطاع فكرة منكفئة على ذاتها ، همّ الإقطاعي أن يُحافظ على حدود أرضه ومملكته الخاصة ، ولا تكبر إقطاعية أو تصغر إلا بما يعرفه الناس من عمليات البيع والشراء ، أما الرأسمالية فلها شأن آخر!

- وما هو؟

- إن ضآلة أجر العامل تمنعه من استهلاك كل إنتاج المصانع في البلاد الرأسمالية ، لأنه لو أخذ من الأجر ما يكفي لاستهلاك الناتج كله أو معظمه لانتفى ربح رأس المال ، أو لتضاءل إلى أقصى حد ، وهذا ما لا تسمح به الرأسمالية لأنها تنتج للربح أولاً وقبل كل شيء ، ومن هنا تتكدس البضائع سنة بعد سنة ، فتضطر الدول الرأسمالية للبحث عن أسواق جديدة لتصريف بضاعتها ، فينشأ الاستعمار ، وما يتلوه من تناحر على الأسواق وعلى المواد الخام ، الذي يؤدي إلى الحروب المدمرة ، وهنا تكمن خطورة هذه الحضارة ، لأنها تقوم بالدرجة الأولى على فكرة تطويع بقية الحضارات ، وجعل الدول الأخرى أسواقًا مستهلكة ، بدل أن تقوم على فكرة التعايش بين الناس!

- وكأن العالم لم يعرف الحروب ولا الغزو حتى جاءت الرأسمالية!

- أنا لم أقل هذا!

- قلته بالمعنى وإن لم تقله بالحرف!

- أبدًا ، أنت تقوّلني ما لم أقل ، الذي قلته أنا شأن آخر ، فلم أخبرك عن الحروب وإنما عن مبرراتها! الحروب مستعرة في هذا الكوكب قبل الرأسمالية وهذا حق ، ولكن الحروب قديمًا كانت صراع أفكار ولم تكن صراع تجارة! صراع أعراف لا صراع أسواق ، وإن كان لكل الحروب جانب اقتصادي لا يمكن إنكاره ،

ولكن لم يكن الاقتصاد هو محركها الرئيس ، ولكن انظر اليوم حولك ، ما الذي يبرر استعمار أفريقيا غير المواد الأولية

– ولكن أفريقيا لم تعد مستعمرة!

– لم تعد مستعمرة عسكريًا ربما ، ولكن دول الاستعمار ما زالت تنهبها باتفاقيات تحكم بها تلك الدول ، وهذا يدعم رأيي لا رأيك ، فالغاية هي المال ، والمواد الخام والسوق ، إما أن آخذه بجنودي ، أو عملائي الذين أنصبهم ، أو عقود مجحفة أوقعها بعد أن أفرضها على طرف ضعيف!

– صدقني أنك تبالغ!

– صدقني أنتَ تسطح الأمور ، برأيك أكانت أمريكا ستحشد كل جيوشها في العراق لو لم يكن عبارة عن حقل نفط كبير؟ لا أحسبك ساذجًا لتصدق أن دولة رأسمالية تدفع مليارات الدولارات فقط لأنها تريد أن تخفف الظلم عن شعب . . .

– هذا لأنك تفترض فيها الشر!

– هذا لأني رأيتُ الشر ولم أفترضه ، وها هو العراق أمامك ، ألا تراه مسلخًا كبيرًا ، أي شر أكبر من أن تدمر بلدًا وتسرقه تحت شعارات براقة؟

– الحروب دومًا فيها خسائر!

– لا أختلف معك على هذا ، أنا أناقشك في الباعث على الحروب ، لا من حيث طبيعة هذه الحروب!

- حسنًا ، ولكن ألا ترى معي أنّ هذا كله ليس بالضرورة أن ينشأ عن سوء نية أصحاب رؤوس الأموال ولا رغبتهم الذاتية في الاستغلال ، وإنما هذه هي طبيعة رأس المال

- اعذرني إذ أقول لك هذا تفكير ساذج!

- ولمَ؟

- لأن هذا هو قول دُعاةِ المادية ، والمؤمنين بجبرية الاقتصاد ، إنهم يجعلون الإنسان كله بأفكاره ومشاعره مخلوقًا سلبيًا لا حول له ولا قوة أمام قوة الاقتصاد! وإن صحّ هذا - وهو لا يصح طبعا- فهو بحد ذاته عيب فاحش ، أي خير في حضارة تقود الإنسان بدل أن يقودها؟!

- ما دام الأمر كذلك فلِمَ نجد الرأسمالية في بلادنا؟

- تسأل وكأننا نقضنا عُرى الإسلام بأيدينا ، عندما عرفنا الرأسمالية! إن الرأسمالية يا عزيزي انتقلت إلى العالم الإسلامي وهو مغلوب على أمره ، واقع في قبضة الغرب ، غارق في الفقر والجهل والمرض والتأخر ، فسرت هذه الحضارة فيه سريان النار في الهشيم دون أن يكون له رغبة في أن يحترق ولا إرادة في أن يُطفئ نفسه! لا يمكنك أن تسأل الغريق عن سبب ابتلاله بالماء ، ولا يمكنك أن تسأل القتيل لماذا أودت بحياته رصاصة ، إن الذي يقع عليه الفعل قد لا يُعذر بضعفه إذ جعل نفسه مفعولاً به ، ولكن من المؤكد أنك لا يمكنك أن تقول أنه اختار أن يقع عليه الفعل!

– ولكني أستغرب من طرحك هذا ، أنت تخلط بين الأمور!

– لم أفهم ، أية أمور التي أخلط بينها؟

– أنك تقدم الإسلام على أنه ندّ للرأسمالية ، والرأسمالية على أنها ندّ للإسلام!

– صحيح ، هذا ما أقوله ، ولكن لم أفهم أين الخلط؟

– إن الإسلام دين عبادة ، و الرأسمالية نظام حياة ، لم تأتِ الرأسمالية لتقول لك اتركْ دينك ، على العكس هي مع الحرية المطلقة في اختيار الدين أو الإلحاد ، فلماذا تفترض أنه يمكن لأحدهما أن يلغي الآخر؟

– أنا لا أقول أنه يمكن لأحدهما أن يلغي الآخر ، بل أزيد فأقول أنهما يستحيل أن يجتمعا في مجتمع واحد ، وأنه إن اجتمعا برهة ما يلبث أحدهما أن يقضي على الآخر!

– وكيف هذا؟

– أنت تعتقد أن الإسلام دين صلاة وصيام وحج وقراءة قرآن ، وهذا اعتقاد خاطئ ، وفهم مغلوط للإسلام ، إن الإسلام كما الرأسمالية منهاج حياة ويستحيل على مجتمع أن يمشي في طريقين في وقت واحد!

– لم أفهم ، كيف أن الإسلام منهاج حياة؟

– سأخبرك . . الصلاة والصيام والحج والزكاة هي عبادات ، والعبادات هي جزء من الشريعة ، وليست الشريعة كلها ، في

الإسلام نظام عقوبات ، ونظام اقتصادي ، ونظام اجتماعي ، ونظام سياسي ، وكل هذه الأمور مجتمعة تشكل منهاج الإسلام في الحياة ، وإن قصْرَ الإسلام على العبادات هو تقطيع لأوصاله ، وتقزيم لحجمه ، إنك تفترض أن على الإسلام أن ينزوي في المساجد والمحاريب والمنابر ، ويترك المسلمين خارج المسجد يتحاكمون لشرائعٍ وضعية بدل شريعة إلهية متكاملة ، ويكفي أن أضرب لك مثلاً واحدًا لأستدل فيه على استحالة الجمع بين الرأسمالية والإسلام الكامل في مجتمع واحد ، فالرأسمالية على سبيل المثال لا يمكن أن تقوم دون ربا ، هذا شيء لا يقبل به رأس المال ، في حين نجد أن الإسلام قد اتخذ موقفًا حاسمًا تجاه الربا ، فكيف ستجمع بين فكرتين تقوم إحداهما على الربا ، بينما لا تترك الأخرى فرصة لتحريمه وتشنيعه؟!

– هذا موقف حاد منك ، ولو نظرتَ حولكَ لوجدتَ أنهما يسيران في مجتمعاتنا معًا!

– لا تخلط بين المسلمين والإسلام! المسلمون ولله الحمد كثر ، يصومون ويصلون ويزكون ويحجون ، ولكن الإسلام معطّل ، ومُنحى عن قيادة مجتمعاتهم ، وما يتحاكم فيه المسلمون من آليات الرأسمالية إنما ارتضاها المسلمون ولم يرتضِها الإسلام ، فالمسلمون ليسوا حجة على الإسلام ، على العكس إن الإسلام هو حجة على المسلمين ، فعلى سبيل المثال : لو شرب بلد كامل من بلاد المسلمين الخمر ، فلا يصح أن نقول أن

الإسلام يبيح الخمر لأن المسلمين يشربونه ، وإنما نحتج على هؤلاء بعدم تطبيقهم للإسلام ، وارتكابهم ما نهى عنه .

- دعنا نأخذ الأمور من زاوية أخرى ، نشأت الرأسمالية في الغرب بعد اختراع الآلة ، ولم يكن حتمًا أن تنشأ في الغرب كان من الممكن أن تنشأ في الأندلس على سبيل المثال نظرًا للتطور العلمي المذهل وقتذاك ، فهل كان سيقف الإسلام ضدها خصوصًا أن الإسلام يبيح أهم أسس الرأسمالية وهما الحرية والملكية والفردية؟

- بخصوص اختراع الآلة ، كان من الممكن أن يحدث فعلاً في الأندلس ، فقد كانت الحركة العلمية سائرة في طريقها الطبيعي إلى اختراعها ، ولكن ليس بالضرورة أن ينشأ عن اختراع الآلة فكرة معادية للفكرة التي تم انتاج الآلة في كنفها ، أنتَ تفترض أن الآلة هي التي تنتج الأفكار ، على العكس يا صديقي إن الفكرة هي التي تنتج الآلة!

أما بخصوص أن الإسلام مع الحرية والملكية الفردية فهذا حق ، ولكن هذا لا يعني حتمية نشوء فكرة مضادة ، فإذا كان الإسلام يبيح الأصل فهذا لا يعني بالضرورة أنه يبيح النتائج!

ويكفي ردًا عليك أن أذكر بديهية صغيرة يعرفها الجميع ، وهي أن الرأسمالية لا يمكن أن تقوم وتأخذ صورتها الواسعة التي هي عليها اليوم بغير الربا والاحتكار ، والإسلام حرمها قبل نشوء الرأسمالية بأكثر من ألف عام!

- ولكنك لم تجبني بعد ، ماذا لو نشأت الرأسمالية في حضن الإسلام؟ وكيف كان يتصرف إزاءها؟

- هذا شيء مستحيل الحصول إذا كنت تعني الرأسمالية من حيث ما هي حزمة أفكار آليات لتسيير المجتمع ، فالمجتمع شأن الإسلام ولا يقبل شراكة فيه ، ولا أدل على هذا من أنه زمن الفتوحات لم يُجبر أحد على الإسلام ، لكل فرد حرية العبادة والمعتقد ، أما قيادة المجتمع فهذا شأن الشريعة وحدها!

أما لو كنت تقصد بالرأسمالية الناشئة في حضن الإسلام هذه الطفرة الصناعية المهولة ، فهذا كلام آخر وعندي رد عليه!

- هذا بالضبط ما أسأل عنه ، هذه الطفرة الصناعية وكل ما ينشأ عنها من أموال وأعمال وعلاقات . . .

- حسنًا ، هذا شيء تسهل الإجابة عنه ، ولكن ليكن صدرك رحبًا فإنه حديث يطول كما ترى!

- لك هذا!

- بالنسبة لطفولة الرأسمالية التي تحدثنا عنها وقلنا أنها كانت خيرًا عميمًا للبشرية ، أو على الأقل غلب خيرها على شرها فإن الإسلام لم يكن ليقف في طريقها ، لأنه لا يكره الخير للبشرية بل إنه ما جاء إلا لنشر الخير في أصقاع الأرض كلها .

ومع ذلك لم يكن ليتركها وشأنها من دون تشريع ينظم علاقاتها ، ويمنع ما قد يصاحبها من سوء استغلال ، سواءً كان ناشئًا من نية خبيثة عن صاحب رأس المال ، أو كان من طبيعة

رأس المال ذاته دون دخل لصاحبه فيه ، على افتراض أننا سلمنا جدلاً بما يسميه فقهاء الرأسمالية بجبرية الاقتصاد!

والمبدأ التشريعي الذي وضعه الفقه الإسلامي في هذا الباب ، وسبق به كل التشريعات التي يتغنى بها الغربيون وأتباعهم الشرقيين المفتونين بهم ، هو اعتبار العامل شريكًا في الربح مع صاحب رأس المال! وذهب فقهاء المذهب المالكي إلى حدّ تحديد الشراكة بالنصف في حال دفع صاحب رأس المال ، المال كله وقام العامل بالجهد البدني كله ، فجعل جهد صاحب المال في انتاج المال مساويًا لجهد العامل في صناعة الإنتاج ، وساوى بين نصيبيهما في الربح على هذا الأساس .

وأول ما يبدو هنا في هذا المبدأ هو حرص الإسلام العجيب على العدالة ، وسبقه في التفكير والعمل عليها ، تطوعًا منه وإنشاءً ، لا خضوعًا للضرورات الاقتصادية التي لم تكن قد وُجدت بصورة صارخة يحس بها الفقهاء ، ولا نتيجة الصراع الطبقي الذي يزعم بعض دعاة المذاهب الاقتصادية أنه العامل الوحيد في تطور العلاقات الاقتصادية!

وقد كانت الصناعات في بدء عهدها صناعة يدوية بسيطة ، يشتغل فيها القليل من العمال في مصانع بسيطة ، فكان هذا التشريع كفيلاً بإقامة العلاقات بين العمل ورأس المال على أساس من العدالة لم تحلم بها أوروبا في تاريخها الطويل .

- اسمح لي أن أقاطعك هنا!

– لكَ هذا ، ولكن ما السبب؟

– السبب أنك تُقوِّل الإسلام ما لم يقل!

– وكيف ذلك؟

– التشريع الذي قلتَ عنه عند الفقهاء لا نجد نصًا صريحًا يقوله ، فكيف للفقهاء أن يصنعوا تشريعًا ، وإن كان عادلاً ثم تقول هذا تشريع الإسلام؟

– ملاحظة جيدة وفي مكانها!

– فما جوابك عليها؟

– الإجابة أيضًا يسيرة يا هشام ، هناك فرق بين الفقه وبين الشريعة ، فالشريعة هي المصدر الثابت الذي يحتوي مبادئ الإسلام العامة ، وقد يحتوي تفصيلات دقيقة كذلك كقضية الميراث مثلاً ، أما الفقه فهو التطبيق المُتطوّر الذي يستمد من الشريعة ما يناسب كل عصر ، وهو عنصر متجدد لا يقف عند عصر ولا جيل!

الحياة آخذة في التطور والتغيّر يا صاحبي ، كل يوم تنشأ فكرة ، وتستجد قضية ، ويحدث نزاع ، وتستعر أزمة ، ويقوم مصنع ، ويُشاد مصرف ، فكيف تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان إن لم يعمل الفقهاء عقولهم في المستجدات مستنبطين حكمًا شرعيًا لها من مبادئ الشريعة الإسلامية!

– حسنًا فهمتُ هذه النقطة ، لك الحرية الآن أن تُكمل ما كنتَ فيه . . .

- نرجع إلى نقطة «ماذا لو نشأت هذه الظاهرة في الإسلام؟» ، يقول مؤرخو الاقتصاد أن الرأسمالية أثناء تطورها من صورتها البسيطة الخيرة التي كانت عليها بادئ الأمر إلى صورتها الفاحشة التي هي عليها اليوم ، أخذت تعتمد رويدًا رويدًا على الديون الأهلية ، ومن هذه نشأ نظام المصارف التي تنظم العمليات الرأسمالية الكبرى ، وتقرضها ما تحتاج إليه من الأموال لتشغيلها في مقابل ما تأخذه من الفوائد/ الأرباح ، وكل هذه القروض وكثير من أعمال المصارف قائمة على الربا وهو محرم تحريمًا صريحًا في الإسلام! كذلك يقول الاقتصاديون - وهو أمر نعيشه واقعًا اليوم- أن المنافسة الرأسمالية الشرسة تؤدي في النهاية إلى تحطيم الشركات الصغيرة ، أو اندماجها ببعضها لتأسيس شركة كبيرة ، وهذا وذلك يؤديان حتمًا إلى الاحتكار نهاية المطاف ، والاحتكار حرام في الإسلام حرمة قاطعة كما في صحيح مسلم : «من احتكر فهو خاطئ»!

وعلى ذلك فلم يكن من الممكن أن تتطور الرأسمالية في حضن الإسلام إلى صورتها الفاحشة التي هي عليها اليوم ، والتي تؤدي إلى الاستقلال والاستعمار والحروب . .

- السؤال هنا يا ماهر ، كيف كان يُكتب لها أن تسير؟ هل تقف عند حد الصناعات البسيطة التي أوصلها إليها الفقه كما قلت - لأنه كما تعرف بعد ذلك انشغل المسلمون بترميم الوهن الذي أصابهم بعد سقوط الأندلس- أم تتخذ طريقها الطبيعي في التطور محكومة بما تسميه الإسلام الخيّر؟!

- سؤال جميل وعميق يا هشام ، فأما وقف الصناعات فهي خطوة يستحيل أن يقف الإسلام في وجهها وقد كانت الأندلس قائدة العالم في الحضارة شاهدًا أن الإسلام يدفع نحو الرقي فكرًا ومادة وليس العكس!

وأما تطور الإنتاج بصورة أخرى غير ما حدث في أوروبا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، فهذا هو الذي كان يمكن أن يكون بتنمية التشريعات الفقهية الاقتصادية المستقاة من الشريعة السمحاء ، كما أخبرتك بمسألة نصف الربح في موضوع الأجور! وبهذا كان الإسلام يتفادى أمرين في وقت واحد :

يتفادى اللجوء إلى الربا والاحتكار اللذين تحرمهما الشريعة ، ويتفادى الظلم الشنيع الذي يقع على العمال حين يُتركون فريسة لأصحاب رؤوس الأموال يستغلونهم أبشع استغلال ويمتصون دماءهم ، ثم يتركونهم في لظى الفقر المذلّ لكرامة الإنسان!

- قف هنا قليلاً يا ماهر!

- حسنًا وقفتُ يا هشام ، ولكن لأي شيء أقف؟

- لماذا تجزم أن الإسلام كان من الممكن أن يصل إلى هذا الواقع الجميل دون أن يمر بالتجارب القاسية والصراع الطبقي والضغط الاقتصادي الذي يدفعه لتغيير تشريعاته تمامًا كما حدث في الرأسمالية التي تقرّ أنتَ أنها كانت على خير كثير أول أمرها ، ثم تحت كل ما سبق صارت ما تراه أنت فيها اليوم؟

- لا يختلف اثنان منصفان أن الإسلام قد سبق تطور البشرية في مسألة الرق والإقطاع متطوعًا غير خاضع لضغوط ، وإنما مدفوعًا بفكرته الذاتية عن الحق والعدل التي يسخر منهما «فردريك انجلز» وغيره من الشيوعيين .

كما ثبت أيضًا أن روسيا ذاتها قد انتقلت مباشرة من الإقطاع إلى الشيوعية ولم تمر بمرحلة الرأسمالية ، فكانت وهي الدولة التي اعتنقت آراء كارل ماركس - أكبر مكذّب عملي لنظرية ماركس في تحديد المراحل التطورية التي يجب أن تمر بها البشرية- فكما تعلم أنه قال أن البشرية «يجب» أن تمر بالإقطاع إلى الرأسمالية وصولاً إلى الشيوعية ، وهم قد قفزوا مرة واحدة من الإقطاع إلى الشيوعية فأين تحققت «يجب» هذه؟

أما الاستعمار والحروب واستغلال الشعوب وكل ما صاحب الرأسمالية من شرور عالمية فهو خارج حساب الإسلام أصلاً بطبيعة الحال ، فليس من مبادئه أن يستعمر أو يشن حربًا للاستغلال ، لأن الحرب الوحيدة التي يقرها هي الحرب لصد عدوان أو لنشر الدعوة حين تقف القوة العسكرية في سبيل الدعوة السلمية! لهذا لا مجال في الإسلام لما يقوله الشيوعيون أن الاستعمار كان مرحلة حتمية في حياة البشرية لا يمكن أن تقف في وجهه المبادئ ولا قيم الأخلاق لأنه مسألة ناشئة عن تكدس البضائع في البلاد المنتجة والحاجة إلى أسواق خارجية لتصريفها! والتاريخ يشهد أن أنظف نظام في هذا الباب هو النظام

الإسلامي ، لأن حروبه كانت بريئة من الاستغلال فكان هو أولى الانظمة لو نشأت فيه الصناعات الكبرى أن يلجأ لحل مشكلة الفائض من الانتاج بغير الاستعمار والحروب ، دون أن ننسى أن مشكلة الفائض في الإنتاج ذاتها إنما هي إفراز النظام الرأسمالي بصورته هذه ، فلو تغيرت أسسه ما وجدت المشكلة!

ولكن الإسلام كعادته لم يكن ليكتفي بالتشريعات الاقتصادية وغير الاقتصادية ، فهو يلجأ كذلك إلى التربية الخُلقية والروحية ، فهذا النظام النبيل لا يوجه دعوة للروح وأخرى للتنظيم الاقتصادي منفصلة هذه عن تلك ، ولكنه يمزج بطريقته الفريدة بين تهذيب الروح وتنظيم المجتمع ، فيوفق بين هذا وذاك ، ولا يترك الفرد تائهًا حائرًا يحاول التوفيق بين الواقع والمثال! أن يُقيم التشريع على أساس خُلقي ويجعل الدعوة الخلقية متماشية مع التشريع ، فيلتقي الجانبان في نظام واحد!

والدعوة الخُلقية هنا تُحرم الترف وتجاربه ، وهل ينشأ من تضخم الأرباح في يد فئة قليلة من الناس إلا الترف البغيض؟! وتُحرم ظلم الأجير وعدم إيفائه حقه ، وتربط الإنسان بالله ، وتجعله مراقبًا له سبحانه ، يعطي ويتصدق وينفق ويبذل ابتغاء رضوانه ، وشتان بين الخوف من الله والخوف من القانون!

وإلى هنا كنا قد وصلنا ، واتفقا أن يُكملا من هنا ، ولا أدري إن أكملا أم لا ، لربما فعلا أثناء غيابي عن الجامعة ذات يوم ، أو ربما أثناء غيابي عن العالم وأنا أنظر في عينيكِ!

لا أعرف كيف أحببتكِ ، ولا متى أحببتكِ!

يصعُب عليّ الآن معرفة أي شيء يتعلق بنا ، أو بي وبكِ ، فلم نعد ذاك الشخص الواحد الذي كُنّاه!

لكني أقرُّ لكِ أنكِ امرأة فيها شيء من السحر!

لا أدري هل يكمن السر في عينيكِ أو في اندفاعكِ المجنون تجاه الحياة ، أو في تلك النظرة التي تجعلني عاجزًا عن تحديد ما أشعر به حين تستحوذ عليَّ!

ويصعب الآن معرفة من منا وقع في قلب الآخر أولاً!

من منا أدرك أنه مشدود بحبلٍ أحد طرفيه في يدٍ أخرى ، يد كلما نأى صاحبها اشتد الحَبل الذي تمسك بزمامه على عنق الآخر حتى الاختناق!

لكننا في نهاية الأمر ، أدركنا أن ذلك الحبل أشدُّ متانة من أن يقطعه الهرب في الاتجاه المعاكس!

لذلك أذعنا صاغرين ، وتركنا خطواتنا تنقاد في اتجاه الحبّ!

أو في اتجاه بعضنا . . .

الاعتراف بهذا كان صعبًا . . .

الاعتراف لأنفسنا كان صعبًا . . .

والاعتراف لبعضنا كان أصعب . . .

غير أن الحبّ كان سيّد الموقف!

يوم آخر يحمل رائحة عطرك ، تلك الرائحة التي كانت أول ما أدمنته في حضورك ، الإشارة الأولى التي تسبق مجيئكِ بلحظات ، ثم صوتكِ الذي لم ينفض عن نبرته بعد آثار النعاس ، فيبدو أقل حدة من المعتاد ، مضفيًا عليكِ هالة من السكينة الجميلة ، كوب القهوة الكرتوني الذي تحملينه في يدكِ كل صباح ، تنهيدتكِ بعد الجلوس على المقعد ، الطريقة التي ترفعين بها شعركِ ، ثم أخيرًا ابتسامتكِ التي تُتبعينها بعبارة «صباح الخير» ، كل تلك التفاصيل التي بدأت تلفتُ انتباهي بشدة فيكِ ، وتلك الرغبة الغريبة في النظر إليكِ ، وكأني لا أملأ عينيَّ بكِ بل أملأ قلبي ، كل ذلك كان يشير إلى تسللكِ إلى أعماقي ، دون أن أدرك ، وطيلة الوقت كنتُ أعلل حب رفقتكِ بمهارتكِ العالية في إدارة الأحاديث أو اختلاقها!

وبسذاجة الحمقى مضيتُ أشاكسكِ بالأحاديث كعادتي معكِ ، دون أن أفكر في هذه العملية المعقدة التي تجري بداخلي ، أو أني فقط أردتُ تجاهل هذا كما أفعل دومًا مع الأمور غير الواضحة لي .

سألتني : ما جديدك؟

قلتُ بعد ثوانٍ من التفكير : لديّ امتحان اليوم ، عدا ذلك الأمور رتيبة .

- لا بدّ أنكَ درستَ جيدًا!

- نبرة الثقة هذه تدعو للإعجاب . . .

- أظن أني صرتُ أعرف بعض جوانبكَ ، ومنها جدّيتكَ الحياتية عامة ، والدراسية خاصة

- هذا صحيح ، درستُ مع بعض الأصدقاء والصديقات .

اعترى وجهكِ شيء ، لم أفهمه وأنتِ ترددين كلمة الصديقات بصوتٍ أقرب للهمس ، ثم قلتِ :

- هل هناك الكثير منهنّ؟ الصديقات أعني!

قلتُ بتلقائية :

- هناك ثلاث فتيات في مجموعتنا ، إضافة لشابين أنا ثالثهما ، نحن نتحرك معًا في الجامعة عادة ، بحكم ما يجمعنا من علاقة دراسية وشخصية في آن معًا .

- علاقة شخصية بأي معنى ، هل ثمة تجاذب عاطفي مثلاً؟

- لا أعرف ، تعجبني شخصية منال نوعاً ما ، طريقة تفكيرها ، ونظرتها للأمور دوماً مختلفة ، ولكن الأمر لا يعدو كوننا صديقين وزميلي دراسة لا أكثر . زيد وهناء يحبان بعضهما وقد خُطبا لبعضهما منذ فترة وجيزة ، سيتزوجان حال انتهائهما من الجامعة ، سهام ومحمد لا يبدو عليهما أي انسجام ، لا يكفّان عن الشجار كلما تحدثا ، هما كالوقود والنار ، نحرص دائمًا على إبقائهما بعيدًا عن بعضهما .

لم تقولي شيئاً بل اكتفيتِ بنصف ابتسامة مفتعلة ، وتشاغلتِ ببعض الأوراق التي أخرجتها من حقيبتك ، لم أفهم سر تصرفكَ

هذا في حينها ، كل ما خطر لي هو أني أضجرتكُ بالحديث عنهم ، فسألتكُ محاولاً تبديد تلك الغيمة التي علت ملامحك :

- ماذا عنكِ ، هل من جديد؟

- لا جديد!

جوابكِ المختصر جعلني أراجع ما قلتُ لأفهم أين أخطأتُ ، لم أجد في كلامي ما يمكن أن يدلني على شيء ، ولم أجد أنه من المناسب الإلحاح عليكِ بالأسئلة ، فالتزمتُ الصمت بدوري حتى انتهت بنا الرحلة إلى أماكننا المنشودة .

وفي طريق العودة لاحظتُ أنكِ جلستِ بجوار امرأة في مقعد بعيد ، رغم أن المقعد المجاور لي - أي مكانكِ المعتاد- كان فارغًا ، انزعجتُ كثيرًا من ذلك ، لم أستطع أن أفهم ، ولم أجد طريقة أسألكِ بها ، فأنتِ حتى لم تنظري باتجاهي ، وقد بدت لي تلك الرحلة أطول رحلة لي على هذه الحافلة ، كلما حاولتُ عدم التفكير في الأمر ، داهمتني الأسئلة كجيش لا يمكن التصدي له ، وبقيتُ أراقبكِ على أمل التفاتة أو إشارة منكِ ، تشرح غرابة ما تفعلين!

لكني غادرتُ الحافلة دون أن أحمل معي غير أسئلتي وحيرتي ، وتركتكِ خلف ذلك الحاجز الغريب الذي بنيته فجأة بيننا .

لم أستطع أن أخرجكِ من رأسي طيلة تلك الليلة ، وخطر لي حينها سؤال : لماذا لا أملك أي وسيلة للتواصل معكِ ،

لا هاتف ، لا عنوان ، لا أعرف أي شيء عنك مطلقاً ، ولم يخطر لي أن أعرف أي شيء خارج حدود تلك الحافلة ، لم أفكر في حاجتي لذلك من قبل ، لم أفكر فيكِ أبعد من كونكِ جارة المقعد في الحافلة . .

ولكن ألستِ كذلك؟

ماذا تغير الآن؟

ماذا يعني أن تغيري مكان جلوسك؟

هذا شأنك ، ما شأني؟

لماذا يهمني أن أفهم دوافعكِ ، لماذا يشغلني كثيرًا أن أعرف ما يدور في رأسكِ؟

لماذا أزعجتني تلك المسافة التي وضعتها بيننا؟

لماذا وضعتها أصلاً؟

هكذا مضت ليلتي ، أدور في نفس الدائرة من الأسئلة دون جدوى ، حتى هزمني النعاس ونمت .

في اليوم التالي كان أول ما أريدُ أن أراه هو أنتِ ، انتظرتُ طويلاً حتى نصل إلى مكان صعودكِ ، ولكنكِ لم تكوني هناك! شعرتُ بشعور غريب ، أشبه بالغضب ، أزعجني هذا الوضع الذي وجدتُ نفسي فيه ، لماذا أشغل نفسي بهذا القدر!

ليذهب من يذهب ويأتِ من يأتِ!

وأصررتُ على عدم التفكير أكثر ، ولم يكن لإصراري أي جدوى على أية حال!

سألتُ أبا أمين بطريقة عابرة وأنا في طريق العودة ، لماذا لم تركب معنا موظفة المصرف اليوم؟

فأجابَ قائلاً : لا أعرف ، لقد مررتُ حيث تقِفُ ، ولكنها لم تأتِ فمضيتُ .

فقلتُ مبررًا : لقد نسيت بعض الأوراق معي لذلك سألت .

لم يبد عليه أنه مهتم كثيرًا بالأمر ، فقد هزّ رأسه علامة الفهم ، ومضيتُ أنا ناقمًا من نفسي على هذا الفضول الغريب الذي بدأ يخرجني عن طوري ، ما لي ولوعد هذه!

والأسوأ من هذا أن عطلة نهاية الأسبوع قد وافقت اليوم التالي ، فقررتُ الخروج مع الأصدقاء لعلي أتخلص من هذا الهذيان الأحمق الذي يلازمني منذ أيام .

كانت المجموعة مكتملة كالعادة ، الجميع هنا ، وبدا لي أني الوحيد الغائب - ذهنيًا- عن المكان ، رغم كل محاولاتي للاستغراق في الأحاديث ، أو الانتباه لها على الأقل .

سألني محمد : أين أنت يا رجل!

أجبتُ بهدوء : أنا هنا ، ألا تراني؟

- أراك ولكنك لا ترانا! ما هذا الهدوء العجيب اليوم ، «أصابك عشقٌ أم رُميتَ بأسهم ، فما هذه إلا سجية مغرمِ»!

نادرًا ما يتكلم محمد دونَ أن يستشهد ببيت شعرَ ، لقد كان تقريبًا يحفظ قصيدة لكل موضوع ، حتى أنني أشك أنه يتخيل كل الأماكن كسوق عكاظ ، منصة لإلقاء الشعر . .

– أي عشق؟ أنا والعشق لا يمكن أن نلتقي!

– ولِمَ لا؟

– لا أدري ، يبدو لي أن العشق يجعل المرء أحمقَ ، وأنا أكره أن أبدو أحمقَ .

– الحماقة يا صديقي هي ألا تحب ، واسأل مجربًا ولا تسأل خبيرًا . . وإليك كبير المجربين نزار قباني الذي يقول : وعدتُك ألاّ أحبكِ – يا للحماقة– ماذا بنفسي فعلت!

لقَد كنتُ أكذب من شدة الصدق!

والحمد لله أني كذبت!

تدخلت سهام في هذه اللحظة قائلة لمحمد :

– أنتَ أحمق دون عشق ، فكيف بك لو عشقت ، أظن أننا سنضطر لنقلك مباشرة لمستشفى الأمراض العقلية .

أجابها دون أن يبدي تأثرًا بما قالته :

– أمثالكِ من السطحيين لا يمكن لهم فهم هذا الشعور الذي يتطلب إحساسًا ، وهذا ما لا تملكينه للأسف!

نظرتُ إلى منال نظرة مفادها أنقذينا قبل أن تتطور الأمور ، فأخذتْ بيد سهام قائلةً لها : لقد نسيتُ أن أخبركِ أنني بحاجة إلى مساعدة في البحث الذي أعمل عليه ، لذا علينا أن نغادر الآن لنجد الوقت الكافي لإنجازه ، واستأذن زيد وهناء بعد دقائق أيضًا لأن لديهم خططًا أخرى للمساء ، ليبقى محمد وحده معي مصرًا على تشخيص حالتي قبل مغادرته ، مؤكدًا أنه يشم رائحة عشق في الموضوع .

وكان يبدو لي أن هذه الخلوة فرصة لأشارك أحدهم ما يدور في رأسي من أسئلة ، لعله يرى شيئًا لم أتمكن أنا من رؤيته ، أو على الأقل أنفض ما في رأسي من ترهات بهذه الفضفضة .

قلتُ له بعد تنهيدة طويلة : صدقني يا محمد أنا لا أعرف حقًا ما الأمر ، غير أني مشغول البال بأمر ، والحيرة تستحوذ عليَّ بشأنه ، فكلما حاولتُ أن أخرج من المسألة ، وجدتني عالقًا في ألف سؤال!

– دع عنك هذا اللف والدوران ، أخبرني بالحدث كما هو وأنا سأحكم حينها .

– حسنًا ؛ منذ ما يقارب الثلاثة أشهر تعرفتُ على فتاة في الحافلة التي أستقلها في الطريق إلى الجامعة ، كنا نقضي الطريق في الأحاديث يوميًا ، الأحاديث العامة لا يوجد شيء خاص .

ومضيتُ أقصّ عليه ما جرى بيننا دون إسهاب ، ثم أخبرته بالحال الذي وقعتُ فيه نهاية المطاف ، وكل ما يدور في رأسي ، وكل ما أشعر به من مشاعر شبيهة بالغضب والضغينة أحيانًا ، والضعف والرقة أحيانًا أخرى ، كل تلك التناقضات التي ترهقني!

ابتسم محمد ابتسامة المنتصر وقال :

– ألم أقل لك أنك عاشق يا بني!

– دع السخرية جانبًا ، ها قد أخبرتكَ ، ماذا تظن سبب جفائها المفاجئ هذا!

- المرأة تغار عليك يا أحمق!
- تغار عليَّ!
- طبعًا
- ممن ، ولماذا؟
- ألم تقل لها أنكَ تستلطفُ منال وتعجبكَ شخصيتها!
- أجل ، ولكن ليس بيننا شيء ، أنا وهي!
- ليس بينكما شيء صحيح ، ولكن داخلكما أشياء ، لعلها هي أيضًا لم تكن تدرك أنها تحبك ، كما أنت الآن لا تدرك ، لذلك أفزعتها غيرتها عليك ، ولم تجد الحق في الإفصاح عن تلك الغيرة ، فآثرت البعد والصمت ، فلو أنكَ تبادلها نفس الشعور ، وتعنيك مشاعرها ستحاول كسر حاجز الصمت ، وستقطع المسافة الفاصلة بينكما ، وستحتوي غيرتها ، أو تطمئنها ، أما لو كانت مشاعرها من طرف واحد فستتجاهلها بطبيعة الحال ، وبهذا ترمم هي كبريائها وتحاول قتل مشاعرها في المهد .
- يا إلهي يا محمد ، من أين خرجتَ بكل هذا؟
- تعلّم يا كريم ، تعلّم إنكَ لا تقابل كل يوم رجلاً قادرًا على قراءة مشاعر الناس من تصرفاتهم مثلي .
- دع المزاح جانبًا الآن وأخبرني ، ماذا عليّ أن أفعل؟
- أخبرني أولاً : هل تشعر أنكَ تريد لقاءها والتحدث معها بأي طريقة؟

- أجل ، هذا أكثر ما أريده الآن

- رحمك الله يا صديقي ، لقد غرقت فعلاً

- يبـدو أنكَ في مزاج جيـد وقـد وجـدت تسليـة ، دعني أذهب .

- لا تذهب ، كنتُ أمازحك ، الأمر بسيط ، تكلم معها!

- وهل وجدتها لأتكلم معها ، أنا لا أجدها في غير الحافلة!

- ليس أمـامك سوى انتظار الفرصـة للتحـدث إليهـا ، غدًا يوم جديد ، حاول أن تستغل الفرصة حين تأتيكَ ، ثلاثة أشهر وأنتَ تحادثها دون أن تتقدم خطوة واحدة! أنتَ أبلد عاشق رأيته في حياتي يا صديقي!

- ليـتك تتوقف عن وصـفي بكلمة «عـاشق» هذه ، مـا زال الأمر مبكرًا على هذا!

- صـحيـح ، أمثـالك يدخلون الجـامعـات بعـقليـة أطفـال الروضة!

- دعنـي أذهب قـبل أن أتحـول لسـهـام أخـرى ، قـدراتك الاستفزازية لا تُحتمل!

- لا شكر على واجب .

- سأشكرك بعد أن أقف على النتائج ، طابت ليلتك .

غادرتُ بمشاعر لا تشبه تلك التي جئتُ بها ، شعرتُ أني كنتُ في عتمة شديدة ، وكنتُ أتخبط على غير هدى ، حتى وضع محـمـد أمـامي كل الأجـوبة التي جعلت الأحـداث أكثـر

قابلية للفهم ، الشعور الذي كان يملأني بالغضب كل تلك الأيام كان شوقًا مجهول الهوية ، يحاول التعبير عن ذاته بكل الطرق الممكنة ، ولكني كنتُ أميًّا تمامًا في ما يتعلق بالمشاعر ، ولا أعرف ما الذي جعلني أستبعدُ أن أحبكِ أو تحبينني!

ربما لأني كنتُ أتصور أن الحبَّ يحدث مع كثير من الارتباك والتكلّف والضجة الشعورية ، أو ربما كل ما في الأمر أني لم أكن أعرف الحبَّ ، لكني لم أتصور أن يحدث الحبّ بهذه الطريقة الهادئة الصامتة ، بينما نحن في غفلة تامة عنه!

كانت ليلة صعبة حقًا ، ظننتُ أن الشمس تتأخر في الشروق متعمدة لتزيد من معاناة الانتظار التي تمنع النوم عني ، لم أستطع النوم أبدًا ، رغم شدة التعب التي شعرتُ بها ، شيء في داخلي كان يزلزله القلق من فكرة عدم رؤيتكِ مجددًا!

ماذا لو تركت الحافلة نهائيًا؟

هل تفعلها يا ترى؟

سأذهب إلى المصرف الذي تعملين فيه ، فأنا أعرف عنوانه على أي حال ، ولكن هل أنا مهتم إلى هذا الحد بإصلاح الأمور بيني وبينكِ؟!

لو لم أكن مهتمًا ، هل كنتُ لأفكر بهذا القدر؟

صعدتُ الحافلة بعجلة غير معتادة ، كنتُ أنتظر بلهفة أن يحين وقتُ صعودكِ ، كان يعجبني أن أتأمل وجهكِ من بين وجوه الركاب ، ثم أخيرًا أتيتِ ، وجلستِ . . . وبدا وجهكِ كأوّل

مرة رأيته فيـها ، متكئًا على النافذة ، مستغرقًا في تأمل المنظر خارجًا ، ولكن المقعد المجاور لكِ كان مشغولاً .

ماذا سأفعل ، هل أملك الشجاعة الكافية الآن لأخطو باتجاهكِ!

لم أنتظر الجواب بل تقدمتُ دون مزيد من التفكير وأنا أقول للمرأة الجالسة بجواركِ : عفوًا . . هل يمكنني أن أطلب منكِ الانتقال لمقعد آخر ، هناك ما أود الحديث بشأنه مع المرأة بجواركِ!

التفتِ إليّ حين سمعت صوتي وحديثي ، كانت تبدو عليكِ الدهشة أكثر من أي تعبير آخر ، وأجابت المرأة طلبي دون تردد ، فجلستُ وأنا أنظر باتجاهك دون أن أعرف ما عليّ قوله ، غير أني كنتُ قبل حديثي مع محمد أرغب فقط في سؤالك : لماذا تفعلين هذا؟

أما الآن فأنا أعرف أن هذا السؤال سيكون أكثر الأسئلة حماقة على وجه الأرض!

قلتُ بهدوء : لقد افتقدتُ أحاديثنا .

ابتسمتِ وقلتِ : وأنا أيضًا!

قلتُ وأنا أحاول أن أبدد تلك الهالة من التوتر المحيطة بنا : هل أنتِ بخير؟ لم تذهبي للعمل قبل الأمس!

- كنتُ متعبة قليلاً ، لكني الآن بخير . . .

- يسعدني أنك بخير!

- شكرًا لك ، ما أخبارك ، هل كان امتحانك جيدًا؟
- أجل كان جيدًا!
- ماذا عن منال ، أرجو أنها على ما يرام!

كانت ابتسامتك تشبه ابتسامة من ينصب فخًا ، لكني قررتُ ألا أقع فيه فأجبتُ :

- هذا ما تبدو عليه من بعيد!

أطلقتِ ضحكتكِ المعتادة ، تلك التي كنتُ فعلاً مشتاقًا لها ، غمرني شعور غريب بالراحة في تلك اللحظة ، أو ربما شعور بالسعادة ، كنتُ أراقبُ ضحكتكِ التي جعلت وجهكِ أشبه بوردة للتو تفتحت ، مليئة بالحياة والجمال ، ثم قلتُ لكِ بعد ذلك : أريد أن أتواصل معكِ خارج هذه الحافلة ، هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك؟

في تلك اللحظة عاد لملامحك شيء من التجهم ، أو هكذا بدا لي ، فكرتُ في التراجع عن طلبي ، خوفًا من إحراجكِ ، ولكنك قلتِ قبل أن أفعل : حسنًا ، ولكن لا يمكنني محادثتك دائمًا ، أنا لا أعيش وحدي ، وقد لا أكون متاحة في أغلب الأوقات .

- لستُ شخصًا لجوجًا ، أنا فقط أحتاج الوصول إليكِ حين لا أجدكِ على الحافلة ، لن أزعجكِ من دون ضرورة .
- لم أقصد ذلك ، فقط أشرح لكَ الوضع .
- فهمت!

أمليتني أرقام الهاتف ، وكذلك فعلتُ ، ثم تفرقنا كلٌّ إلى عمله .

كان محمد بانتظاري عند مدخل الجامعة ، لم يكن من عادته إبداء هذا الحماس الشديد لرؤيتي ، غير أن هذا النوع من القصص يبقيه على حماس دائم ، ويثير به فضولاً شديدًا ، مع العلم أن محمدًا لم يعش أي مشاعر جادة مع أي امرأة حتى الآن ، وهذا ما يجعلني أشك دائمًا في جدوى نصائحه وأرائه بهذا الشأن ، فهو يظن أن كل شيء يمكن حله ببيتين من الشعر ، وأن أكثر القلوب مناعة يمكن فتحها بعبارة غزلية متقنة الكلمات ، الأمر الذي لا أوافقه عليه ، فالكلام مهما بلغ من الجمال يظل بلا معنى ما لم يصدر عن مشاعر صادقة ، صحيح أن الكلمات الجميلة تحسن اقتناص القلوب ، ولكن الاحتفاظ بها يتطلب ما هو أبعد من ذلك بالتأكيد ، على أي حال جميعنا نحسن النصيحة والإدراك ، حين لا يتعلق الأمر بنا ، ربما لهذا كانت تجارب محمد فاشلة ونصائحه ناجحة!

اقترب مني محييًا وهو يقول : أهلاً يا روميو ، ما الأخبار لديك!

- صباح الخير يا محمد ، ماذا حدث في العالم لأجدك في استقبالي بدلاً من إكمال نومك على أحد مقاعد الدراسة؟

- وجدتُ ما هو ألذ من النوم؟

- وما هذا الذي وجدته ، أتحفنا!

- سيرة العشاق!

- بالله عليك ، توقف عن ترديد مثل هذا الكلام ، ستجعل مني سيرة على الألسن فعلاً .

- حسنًا ، هاتِ الأخبار ، ماذا فعلت؟

- أصلحتُ ما أَفسدته ، وأظن أننا على ما يرام الآن!

- وماذا بعد!

- ماذا تريد أن تسمع أكثر ، هذا كل شيء!

- أعـتـقـد أنك أسـوأ شـخص عـرفـتـه في الحـديث عن العاطفة ، أرجو أن يكون الله في عون هذه المرأة التي وقعتَ في قلبها .

- كفاكَ ثرثرة ، ستبدأ المحاضرة بعد دقائق ، امضِ بنا .

دعكِ من هذا الآن ، وتعالي أرجعُ بكِ إلى الحافلة . . .

لعلكِ سبقَ وسمِعتنا نحن الذين نستقلها قبلكِ نرددُ اسم العم أحمد!

لا أعرفُ لماذا أجد في صدري رغبة ملحاحة في أن أحكي لكِ عنه!

ألأنَّ قصته غريبة ، أو لأني أفتقده مذ كفَّ عن مرافقتنا ، لستُ أدري ، كلُّ ما أعرفه أني سأستسلمُ لرغبتي في الحديث عنه ، وعليكِ أن تقرئي ، ليس لكِ خيارٌ آخر ، هذه الكلمات آخر ما تبقى منا ، وهي قليلة مهما كثرت ، مرهقٌ هو الوداع يا وعد ، مرهقٌ حين يأتي على شكل ورقة نعي ، ولستُ أدري حقيقةً من أنعي! ولكن الشيء المؤكد أنّ شيئاً مني سيبقى فيكِ إلى الأبد ، وشيئاً منكِ سيبقى فيَّ إلى الأبد ، إن الحُبَّ لا يسمح لنا بهذا الترف الذي يسمونه النسيان!

أطلَّ من باب الحافلة شيخ في منتصف الستين ، كانت عكازه قد سبقته إليها!

نظارة سوداء تحجب عينيه ، لا يرتديها بترف الحماية من الشمس ، بل يضعها كما لو كان يضع لافتة تقول : هاتان العينان لم تعودا تصلحان للرؤية!

ولعل هذا أول سؤال يتبادر إلى ذهنكِ عندما ترين كفيفًا يضع نظارة سوداء لا يحتاجها فهي لا تحدث فرقاً بالنسبة له ، ولكن الأمر ليس كما يبدو فالأعمى حين يحجب عينيه عنكِ فإنه يحجب أحد أدوات التعبير البشرية التي لم تعد صالحة للتعبير ، فلا يود شخص أن تُفسَّرَ نظرة لا يملكها بتفسير غير موجود ، فالذي ابيضتْ عيناه ليس بالضرورة أنها ابيضت من الحزن ، والتي تبدو لك صحيحة معافاة هي في الحقيقة منطفئة تُغرق صاحبها في ظلام دامس ، ولا يود أحد أن تتحوّل عيناه التي فقد قدرة التحكم بها إلى مصدرٍ لإطلاق الأحكام عليه .

العصا كانت عينًا لذلك الكفيفً الذي كان يستقل الحافلة في خميس كل أسبوع ، كان يتحسس بها طريقه بحذر بالغ ، ما جعل السائق يبادر لإعانته على الصعود ، وإجلاسه على أقرب المقاعد إلى الباب ، شكره الأعمى بصوتٍ وقور ، عميق النبرة ، كأنه قادم من قعر بئر ، ثم اتكأ بذقنه على عصاه كمن يضع رأسه على كتف صديق قديم .

ظلَّ بداخلي فضول يجذبني تجاه هذا الرجل ، ما الذي يفعله هنا ، ولماذا يشق طريقه ويتكبد مثل هذه المشقة وحيدًا ، أليس له عائلة ، أولاد أو إخوة!

قررتُ أن أشبع فضولي هذا سريعًا ، أو في أول فرصة سانحة ، في ثالث خميس استقل فيه هذه الحافلة ، كنت أشقُّ طريقي للجلوس قريبًا منه ، لم يكن يتكلم دون أن يبدأه أحد

بالكلام ، كـان يبـقى صـامـتًـا ، ليس ذلك الصـمت الخـجـول المنطوي ، بل ذلك الصمت الذي يخبرك مظهر صاحبه أنه غارق في عوالمه الداخليه ، مكتفٍ بذاته ، غير مكترثٍ بفوضى العالم من حوله .

وضـعـتُ يدي على ذراعـه إشـارة لتنبـيـهـه إلى وجـودي بجواره ، ثم سألته وقد التفت : ما اسمك يا عم؟

أجابني بعد برهة صمت : اسمي أحمد .

- أهلاً بك يا عم أحمد ، أنا كريم ، طالب جامعي .

- مـرحـبًا يا بني ، أنتم جيل مـحظوظ حيث تتيـسر لكم سبل العلم وطرقه ، في زماني كان العلم صعباً كلقمة العيش ، لم يكن لي حظ من التعلم إلا تعلم القراءة والكتابة وذلك كان أقصى ما لدينا في ذلك الوقت . . .

أدهشني حقًا أنه يجيد القراءة والكتابة ، فذلك يعني أن فقدان بصره لم يكن منذ الولادة ، بل كان مبصرًا فيما سبق ، وإلا فكيف سيتعلم القراءة والكتابة بإمكانيات العصر الذي يقول فيه أن العلم كان مستعصيًا ، وهذا ما زادني فضولاً لأعرف أي نوع من الحكايا تخبئها هاتان العينان المنطفئتان كسراج قضى الليل كله ينفق عمره ليدحر الظلام ، لذلك سألته بشكل غير مباشر :

- هل كنتَ تقرأ كثيرًا في السابق؟

ضحك من سذاجة السؤال الذي طرحته وقال :

– لم أكن أقرأ ، لم أحب القراءة يوماً لقد كنتُ صبيًا شقيًا يحب الأرض والزرع ، ذهبتُ إلى الكُتّاب بأمر من أبي ، فقد كان لي أب بقسوة الصخر ، لا يلين ولا يغير رأيًا أدلى به ، كان يقول الكلمة مرةً واحدة فإن لم تُسمع ترك العصيّ تنوب عنه في القول! كنا تسعة من البنين ، لا بنات له ، وكانت أمنا تنجب طفلاً كل عام ، لا تأخذ قسطًا من الراحة ، وكأنها جاءت لتمنح الأرض مزيدًا من الحياة ، وما كانت لتتوقف لولا أن أبي قرر أن يوقفها!

ازددتُ شغفاً بحديثه فاستحثيته دون شعور مني حين صمت قائلاً :

– ألم يكن والدك يرغب بالمزيد من الأبناء؟

– كان يرغب بكثرة النسل ، فقديمًا كان الرجل يباهي بكثرة عياله كما يباهي بكثرة أمواله ، ولكنه امتنع عنها لغضبة غضبها منها ، فقد كان كما أخبرتك رجلاً لا يحب أن تُكسر له كلمة ، أو يسقط قوله أرضًا ، وطوال زواجهما ما كانت أمي تقول كلمة بعد كلمته ، أو تخالف رأيًا رآه ، والأهم من ذلك أن صوتها ما كان يعلو على صوته ، ولكنها ذات يوم ، وكان ذلك بعد إنجابها لي ببضعة أيام ، قد علا صوتها على صوت أبي للمرة الأولى قائلة له إثر حديث دار في مجالس النساء عن شؤون غرام بين أبي وامرأة أخرى ، فقالت له : أتشغلني بالأولاد لتتفرغ للنساء ، كانت الحدة في نبرتها كافية ليرد عليها قائلاً : أترين هذا

الطفل؟ إن هذا هو آخر ولد تنجبينه لي ، وكان كذلك ، فلم يقربها حتى مات!

كنتُ مأخوذًا بطريقته في سرد الأحداث ، عمق صوته وهدوء ملامحه يجعلني أعيش أحداث حكايته الموغلة في الغرابة والتي تبدو لي أشبه بأسطورة أبطالها من نسج الخيال ، ولكن ثبات صوته كان يجعل الأحاديث حقيقية كما لو أنها تحدث أمامي لا تُروى على مسمعي ، أجبته متفاعلاً مع الحدث الأخير الذي وقف عنده :

- أليس في هذا قسوة على أمك ، ألم يكن من حقها أن تغار وتسأل إذ تغار؟

ضحك بعطف وقال : كانت تعرفه أكثر مما تعرف نفسها ، ولم تكن امرأة مندفعة على كل حال ، فحكمتها كانت تلائم قسوته ، ولكنها تخلت عن حكمتها تلك لسبب ما ، غير أن ذلك الرجل كان كبرياؤه حكاية تروى ، لا أحد قد نال منه طيلة حياته ، كان يقول ما يفعل ، ويفعل ما يقول ، واضح كخط مستقيم ، لا يعرف الخوف أو التردد ، لو أراد امرأة أخرى لأخذ ما يريد ، لو أراد ألف امرأة لقال أريد ألف امرأة ومضى في قوله ، وأمي كانت أدرى الناس به ، أبي لم يكن رجلاً يخالس النساء النظر أو اللقاء ، كان يأنف ذلك ، وكان يملك قدرة الحصول لو أراد ، ولذلك كان يفترض أن وضوحه التام وصراحته الجلية تقيه من التهم وسوء الظن ، وحين جاء ذلك من امرأته التي عاش

معها ما يكفي لتعرف ما قد يفعل وما لا يفعل تصرف معها كما يرى أنه يليق بما فعلت .

– إذًا فقد كنت أصغر إخوتك؟

– هذا صحيح ، كنتُ أصغرهم سنًا وأكبرهم جسمًا وطولاً ، كان جسدي يفوق عمري ، فلم يكن أحد يراني إلا ويظن أني أكبرهم لا أصغرهم ، رغم أنهم جميعًا كانوا جِسامًا طِوالاً ، ولكني كنتُ ضخم الجثة قوي البنية ، فارع الطول ، وكان حبّ الأرض قد شغف قلبي ، كنتُ أقضي ليلي ونهاري في قطعة أرض كانت لأبي ، لم أكن قد بلغتُ الثامنة من عمري حين بدأتُ بالتردد عليها بصحبة أبي حينًا ووحدي في أحايين كثيرة ، ولما رأى أبي شغفي هذا أوكل لي مهمة زراعتها وحصادها شرط أن آخذ حصتي من التعليم كسائر إخوتي ، كنتُ أعود من الكتّاب إلى الأرض ، دون أن أعرّج على البيت ، مما أزعج أمي كثيرًا ، ولكنها استسلمت في نهاية المطاف فلم أكن أقل عنادًا من أبي ، كنتُ أفترش الأرض وألتحف السماء ، أتفقد سنابل القمح كما يتفقد المرء أحبابه ، وكنت أضع «خيال المآتة» في قسم من الأرض ليحفظ لنا السنابل من الطير ، بينما أترك قسمًا آخر إذعانًا لوصية أبي حين قال : لا تنسَ نصيب الطير من القمح ، فهم شركاؤنا في هذه الأرض ، كنتُ أظن أني سأقضي حياتي بأكملها فلاحًا لشدة شغفي بتلك الحرفة ، حتى ذلك اليوم الذي خُطفت فيه عيناي!

- خُطفت؟ كيف ذلك!

- كنتُ في الخامسة عشرة من عمري ، نائمًا كعادتي في الأرض ، وحين استيقظتُ فزعًا على خطوات ضخمة هزت الأرض من تحتي ، فتحتُ عينيَّ فلم أرَ شيئًا لشدة العتمة ، قلتُ هذه ليلة من أشد الليالي ظلمة ، انسحبت من السماء النجوم ولا قمر ، ثم حاولت العودة إلى نومي غير أني لم أستطع رقادًا ، فمضيتُ أتحسس طريقي علّي أهتدي لما أشعل به نارًا أستضيء بها ، ولكن الظلمة كانت شديدة ، فلزمتُ مكاني بانتظار انبلاج الفجر الذي لم ينبلج حتى اللحظة!

أردته أن يكمل ولكن كان وقع كلماته عليّ قد أدى إلى إخراسي ، تخيلتُ لحظة اليأس التي اعترته حين تساوى لديه فتح عينيه أو إغماضهما ، اللحظة التي تصبح فيها غير معني بأضواء الكون بأسره ، لا تعرف عن وجود الشمس إلا حين تشتد فيلسع حرها جلدك ، ولا تعرف عن اكتمال القمر إلا الأعراض النفسية التي يشاع أنها تأتي مصاحبة له ، شيء يشبه أن تغرق في بحر من العتمة ، وأنت لا تجيد السباحة ، لا أدري أيهما أسوأ ، أن تفقد قدرتك على الرؤية أو أن لا تملكها من الأساس!

لم ينتظر سؤالي بل استرسل قائلاً :

- لا أدري كم بقيتُ على حالي تلك ، ظانًا أن العمى هو مجرد ليل طويل ، لكنني عرفتُ أن الليل قد دخل إلى عيني

حين جاء إخوتي بحثًا عني إذ تغيبتُ عن الكُتّاب وأنا أنتظر الفجر ، بعضهم كان يسألني عن سبب غيابي ، وبعضهم الآخر كان يخبرني أن أبي سيقتلني ، وبعضهم كان يخبرني عن أحداث اليوم مع المعلم التي لا تخلو من شغب ، كنتُ أشعر بالتيه الشديد ، لذلك التزمتُ الصمت ، أي كتّاب هذا الذي يتحدثون عنه ، في منتصف الليل! كان أخي الأكبر حسن أول من أدرك صمتي وحالتي غير الطبيعية ، فأسكت الأصوات التي تتداخل في رأسي بشكل يشل قدرتي على الفهم ثم سألني : هل أنتَ بخير يا أحمد؟

فقلتُ له : هل طلعت الشمس؟

فأجابني : لقد أصبحت في كبد السماء! ألا ترى؟

قلتُ : لا أرى ، لا أرى شيئًا!

عندها عادت أصوات إخوتي تتداخل في رأسي ، بعضها مندهشة ، بعضها مستفهمة ، وبعضها حزينة

أمسك حسن يدي بإحدى يديه وأسند بالأخرى ظهري ثم قادني للمنزل .

استقبل أبي الخبر بجموده المعتاد ، أو ما يبديه عادة من جمود ، أمي بدأت الولولة والنياحة كما تفعل عادة حين يموت أحد الأقارب ، اجتمع رجال العائلة كبيرهم وصغيرهم ، ليبحثوا عن بصري الذي اختطف!

توالت التفسيرات لهذا الأمر ، غير أنهم أجمعوا أمرهم

وقرروا أن الجن قد خطفت بصري لأني زاحمتها في مساكنها ، فالأرض الخالية معمورة بهم على حدّ تعبير كبير العائلة ، وقد استعمرتُ تلك الأرض ولم أترك لهم خيارًا آخر سوى أن يحجبوا عني الرؤية علّي أنصرف عنهم ليعيشوا بسلام ، كان هذا هو التفسير المنطقي الوحيد بالنسبة لهم ، وهكذا فقدتُ بصري ضريبة للأرض التي أحببتها والتي لم أستطع رؤيتها مرة أخرى ، ولا حتى أن أشم رائحتها ، فلم يعد بوسعي الذهاب إليها ، وقد هجرها الجميع بحجة أنها أرض ملعونة كل من دخلها خُطف بصره ، تحولت تلك الحادثة إلى أسطورة تُحكى ، حتى الطير الذي لم يكن يغادرها هجرها أيضًا ، واكتسبتُ لقبًا جعل الناس تنسى اسمي ، فقد صار الجميع يناديني بـ «الأعمى» .

أبديتُ دهشتي لهذا التفسير الغريب بسؤالي الذي جاء دون تفكير :

- وهل صدقت أنتَ ذلك؟

ضحك ضحكة فاترة وقال :

- لم يكن لديّ تفسير آخر يدحض ذلك ، غير أني لم أفهم دوافع الجن في سرقة بصري ، فأنا لم أرهم أبدًا ، وعلى فرض أن وجودي سبَّبَ لهم كل ذلك الانزعاج ليجعلوا حياتي سوداء هكذا ، ألم يكن أجدر بهم أن يخطفوا صوتي مثلاً فهو أكثر قدرة على زعزعة هدوئهم ، أو قدميَّ اللتين جلبتاني إليهم .

قلتُ له : ليس للجن يد في هذا يا عم أحمد ، إن لهذا الأمر تفسير طبي بالتأكيد ، ألم تفكر يومًا في زيارة طبيب لاستشارته؟

– لم أرَ طبيبًا من قبل ، لم يكن للطب في ذلك الوقت أي وجود في حياتنا ، كان لدينا عطار يصف بعض الأعشاب للعلل المعروفة ، ولكنه لم يعرف وصفة تعيد البصر أبدًا .

– وكيف عشت حياتكَ بعد هذه الحادثة؟

– في البداية لزمتُ الدار ، لم يكن بوسعي الخروج دون أن أتعثر ، وهكذا انزويتُ في الدار مع أمي ، فقدتُ شهيتي تماماً إثر الحادثة ، فبدأ جسدي الضخم بالذبول ، كانت أمي تردد على سمعي كلما وضعت لي طعاماً : الطريق إلى فمك لا تحتاج إلى بصر ، كل ليشتد عودك ، واخرج لتعتاد قدماك على الطريق . كانت تفرض على إخوتي إخراجي قسرًا كي تضرب الشمس عينيَّ على حد تعبيرها فيعود النور إليهما ، ولكني كنتُ عنيدًا في ما لا أريد كعنادي في ما أريد ، وكانت هي أشد عنادًا مني ، فلم تهدأ حتى أخرجتني من قوقعتي ، في أول الأمر أقنعت الشيخ بأن أكون مؤذنًا للقرية ، ثم أقنعتني بأن أقوم بالأمر ، أو لنقل أجبرتني ، فكانت تأخذني بنفسها من يدي إلى باب المسجد ، وكنتُ أجدها تمسكني من يدي فور انتهاء الصلاة ، لا أعرف إن كانت تقف بانتظاري ، أو تعود على الوقت دون أن تحيد يومًا ، بعد وقت لا بأس به من الذهاب والإياب ، وجدت لي سبيلاً لتدفعني للاعتماد على نفسي ، فربطت حبلاً

من باب الدار إلى باب المسجد ، وقالت لي : هذا سيدلك ، أمسكه فقط وتتبع مساره ستصل إلى المسجد ، ليس لأني تعبت منك ، ولكني لا أضمن عمري ، ولا أحب أن تتوه بعدي ، كانت قد نذرت نفسها لي منذ فقدتُ بصري ، فقد مات أبي بعد ثلاثة أعوام من الحادثة ، وتولت أمي رعايتي ، وما أن بلغتُ العشرين من عمري حتى بدأت تبحث لي عن زوجة لتطمئن بعد أن يُغمض الموت عينيها على حد تعبيرها ، ولكن تلك المهمة كانت الجزء الأصعب من مهامها ، فقد تعذر عليها أن تجد امرأة تقبل أن تتزوج رجلاً ترعاه بدلاً من أن يرعاها ، أي امرأة ستقبل الزواج من رجل لا يستطيع رؤيتها أو الاهتمام بها ، كنتُ أقول لها كل مرة إني لا أرغب بالزواج ، فأنا غير قادر على الاهتداء إلى طريقي فكيف أقحم حياة امرأة لا ذنب لها في هذه العتمة ، فكان جوابها دائمًا : ستجد المرأة التي تكون لكَ نورًا ، وعونًا ، كانت هكذا دائمًا ، تتكلم بثقة توحي لكَ أنها تعلم كل شيء ، لم أسمع يومًا في نبرة صوتها يأسًا أو قنوطًا ، ولكن حتى تلك العزيمة لم تتمكن من اقناع امرأة ما بقضاء حياتها مع أعمى ، إلى أن جاء ذلك اليوم!

وصمت طويلاً وهو متكئ على عكازه ، حتى ظننتُ أنه لن يقول شيئًا بعد ، وقبل أن أستحثه قال :

– جاءت إلى الحي شمعة وابنتها ، شمعة ابنة جارنا التي تزوجت رجلاً غريبًا رحل بها إلى ديار بعيدة ، ثم انقطعت

أخبارها ، كانت في الرابعة عشر حين تزوجت ، ولم يعرف أحد عنها شيئًا لأربعة أعوام ، كانت وحيدة أمها ، التي ماتت قبل عام واحد ، رغم أنها لم تكن تشكو علة ، غير أنها ماتت من فرط الوحدة على الأرجح ، فبعد أن تزوجت ابنتها بعدة أشهر فارق زوجها الحياة ، كان مسنًا جدًا ، فقد تزوج أمها وهو في الستين بينما كانت لا تزال في العشرين ، حين عادت شمعة إلى الدار أرملة في سن مبكرة كأمها ، لم تجد أحدًا سوى الصمت ، ولكنها كانت تقول الذكريات تدفئ البيوت ، تجعلها آهلة بوجوه من عشنا فيها معهم وإن رحلوا ، لكنها لم تبق وحدها بين ذكريات الراحلين ، فحالما أدركت أمي وجود أحد في بيت الجيران أسرعت لتفقده والترحيب به ، كان هذا بمثابة العُرف بيننا ، حين يُفتح باب الجار يجتمع الجيران للترحيب به ومساعدته إن كان بحاجة لذلك ، وكانت شمعة مع الوقت تدخل قلب أمي وتملأه حبًا ، فلم تمضِ فترة وجيزة على عودتها حتى أصبحتا لصيقتين ببعضهما ، تعدّان معًا الخبز في التنور ، وتطحنان القمح معًا قبل ذلك ، تساعدان بعضهما في أعمال المنزل ، كأن أمي وجدت في شمعة البنت التي لم تستطع إنجابها ، وأملت أيضًا أن تقبل بي زوجًا ، ولكن الغريب أنها لم تُفاتحها في الأمر أبدًا ، وحتى أنها أقفلت سيرة زواجي نهائيًا ، وفجأة توقفت تمامًا عن ترديد عبارة «من بعدي» التي لا تتحدث معي دون أن تقحمها في حديثها ، كنت الابن الوحيد الذي

ظل معها في الدار ، فقد تفرق إخوتي في الأرض بحثًا عن أرزاقهم ، بينما انحصرت حياتي في الطريق من الدار إلى المسجد والعكس ، حتى سمعتُ صوتها للمرة الأولى ، تنادي : مريم ، الصغيرة التي عرفتُ لاحقًا أنها طفلتها البالغة من العمر عامين ونصف العام ، كان أول ما عرفته فيها هو صوتها ، هادئ كجدول ماء رقراق ، تتحدث وكأنها تُحاذر أن تعلو نبرتها فتُفسد هذا الاتزان البديع في الحروف الخارجة من بين شفتيها ، بنعومة مدهشة يتحول اسم ابنتها من مجموعة حروف إلى شال حريري يلامس سمع من يمر به ، فتنني صوتها ، وهذه كانت فتنتي الأولى منذ فقدتُ بصري ، فقد فقدتُ معه رغباتي كلها ، حتى ظننتُ أنني لن استعيدها أبدًا ، ثم جاءت هي وتغيرت الأشياء والظنون وبُعثت الآمال من مرقدها .

صوته الذي أصبح الآن أشد عمقًا كان يكفي لأدرك أثر هذه المرأة في قلبه ، كان يبدو أنه بحاجة للكلام عنها ، لنفسه قبل أن يكون لي ، أو لأي شخص آخر يعرض عليه الاستماع لحكايته ، تنفس الصعداء ثم استطرد :

عام كامل مرّ كنتُ فيه أعيش على صوت شمعة ، ورائحتها ، وشغب طفلتها الصغيرة في أرجاء الدار ، كان حضورها قد غيّرني ، لم أعد منزويًا ومنقطعًا عن الحياة ، بدأت استعملُ العكاز وأتدرب على المشي خارج الطريق الذي اعتدته ، لم يعد يخيفني أن أضل طريقي أو أتعثر ، اكتسبتُ شجاعة

وأملاً ورغبة في الإقدام ، كثيرًا ما سمعتُ تعليقات الشفقة الصادرة عن من حولي حين أتعثر وأسقط ، وكثيرًا ما أظل خارج البيت لساعات تائهًا لا أعرف طريق العودة ، لكنني كنتُ عازمًا على التغلب على تلك العتمة التي تحيط بي ومعرفة أكبر قدر مما يمكنني معرفته عن هذه الحياة التي وجدتني فيها فجأة ، ربما لأتصالح مع غياب بصري ، وربما أردتُ أن أبدو قويًا في نظر شمعة ، أردتها أن تُعجب بي لأني معجب بها ، لقد كانت هي كل أسبابي للنهوض ، كانت سعادة أمي غامرة حين رأت همتي تلك في التغلب على ما يعيق حياتي ، ولم يغب عنها دور شمعة في هذا التغير المفاجئ الذي طرأ عليّ ، ولكنها استمرت على صمتها ، لقد فهمتُ لاحقًا أنها كانت تنتظر المبادرة مني ، ولكني لم أبادر أبدًا ، خشيتُ أن ترفضني ، أن أفقد أملي بها ، وأفقد ما يربطني بالحياة معها ، فانتظرتُ حتى يشتد عودي ، وأكتسب ثقة تؤهلني للتقدم نحوها ، كانت علاقتي مع طفلتها قوية وجميلة ، كانت تحبني كثيرًا ، فقد كنتُ أستمتع حقًا بالحديث واللعب معها ، إضافة إلى أني أجد أن هذه طريقة لكسب قلب أمها ، وهذا ما حدث في نهاية المطاف .

سألته بلهفة :

– هل تزوجتها؟

قال ضاحكًا : كنتُ عنيدًا بما يكفي لأفعل ، لا يوجد رجل عاقل يترك امرأة كهذه تُفلتُ من يده ، ولكني احتجتُ ثلاثة

أعوام لأستجمع شجاعتي وأطلب منها أن تتزوجني ، كانت تأتيني بالطعام أحيانًا حين تنشغل أمي ، تقول بكل لطف : هذا طعامك يا أحمد ، وأنتِ يا مريم تعالي لتأكلي ، فكانت مريم تصر دائمًا قائلة : سآكل مع الأعمى!

وكل مرة كانت تنبهها قائلة : عيب أن تقولي له هذا الكلام ، وتعتذر

فأضحك قائلاً : دعيها تناديني بما تحب ، قلوب الأطفال ككلماتهم لا تعرف الكذب ، ولكنها دائماً تعتذر!

ذات يوم قلتُ لها : لدي اقتراح لتسوية هذه المسألة ، هل تسمعينه؟

قالت : نعم

فقلت : لو تتزوجيني فتناديني مريم بابا بدلاً من الأعمى؟

لم تقل شيئًا ، ولم أعرف ما كان شكل التعبير على وجهها ، وكانت تلك هي أكثر المرات التي كرهتُ فيها عدم قدرتي على الرؤية .

في اليوم التالي جاءت أمي إليّ وقالت : لقد وافقت!

يومها وهبتني أمي الحياة مرة أخرى ، وكأنها أنجبتني من جديد

ثم تزوجتها ، كانت شمعتي التي أنارت كل هذه العتمة التي غرقتُ فيها عمرًا ، لم أشعر منذ زواجنا بالحاجة إلى الرؤية ، كانت هي بصري ، تصف لي الأشياء بذلك الصوت

العذب فتبدو لي الرؤية مع وصفها دون أهمية ، كانت عوضًا جميلاً عن كل ما فقدته في الحياة .

أنجبتُ منها طفلاً أول زواجنا ، ولكنه مات قبل أن يتم عامه الأول ، لم أعرف كيف كان يمكنني الصمود أمام هذا الفقد الكبير الذي قصم ظهري للمرة الثانية ولكنها كانت بلسمًا ، رغم أنها كانت أشد حزنًا مني على فقده ، ولكنها لم تبدِ من حزنها لي شيئًا ، كنتُ أحس بنشيجها خفية في بعض الليالي التي تظنني فيها نائمًا ، لكنها كانت صلبة دائمًا لتسندني ، وقوية دائمًا لأجلي ، مات طفلي الثاني قبل أن يرى النور ، فقد أنجبته ميتًا ، تكبدت شمعة عناء حمله وولادته ولكنه فقد الحياة قبل أن يخرج إليها ، كل تلك الخيبات لم تكن لتمر لولا وجود شمعة في حياتي ، لم أرزق بطفل من صلبي ، ولكن كان هناك مريم ، طفلتي التي لم أنجبها ، طفلة المرأة التي جعلت لي مكانًا في هذه الحياة بعد أن أيقنتُ أني نُفيت منها .

أربعون عامًا عشتها معها ، لم أنم ليلة وفي قلبي عتب عليها ، لم أجد منها قولاً يكدرني ولا فعلاً يثير السخط في صدري ، كانت لي نورًا ، وسرورًا ، حتى أطفأتْ هذا العالم مرة أخرى في عيني ورحلت منذ عام ، والآن بقي لي من أثرها مريم التي تزوجت وانتقلت لمدينة أخرى ، لهذا أذهب كل خميس لزيارتها ، والاطمئنان على أحوالها ، والأنس بها بعد أن أوحشت الدنيا بغياب أمها .

ربتُّ على يده حين طال الصمت بيننا بعد أن أنهى حديثه ، لم يكن هناك ما يقال دون أن يكون مبتذلاً أمام عمق الألم في صوته ، كان أثر الفقد يظهر جليًا على قسماته ، وكأنه صار جزءاً منها .

لم يرَ امرأة سواها ، لأننا حين نحب لا نحتاج لعينين كي نرى ، القلب يكفي ، ووحدها كانت في مجال الرؤية طيلة عمر ، ربما لأن الحياة حين نحاول تجسيدها ستتجسد في رفيق جيد ، وقلب محب ، وكانت هي كل الرفاق له ، وكل الحب في قلبه ، لم يكن حديثه عابرًا ، لقد كان من العمق بحيث جعلني أدرك أن الأعمى هو المنطفئ قلبه ، لا عيناه .

هذه حكاية العم أحمد يا وعد ، طبعاً أنتِ أعقل من أن تُصدّقي أن الجَنّ قد خطفَ بصره ، كلّ ما في الأمر أنه كان يعبثُ بالأسمدة الكيماوية التي يستخدمها المزارعون وهو لا يعرف خطورتها ، فأدى ذلك إلى ذهاب بصره ، فأخفى السبب ، ولا أدري أهو الخوف من بطش أبيه أول الأمر ، أم أنه ببراءة الأطفال أراد أن تُسجّل الحادثة ضد مجهول! وعندما كبر لم يكن من فائدة أن يخبر أحداً بالسبب ، هذا ما أخبرني به ، الاقتراب من الآخرين ، إشعارهم بالطمأنينة تجعلهم يكشفون اللثام عن أشياء لم يكشفوها من قبل! غير أن في قصته ما يُغني عن البحث عن سبب عماه ، كان مثالاً حياً عن الذين يكون الحُب لهم طود نجاة!

لم أتخيل يومًا أني سأتلهف لصعود الحافلة بهذا القدر أبدًا ،
كان كل شيء يتعلق بكِ ،
بالجلوس معكِ ،
بالنظر إليكِ عن قرب ،
بسماع صوتكِ الذي ينساب إلى سمعي كنهر ،
بالضحك معكِ على توافه الأمور ،
كأن كل الأشياء العادية قد اكتسبت الآن قيمة مرتفعة ،
كل شيء لم أكن أوليه اهتمامًا من قبل أصبح الآن يستحوذ على انتباهي ،
إنني أفهم الآن كيف يمكن لعاشقين أن يتفوها بأغبى الكلمات في العالم وهما يشعران أنهما قالا شيئًا عظيمًا ، ذلك أن الأمر لم يكن يومًا يتعلق بالكلمات بل بالمشاعر التي قيلت بها .
أفهم كيف تبدو البلاهة في العشق عبقرية ، كيف نحب بشدة ما كنا نضحك منه في السابق ، كيف نمارس بشغف ما كان محط سخريتنا من قبل في الآخرين ، كيف نجد في أنفسنا طاقة مضاعفة للحياة ، كأننا بُعثنا من قبور رتابتنا اليوم في قيامة الشعور هذه ، إن الحبّ هو بوابة لحياة أخرى ، قلما نخرج منها كما دخلناها أول مرة ، وهكذا دخلتُ تلك المتاهة التي تسمى عينيكِ ، مشدودًا بقوة إلى اكتشاف كل ما يحويه عالمكِ

الداخلي من أسرار ، ذلك الشعور القوي الشغوف الذي وجدته يكبر بسرعة في وجداني ، كما لو كان شرارة وقعت على جبل قش ، يجعلني مدفوعًا إليكِ بكل ما لا أفهمه ، كأني أدركتُ فجأة تلك اللذة الغائبة في أن نُحِبَّ ونُحَب .

لكني لم أكن قادرًا على شرح ما أحسه لكِ ، لا سيما وأنتِ ما زلتِ متشبثة بحذركِ وهدوئكِ معي ، كأنكِ تنتظرين شيئًا مني لا أعرف ما هو ، أو لا أعرف كيف أقدمه لكِ ، ربما كنتِ تنتظرين اعترافًا بحبي ، أو إقرارًا بهزيمتي بالضربة القاضية ، لكني حاولتُ أن أبدأ من مكانٍ ما .

كانت رحلة العودة تحت وقع المطر ، فقد أعلن الشتاء قدومه منذ عدة أيام ، ورغم أني كنتُ أكره الأجواء الباردة في الغالب ، إلا أني شعرتُ أن هذا الجو الماطر ، ووقع القطرات على سقف الحافلة ، واختباء الشمس خلف الغيم الرمادي ، وجدتُ في كل ذلك طقسًا من طقوس الحميمية التي تشجع على خوض بعض الأحاديث العاطفية ، الأمر الذي لم أكن جيدًا فيه أبدًا ، أو أني لم أجد نفسي يومًا مضطرًا لإجادته ، بدأتِ الكلام أنتِ بينما كنتُ غارقًا في قياس الأمور وتحليلها كالعادة :

– هل تحب المطر؟

– ليس كثيرًا ، لا أحب البرد عمومًا ، ولكن لا أكرهه بالمجمل ، يعني أحب منظر الأرض بعد المطر ، تصبح نضرة وضاجة بالحياة .

- هذا صحيح ، أنا أحب المطر نفسه ، أحب الخروج أثناء المطر ، أحب كثيرًا تلك اللحظة التي أكون فيها فريسة لقطراته المجنونة ، وأحب أن أبتل حتى العظم ، رغم كل النتائج السيئة لذلك لاحقًا .

- هذا يليق بكِ .

- ما الذي يليق؟

- الانسياق خلف جنونكِ دون التفكير بالنتائج .

- هذا لا يعجبك غالبًا .

- بل يعجبني!

- لا أصدق ، هذا أكثر ما تمقته ، التهور ، وقلة الاهتمام بالنتائج .

- بشكل عام نعم ، ولكن بشكل خاص يعجبني فيكِ هذا .

- كيف ذلك؟

- لا أعرف ، ولكن أجدني منجذبًا لهذا الجانب فيكِ جدًا ، في الحقيقة أجدني منجذبًا إلى كل جوانبكِ!

ابتسمتِ ثم أطلتِ النظر إليّ ، لدقيقة كاملة دون أن تقولي شيئًا ، كنت أشعر أني أحترق تحت نظرتك تلك ، وكأنها دامت دهرًا ، ثم غضضتِ طرفكِ وقلتِ برقة شديدة ، وصوتٍ أقرب للهمس :

- أحب اعترافك هذا ، لأنه يوافق شيئًا في نفسي .

- إلى أي حد يوافقه؟
- حدّ التطابق!
- لذلك كان غيابكِ ، كنتِ تعاقبيني؟
- لا ، كنتُ أعاقب نفسي على مشاعري هذه ، كنتُ أشعر أن قلبي تجاوز حده حين أشعرني بالغيرة عليك ، ثم كنتُ أظن أني الوحيدة التي تشعر بهذه المشاعر ، وكان يبدو عليك أنك لا تعلم عن مشاعري ناهيك عن كونك تحمل لي أي شعور .
- أنا حقًا لم أكن أعلم شيئًا ، لا عن مشاعرك ولا مشاعري ، صدقيني يا وعد أني لم أكن أبدًا أتعمد أن أظهر اللامبالاة ، أو أن أسبب لكِ أي شعور سيئ .
- الغيرة بحد ذاتها ليست بالشعور السيئ ، ولكن كونك لا تراني ، وكون مشاعري لا تعنيك هو بالتأكيد أمر سيئ .
- كلك تعنيني .
- لم أكن أعلم .
- ولا أنا .
- وكيف علمت؟
- غيابك أخبرني!
- بماذا أخبرك؟
- بأنك بينما كنتِ تشغليني بالأحاديث ، كنتِ تتسللين إلى قلبي ، عطركِ كان يمتزج بأنفاسي كل صباح حتى أدمنت رائحتكِ ، ثم اكتشفتُ حين غبتِ أن التنفس الذي كان يحدث

بتلقائية أصبح أصعب مهمة على وجه الأرض ، كدتُ أختنق .
كنتُ أحاول الهرب من مشاعري ، فوجدتها في الغياب أشد وضوحًا وأعظم أثرًا ، لقد كنتُ أفكر بك في كل دقيقة دون أن أتمكن من إيقاف شعوري الفظيع بالاشتياق إليكِ ، كنت أشعر أني في ورطة حقيقية!

– ورطة!

– أجل ورطة ، لا يمكنكِ تحمّل العجز الذي يمكن أن تصابي به حين تشتاقين وحدكِ ، وتحبين وحدكِ ، وتتعذبين وحدكِ ، أن تكوني الطرف الوحيد العاشق في علاقة بلا أمل ، إنه شيء أشبه بأن تحملي الكون كله على أكتافكِ بصمت وصبر .

– ولكنها ليست دون أمل ، إنني أحملكَ في قلبي ، أنتَ والكون الذي على كتفيكَ أيضًا ، ولديّ كل الصبر لذلك .

وعند هذا الحد كانت الحافلة قد توقفتْ لتنزلي منها ، هكذا هي اللحظات الجميلة عمرها قصير كالعادة!

قلتُ لكِ يومها : سأنتظر منكِ اتصالاً أو رسالة حين يسنح لكِ وقتكِ ، لا أظن أني قادر على الصبر حتى موعدنا في الحافلة صباح الغد ، لا تتركيني مشتاقًا .

حصلتُ على ابتسامتكِ الحلوة كجواب ، فاكتفيتُ به أنا ، ومضيتِ أنتِ!

لا مناصَ يا وعد من أن نرجع إلى الحافلة مرةً بعد مرّة ، وها أنا أرجعُ بكِ مرةً أخرى ، آخذكِ من يدكِ في جولة سياحية في حياة امرأة عرفناها عن قرب ، إنها «ريحان» ، وهذه هي حكايتها بلسانها كما روتها لي!

أنا الآن في أواخر العقد الرابع من عمري ، لا أعرف تمامًا كيف أشعر ، إذ أن الوقت الطويل الذي قطعته حتى الآن جعلني أعتادُ مشاعري تجاه تلك الغصة الواقفة في حلق حياتي ، أظن أن العادة من أكثر الأمور التي تساهم في تشويهنا من الداخل ، وهي ربما مرهم لبعض الجروح ، ليس شافيًا بالطبع ، ولكنه يُخرس صوت الألم الملحاح ، أو يدفعه عميقًا فينا حتى لا نعود نسمعه بوضوح ، بطبيعة الحال : لقد اعتدتُ .

في الطفولة كنتُ أخاف كثيرًا أن أموت!

ربما لأني لم أكن أفقه جيدًا الحكمة من الموت ، ولم أكن أدرك أن الحياة مراحل كثيرة ، وأن الموت أحدها ، لم أكن أعرف من الموت سوى أنه فم كبير مظلم يأتي ليبتلع الأشخاص فلا يعود بوسعهم العودة إلينا أو الكلام معنا .

رأيته في المرة الأولى وهو يبتلع أبي ، كان نائمًا جدًا ، إلى تلك الدرجة التي لم توقظه معها صرخات أمي ، ولا حتى دموعي ، رغم أنه كان قد قطع لي وعدًا بأن لا يترك دمعي

يسقط أبدًا ، وأنه سيكون دائمًا قريبًا ليمسحه ، وقد عرفت حينها مقدار قوة الموت ، لقد جعل أبي الذي لا ينكث أيًا من وعوده ، يُخلف وعده للأبد .

وحين سألتُ أمي بعد ذلك : هل ستموتين أنتِ أيضًا؟

أخبرتني أن الأمهات لا يمتن ، وأنهن يبقين خالدات في أجساد أبنائهن ، وإن ذهبن يومًا ، فذلك مجرد غياب جسدي ، أما أرواح الأمهات فإنها تتقسم على أبنائهن وتعيش فيهم ، وكلما أنجب الأبناء تخلدت تلك الأرواح .

كان في حديث أمي ذاك من الطمأنينة ما جعلني أنسى خوفي من الموت ، كنت أشعر كأن صوتها ربَتَ على قلبي ، وأنني الآن أملك سلاحًا فتاكًا ضده ، سأصبح أمًا ، وأصير خالدة!

ربما لم تكن الأمومة بحاجة إلى قرار ، ولا أعرف إن كانت تصلح أن تكون حلمًا ، لأنها لدى أغلب النساء تطور طبيعي ، وحدث تلقائي ، وجزء من المسيرة الحياتية ، وقدر!

حين كبرتُ أدركتُ أن فكرة الخلود لم تكن واردة في دنيانا هذه ، وأن الأمهات حين يمتن لا يبقين خالدات بذلك الشكل الذي صورته لي مخيلتي الطفولية ، لقد استطعت أن أفهم جيدًا ما قالته لي أمي حينها ، وأنها أرادت لي أن أبقيها حيّةً في قلبي ، وأن أخلدها في ذاكرتي ، أن أُبقي اسمها حاضرًا في دعائي وصلواتي ، وأننا بالنسيان وحده نجعل أمواتنا أمواتًا!

فـهـمـتُ كل ذلك ، ولكـنـي مـا زلـتُ أحلم أن أصـيـر أمًـا ، لا لأصبح خالدة ، ولكن لأصبح مأهولة!

وحين بلغتُ الثـانيـة والعـشـرين من عـمـري تزوجتُ ، كـان زواجنا تقليديًا ، وكان زوجي رجلاً فاضلاً ، طيب القلب ، حسن المعشر ، وكـان يبدو لي في معظم الأحيان أنني سعيدة معه ، راضية بالحياة التي لديّ ، كان كل شيء يسير على ما يرام ، غير أني كنتُ أتطلع بشوق للفرد الأول من عائلتي الجديدة .

مرّ عـامنا الأول دون أي دلالات تشير إلى قدومه ، حينها بدأ الهـاجس يكبـر بداخلي : مـاذا لو كنتُ عـاقـرًا ، مـاذا لو كـان زوجي لا ينجب ، ماذا لو كان بيننا خلل ما؟

وبدأنا أول زيارة للأطبـاء ، كنتُ أنا من بادر بطرح الفكـرة ، فكـرة الفـحص والتـأكـد أن كـل شيء على مـا يرام ، ولـم يمانع زوجي ذلك ، إذ أنه أيضًا كان راغبًا في الإنجاب وتكوين عـائلة ، ولكـنه قـال أن الوقت ليس مـتـأخـرًا ، وأنه يمكننا أن ننتظر إن أردتُ ، ربما قال ذلك كي لا يبدي لي قلقه ، أو ربما لـم يكـن قلقًا فعلاً ، ولكـني لـم أكن قادرة على التظاهر بعدم الاهتمام ، لذلك أصررتُ على ذلك ، وذهبنا .

عند غـرفـة انتظار الطبـيبـة النسـائيـة كـان الازدحـام لا يُطاق ، نساء كُثر كنّ ينتظرن ، يبدو على بعضهن متاعب الحمل ، ووهن الشـهـور الأخـيـرة ، وبعـضـهـن الآخـر كـنّ يعـبِّـرن عن قلقـهـن من حدوث حمل لسن مستعدات له ، وأخريات يسألن غيرهن عن

أفضل موانع الحمل ، وهناك الصامتات اللاتي يبدو أنهن يعانين من القلق ذاته الذي لديّ ، لكن الكلام عن ما ينقصنا دائمًا أصعب من التذمر مما لدينا ، لذلك تشاغلتُ بتصفح إحدى النشرات التي تتحدث عن توعية ببعض الأمراض النسائية .

لم تنقضِ لحظات الانتظار قبل أن تتلاعب بهدوء أعصابي ، وتشعرني أن ثمة أشواك على كرسي الانتظار خاصتي ، لكنها انقضت في نهاية المطاف ، ودخلتُ إلى مكتب الطبيبة النسائية ، التي سألتني عن مشكلتي ، فأخبرتها عن تأخر حدوث الحمل لعام ونصف ، فألقت دعابة مفادها أنه لا داعي للعجلة على العناء ، حاولتُ الضحك ولكني كنتُ قلقة حقًا ، لذلك طلبتُ منها أن تجري لي ما يلزم من فحوصات ، لأتأكد من كون المشكلة في الزمان فقط ، وليس المانع منّي ، فأجابت طلبي ، وحين أجرت لي الفحص اللازم أخبرتني أن النتيجة ستستغرق بعض الوقت ، وأن عليَّ العودة في الغد ، وهذا ما قاله الطبيب لزوجي أيضًا .

أمضيتُ ليلة مضنية ، ولم أفهم سر القلق الشديد الذي لديّ إلا في اليوم التالي ، حين ظهرت النتيجة ، حيث كان زوجي سليمًا ، بينما كنتُ أعاني من مشكلة لا علاج لها تقريبًا كما قالت الطبيبة ، ثم أخبرتني أن الطب يتطور وأنها ستجرب معي علاجات قد تؤتي أكلها ولو بعد حين ، وأن عليّ التحلي بالصبر والمثابرة ، لأن هذا الطريق قد يطول ، كانت تُطيل أملي

فقط ، وإطالة الأمل أحيانًا أسوأ ألف مرة من قطعه ، لأن كل خيبة هي موت جديد لقلبك ، وقد اتّبعتُ ذلك الخيط الواهي من الأمل ، لا لأني خُدعتُ بكلام الطبيبة ، وغفلتُ عن كون هذا الحديث جزءاً من مهنتها النبيلة ، بل لأني أردتُ قشة أتعلق بها ، لكوني غير مستعدة للغرق بعد .

قضيتُ وزوجي عشر سنوات ذهابًا وإيابًا للأطباء ، في كل مرة كنتُ أقرأ عن عيادة جديدة ، أو طبيب جديد ، أو علاج جديد ، كنتُ أتوسل إليه أن نجرب للمرة الأخيرة ، وأخبره أن نسبة النجاح أكبر هذه المرة ، وكان الرجل يحاول أن لا يبدي ضجره من لهاثي العقيم خلف سراب الأطباء ، كنتُ أدرك كل مرة أني أنهكته ، وأن عليّ الرضا بقدري وترك الأمر ، لأننا لا يمكن أن نحصل على كل شيء نريده لمجرد أننا نريده ، وأن الحياة فيها أمور أخرى تستحق منا الاهتمام حين لا تفتح لنا الأبواب لنمارس اهتماماتنا الحقيقية ، ولكني كنتُ أفشل في كبح جماح رغبة التجربة لآخر مرة .

في الظاهر لم أكن أبدي شغفي بالانجاب للناس ، كنتُ شخصًا يحمي أسراره وخيباته بحرص شديد ، لأنه لا شيء يقتلني مثل نظرة شفقة من عابر ، أو كلمة مواساة لا أرغب في سماعها من غريب ، حتى زوجي لم أكن أحدثه عن عمق أثر ذلك الحرمان في نفسي ، وكنت أقول له دائمًا أني أجتهد في العلاج لأجله ، لأني لا أرغب في حرمانه من الأطفال ، ولأن

حقه أن يكون أبًا ، ولكنه لا يعلق على الأمر بأكثر من كلمة : لا بأس!

وكنت أحتار كثيرًا في فهم هذا التعبير ، أو هذا الصمت الشديد حيال الأمر ، لم تكن علاقتنا سيئة أبدًا ، لا نتشاجر ، لا نتجادل ، ولا نقوم بما يجعلنا نستاء من بعض ، كأن اتفاقًا صامتًا قد عُقد بيننا ، لا يخالفه أحد منا ، أو لا نشعر بضرورة مخالفته ، فقد كان كلانا شخصين مسالمين لا يرغبان في خوض أية معارك غير تلك التي تدور في الداخل ولا يعلم عنها أحد .

لم نكن صديقين ولا حبيبين ، كنا رفيقين فقط ، كأي شخصين وجدا نفسيهما في طريق واحد فقررا أن يتعاونا على عبوره دون أن يفضي أحدهما بما في نفسه للآخر .

في مثل هذه العلاقات يعتاد المرء على الوحدة الشعورية ، ويعتاد كذلك على الملل ، بالنسبة لي لم أكن أطلب منه أكثر ، كان السلام مطلبًا لي لأن معركتي مع العقم أنهكتني ، ولكن بالنسبة له لم يكن أي شيء واضح لي ، ربما أراد السلام أيضًا ، وربما كانت له معارك لا أعرف عنها شيئًا .

مع الوقت بدأتُ أفتر ، وانطفأت عزيمتي تلك في البحث عن حل ، بل حاولت التكيف مع تلك الفكرة ، كوني لن أكون أمًا أبدًا ، ولكن الحياة لم تتوقف أبدًا عن توجيه ضرباتها إليّ ، وقد جعلت الناس سلاحها هذه المرة .

جارتي التي كانت صديقة قريبة ، ورفيقة طيبة ، تحولت إلى شخص آخر منذ علمت باستحالة قدرتي على الإنجاب ، أو بشكل أدق منذ أنجبت طفلها الأول!

كانت كل يوم تدعوني لفنجان قهوة صباحي ، أو تتناوله عندي لنمارس أثناء شربه بعض الغيبة النسائية المعتادة ، كانت أحاديثها تجلب الأنس لي ، لا سيما في تلك الدائرة الخانقة من الصمت التي أعيش فيها ، كنا نمضي الكثير من الوقت معاً ، بحكم قصر المسافة بين بيتينا ، حتى أننا كثيرًا ما كنا نختصر المسافة بفتح نافذة مطبخي التي تطل على فناء دارها .

في أول الأمر أخفتْ عني نبأ حملها ، حتى أنها كانت تتهرب من زيارتي ، أو تتظاهر بالانشغال حين أزورها ، توقفتُ عن زيارتها حين أدركتُ تباعدها المفاجئ ، ولكني لم أستطع فهم سبب ذلك إلا حين رأيتها خارجة برفقة زوجها وقد برز بطنها وثقلت خطواتها .

آلمني كثيرًا ذلك التصرف ، ولكني عذرتها ، فقد كانت تخشى أن أحسدها على ما حُرمت منه ، وكيف لها أن تعرف أني لم أكن أنظر إلى ما تملك ، بل أنظر إلى ما أفقدُ ، ولم يكن حصولها على طفل من عدمه ليغير واقع أني لن أحصل عليه ، فكيف لي أن أشعر تجاهها بشيء وهي مثلي في حقيقة الأمر ، مجرد شخص عاجز لا حيلة له إلا أن يأخذ ما أعطاه الله ، ويصبر على ما منعه!

ولكن شرح مثل هذا الأمر للناس وفهمهم له يتطلب معجزة ، ولو كنت أملكُ المعجزات لحللتُ معضلتي .

غير أني كنتُ أشعر برغبة في إخبارها ذلك ، لم أستطع كبح جماحها ، لذلك انتظرتُ حتى وضعت مولودها وقمتُ بزيارتها بعد مضي بعض الوقت ، استقبلتني بحفاوة يشوبها بعض التردد ، ولكني بادرتها بالتهنئة وأخبرتها أن لا شيء يدعوها للخوف مني ، فإن العالم مليء بالأطفال ومليء أيضًا بالنساء اللواتي لم يحصلن على أطفال ، ولو أن الأمور تسير كما تفكر لاحتاجت الأرض لطاقية إخفاء!

فانفعلتْ وحاولتْ أن تنفي أنها فكرتْ بذلك ، وأن الأمر لا يعدو كونه انشغالاً ، وتعباً مصاحباً للحمل وأني لن أفهم الأمر ، ذلك أني لم أجرب مدى صعوبة الحمل ، ومقدار تعبه!

كانت تلقي كلماتها جزافًا ، وكنتُ أستقبل كل ذلك بهدوء وكأني لستُ المعنية بكل ما تقوله ، غادرتها بعد زيارة قصيرة ، وأصبح الطريق الذي كان إليها أقصر الطرق ، من أطول الطرق ، فقد تبين أن المسافات الحقيقية بين القلوب لا بين البيوت .

مضت سنوات ، وكبر طفلها وأنجبت غيره ، وما زالت تخاف مع كل حمل لها أن تسمع جارتها العاقر ، وما زالت تتلو على طفلها قبل أن يخرج صلوات تقيه من عيني الحاسدة ، وما زالت كلما نزل به أمر من مرض أو تعثر أو عارض حياتي ، جاءت

تطلب مني أثرًا أو ماء وضوء ، وتذكرني في كل مرة مبررة تصرفها أن «العين حق»!

كنت أفهم ، أفهم أنها لا تستطيع أن تفهم ، أن بداخلها هلع أحمق من شبح غير مرئي ، وقد أدركتُ في ذلك الوقت أننا سجناء بداخل ما نحصل عليه أكثر مما لم نحصل عليه ، وأن عطايا الله قد تجعلنا قساة وظالمين تجاه من حرموا منها ، وأن النعم قد تتحول إلى سياط بأيدينا نجلد بها غيرنا ، لا لذنب ، إلا لكونهم لم يستطيعوا أن ينالوها ، وأن الإنسان دائمًا آخر من يفهم .

وبعد مضي خمسة عشر عامًا أدرك زوجي أن عليه أن يحقق أبوته بإنجاب طفل ، وجاء إليّ ليخبرني بما عزم عليه ، كان يحاول أن يكون حانيًا ، وأن يختار أقل الكلمات أثرًا على نفسي ، احتاجَ إلى الكثير من المبررات ، والكثير من الكلام ليصل بي إلى لبِّ الموضوع ، لم أقل شيئًا ، كان يطلب حقه الطبيعي ، ولم يكن من حقي أن أطالبه بالتضحية أكثر ، لأننا حين نطالب الآخرين بتضحية لا يريدون بذلها سنكون نحن الأنانيين لا هم ، لم يكن هناك ما يحتم عليه التضحية أصلاً ، ولم يقل شيئًا لم أتوقعه ، كان هذا سيحدث ، أو كان هذا ما يجب أن يحدث ، حتى أني للحظة ما شعرتُ بالتخفف من عبء السنين التي كنت أنظر فيها إليه فأشعر أنه يعيش معي قدرًا لا ذنب له فيه ، لقد أردتُ مرارًا أن أطلب إليه أن يتزوج

وينجب ويحصل على عائلة كما يرغب ، ذلك أني كنت أعلم أنه لم يتزوجني لأنه يعشقني بل لأن لديه رغبة في الحصول على عائلة ، وكنتُ كذلك ، ولكني أحمل عائق حلمي في جسدي ، بينما هو قادر على الحصول على ما يريد .

أخبرته أنه يملك الحق المطلق في ذلك ، ولكني أبديتُ رغبتي في الانفصال عنه ، فلم يكن بداخلي أي ارتباط حقيقي به ، وقد كنتُ أعرف أنه أيضًا يريد الشيء ذاته ، ولكن لديه تلك المروءة التي تحول بينه وبين الإفصاح عن ذلك .

لقد أردتُ الابتعاد عن كل ما يذكرني بخيباتي الكبيرة التي عشتها في هذا المكان ، وأردتُ أكثر أن أبدأ من مكان ما ، أن أمضي في طريق لا يشبه هذا الطريق الذي لم أخطُ فيه خطوة خالية من الفشل ، كنتُ أدرك أن الوقت متأخر جدًا على الكثير من البدايات ، ولكن لا بد أن ثمة بدايات ممكنة ، وثمة طرق لن ترفض خطواتي .

ملأتني ريحان بالأسئلة يا وعد ، أو ربما بالأسى ، موجع هو شعور النقص في النّاس ، موجع أن تُصاب امرأة بأنثويتها! الأمومة في الأنثى غريزة ، الناس والهوام في هذا سواء ، شاهدتُ مرة في برنامجاً وثائقياً للبؤة تحمي غزالاً صغيراً ، وتدافع عنه بشراسة ، وكلما حاول قطيعها من الأسود أن يفتكوا به ، تصدت لهم ، كأنها من الغزلان لا من الأسود ، ثم غافلوها ، وانقضوا عليه ، فجُنّ جنونها ، لنعرف فيما بعد ، أن

تلك اللبؤة كانت عقيماً ، وأنها لم تكن تتآمر على قطيعها ، كلّ ما في الأمر أنها كانت تُرمم حاجة دفينة فيها! فإذا كان هذا حال اللبؤة وهي حيوان ، فكيف هو حال ريحان وهي إنسان ، إنني على قناعة الآن أننا مهما حاولنا أن نربت على كتف عقيم فلن نملأ هذا النقص الذي فيها!

ولكني لم أجد بُداً من أن أُطيّب خاطرها ولو بكلمة أعرف أنها لن تكون لها الابن الذي ركضتْ وراءه من عيادة إلى عيادة لسنوات!

فقلت لها : هوّني عليكِ ، كلّ امرأة أم ولو لم تُنجب!

– هذا ما أدركته ، وإن كان إدراكًا متأخرًا .

أحيانًا نظن أن السبيل الوحيد للوصول إلى ما نصبو إليه هو السبيل الذي تعارف الناس على أن يسلكوه ، ولكن الله دائمًا يجعل لكل مبتغى طرقًا عدة ، لا يدركها إلا من فتح الله بصيرة قلبه .

وتُكملُ ريحان قائلةً :

عدتُ إلى منزل عائلتي ، كنت قد أغلقته منذ وفاة أمي قبل أعوام ، كنتُ البنت الوحيدة لوالديّ ، لا إخوة ولا أخوات ، ولا عائلة كبيرة إلا بعض الأقارب البعيدين الذين يقطنون أماكن نائية .

في اللحظة الأولى التي خطوتُ فيها تجاه العتبة تذكرتُ صوت أمي وهي تحدثني عن خلود الأمهات ، شعرتُ أن رائحتها

في البيت عابقة ، كأنها للتو خرجت من حديقة الدار تحمل باقة من الريحان في كفها ، وكأنها تقول لي مرة أخرى دون أن يبدو صوتها بعيدًا أو خياليًا : تعالي يا ريحان ، احملي هذه الباقة العطرة إلى داخل الدار .

بعد عودتي كنتُ عازمة على الانغلاق والبعد عن الناس لأتخلص مما علق بنفسي من أذى ، كنت أظن أن الهرب هو سبيلي الوحيد للشفاء ، ولكن الأمر لم يكن كذلك .

فبعد شهر من ذلك زارتني جارة قديمة لنا ، كانت صديقة لأمي ، لفت انتباهها أن البيت الذي أُغلق أعوامًا حتى يئست من إحيائه مرة أخرى ، أُشرعت أبوابه مجددًا ، فجاءتني مستبشرة بقدومي ، سعيدة برائحة صديقتها القديمة التي تسكنني .

سألتني بطبيعة الحال عن سر عودتي ، فأخبرتها أن الحياة لم تمضِ بيننا كما نريد فافترقنا .

لم تقنعها إجابتي المقتضبة كحال النساء في عمرها ، وألحَّتْ حتى أفضيتُ لها بما في نفسي كله .

لم تزد على أن ربتتْ على كتفي وقالت : سيكون خيرًا ، ارتاحي الآن وغدًا يفتح الله ألف باب مغلق!

وفي الغد جاءت وقد أعدت لنا إفطارًا ، وما أن انتهينا من تناوله حتى قالت لي : هيا الآن إلى العمل!

سألتها : أي عمل؟

قالت : وهل تظنين أن الحياة ستنتظرك حتى تفرغين من ندب حظك؟ يجب أن تحصلي رزقك وهذا لا يكون بالجلوس هكذا .

لم أكثر من جدالها بل نهضت لمرافقتها ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أستقل فيها حافلة في هذا الطريق!

مضينا دون أن تقول شيئًا ، وكلما سألتُ عن وجهتنا ، كان جوابها كلمة واحدة : اصبري!

وصلنا إلى وجهتنا ، كانت داراً للأيتام ، أمسكتني من يدي وأدخلتني من بابها الرئيس ، كانت ساحة الدار ممتلئة بالأطفال من مختلف الأعمار والأحجام ، تحول قلبي في تلك اللحظة إلى كون كامل من شدة اتساعه ، لم أكن أبدًا قد فكرت بهم من قبل ، طيلة سنوات معاناتي ، لم تخطر معاناتهم ببالي ، شعرتُ كأني تلقيتُ رسالة تحمل أجوبة أسئلة عمر بأكمله ، لطالما كنتُ أسأل نفسي : لماذا حُرمتُ هذا الحق البسيط الذي يملكه الآخرون؟ كنتُ أقول : لماذا لم يستجب الله لدعوات خمسة عشر عامًا من الإلحاح؟ كنتُ أدرك أن ثمة حكمة وهي اختبار صبري ، وكنتُ أصبر لأجتاز الاختبار ، غير أن الصبر استنفدته السنوات والنتيجة لم تكن تتغير ، ولكن الحكمة هنا!

هذه هي الحكمة العظيمة التي أرادها الله أن تصلني ، أو أرادني أن أصل إليها!

لو أن كل نساء الأرض أنجبن ، فمن لهؤلاء الأطفال الذين لا أمهات لهم؟

لو أن كل امرأة استغنت بأطفالها ، فمن سيرمم يُتم هؤلاء؟

الله أعدل من أن يسلب امرأة أمومتها ، أو أن يترك هؤلاء الصغار دون رعاية ، لكن الناس هم من يضلون الطريق دائمًا ، ما خلق الله نقصًا إلا وخلق ما يتمه ، لكنه يترك لنا أحيانًا مهمة البحث ، حين يأخذ منا بديهة الحصول .

أيقظني صوت الخالة «أم مسعود» وهي تقول : هنا أعمل أنا ، أهتم بأعمال التنظيف منذ عشرين سنة ، وقد رأيتُ في هذه الدار ما يفتت القلب ، كل طفل حكاية ، وكل حكاية تقول للأخرى أنا أكثر وجعًا ، لكني ما جئتُ بكِ هنا لأوجعكِ ، بل لأن هنا إليكِ حاجة ، كل طفل هنا بحاجة لأم ، والدار أيضًا بحاجة إلى موظفة ، فاختاري موقعكِ وابدئي .

كانت تلك هي البداية التي كنتُ أحتاجها ، وكأني خُلقتُ من جديد ، يومًا بعد آخر أدركتُ مقدار العمى الذي كنتُ عليه ، عملي في الدار جعلني أفهم كثيرًا مما كنتُ أجهله ، جعلني أرى من جديد بعد أن غرقتُ داخل تلك العتمة دهرًا من الزمن .

والآن بعد أكثر من عشر سنوات في هذا الطريق صرتُ أمًا لمئات الأطفال ، عشتُ مع بعضهم بكاءهم الأول ، وسهرتُ مع بعضهم الآخر ليالي مرضه ، وضمدتُ لبعضهم أول جراحه ، ومنحت بعضهم ضمة الأم المفقودة ، كنتُ في كل ذلك أمنح نفسي وأعوض حرماني قبل تعويضهم ، كنت سآخذ طفلاً

منهم في رعـايتي ، ولكن أدركتُ أن عملي هنا سيكون أكثر نفعًا ، وأعمُّ فائدة ، وهكذا أخذتُ درسًا حياتيًا في الأمومة ربما ما كنتُ لأحصل عليه ولو أنجبتُ عشرة أطفال!

يبدو لي يا وعد أن ريحان بقصتها هذه كانت من زاوية ما هي تلك اللبؤة التي كانت ترمم نقصها ولكن بتجربة بشرية هذه المرة ، هكذا نحن البشر يشغلنا ما نفقد عما نملك ، ومرة أخرى حاولتُ أن أُجرّب طريقة أخرى ، حاولتُ أن أقنعها رغم _عدم اقتناعي _أن ما نريده بإلحاح جزء من الحياة وليس الحياة ، فقلتُ لها : لماذا علينا أن نقيس نجاح الزواج أو فشله بإنجاب الأولاد؟ من قال أن الزواج الذي يُثمر أولاداً هو زواج ناجح ، وأن العكس يعني أنّ هذا الزواج فاشل؟

– الزواج الواهي في أصله قد يهدمه أي شيء ، إذا لم ترتبط الأرواح ببعضها ، وكانت بينهما تلك الفجوة من الصمت وعدم القدرة على التواصل فإن الانهيار قد يحدث لأي سبب ، قد يكون الأطفال أحيانًا سببًا لبقاء اثنين لا يجدان ما يجمعهما ، المسؤوليات المشتركة قد تجمع بينهما إن فشلت القلوب في ذلك .

– ألا تلاحظين معي أنكِ تؤكدين فكرتي ، وهي أنك تُقيِّمين الزواج بالأولاد ، وإن بدا العكس ، كأنك تقولين أنه لو كان لكما أولاد لاستمر زواجكما رغم الجفاء العاطفي الذي كان بينكما؟

– لا أعرف حقيقة ، إذ أني لم أجرب نوعًا آخر من الزواج ، كانت علاقتنا جيدة كما أظن ، غير أنها ليست قوية كفاية لتستمر رغم الفراغ والملل والجفاء ، أظن أن سبب ذلك هو أن كلينا كان يصبو للعائلة والأولاد ، وحين لم يتحقق ذلك ، لم تعد العلاقة بالنسبة لنا معاً ذات معنى ، أو تستحق الاستمرار ناهيك عن النجاح .

– دعيني أسألك سؤالاً آخر ، برأيك ما هي الأسباب التي يجب أن تتوفر في الزواج ليستمر؟

– لا يمكن البتّ في هذا الأمر ، لأن الزواج عبارة عن شخصين لا شخص واحد ، وهذا يعني كمًا هائلاً من الطباع والرغبات ، أظن أن المسألة لا تتعلق بالزواج قدر تعلقها بالأزواج أنفسهم ، إنها مثل أسباب الحياة ككل ، هناك نمط حياة مختلف لكل شخص ، وهناك أيضًا نمط زواج مختلف لكل شخصين ، لكن ربما التآلف بين الأرواح والقلوب قد ينقذ الكثير من الأشياء بين اثنين .

– لا شكّ أنّ الأمر يتعلق بالأزواج لا بالزواج ، هذه بديهية ، تنطبق على كل شيء في الحياة كالصداقة مثلا ، استمرارها مرهون بالأصدقاء لهذا لن أتوقف عند هذه النقطة كثيراً ، ولكن ما يستحق التوقف عنده هو آخر إجابتك ، هذا إجابة حالمة لا واقعية ، لا أنكر أهمية الحب في العلاقة الزوجية ، ولكن من قال لك أن كل زواج استمر كان فيه الكثير

من الحُب ، بربك انظري حولك ، أحيانا تستمر العلاقات لأن بقاءها أقل كلفة من إنهائها!

– هذا صحيح ، إذا كان في هذا الزواج ما يستحق التضحية ، ولكن ما قيمة أن يستمر زواج إذا كان استمراره يستنزف الزوجين ، ما أهمية أن يستمر الزواج بينما تتلف الأرواح؟

– برأيي أن الزواج بحد ذاته تضحية يا ريحان!

– ماذا تقصد أن الزواج بحد ذاته تضحية؟

– ما أقصده هو أن الإنسان بمجرد أن يقبل أن يكون زوجاً / زوجة هذا يعني أنه ارتضى أن يضحي بشيء من كيانه لصالح الطرف الآخر ، وقته على الأقل ، تفهم طباع الشخص الآخر ، التأقلم مع حياته الاجتماعية والاقتصادية ، أو مع ماضيه أحياناً ، هذه أشياء تتطلب تضحية!

– هذا معيار التضحية الطبيعي ، نحن نفعل ذلك مع عائلاتنا قبل أزواجنا ، هذا مفهوم العائلة بشكل عام ، والعلاقات الاجتماعية بشكل خاص ، لكن هناك تضحية لسنا مجبرين على تقديمها ، أو أن تقديمها لا يكون ذا جدوى ، وهذا ما كان في حالتي ، الاستمرار كان استنزافًا لكلينا ، كنا ننظر لبعضنا كخيبة أكثر منا شيء آخر ، هل ترى أنه كان علينا الاستمرار رغم ذلك؟

– قلتُ لك : أحيانا تستمر العلاقات ليس لأنها ناجحة ، وإنما لأن بقاءها أقل كلفة من إنهائها! في حالتك كان العكس ،

وأعتقد أنك كنتِ أكثر منه إصراراً على الطلاق ، وأنه لو تمسك بكِ ما كنتِ لتبقي معه نهاية المطاف ، لقد نظرتِ في زواجك ، فقلتِ في نفسكِ : أنا لا أُنجب ، يكفيني جرح واحد ،لماذا عليّ أن أحمل جرحين؟ جرح أني لا أُنجب ، وجرح أن تقاسمني زوجي امرأة أخرى ، ما تلبث إن أنجبتْ أن تستأثر به وحدها؟

– أضف إلى ذلك أني أصبحتُ أكره نفسي معه ، كرهتُ تلك النظرة في عينيه ، ذلك الدور الذي يقوم به دون أن يكون مقتنعًا أو راغبًا ، ثم كانت فكرة أن أدخل في تلك الدوامة ، زواجه وامرأة جديدة في حياتي معه ، وكنتُ أدرك بالفطرة الشكل الذي ستأخذه الحياة بعد ذلك ، إن علينا أن نعرف متى يجب أن ننسحب من معركة كل ما فيها يشير إلى الخسارة .

– صدقَ حدسي إذاً ، كنتِ راغبة في الطلاق أكثر منه ، لا رغبة منك في الطلاق فحسب ، وإنما لأنكِ لم تتقبلي صفعة أخرى من الحياة!

صفعة في أمومتك ، والآن صفعة في أنوثتك!

– لم يكن هناك جدوى من البقاء ، كان كل شيء يقول لي : آن أوان الرحيل ، والمرأة دائمًا تثق في مشاعرها أكثر من أي شيء آخر .

– أنا لا ألومكِ بالمناسبة ، أنا أناقشك بما حصل فقط ، وقد تستغربين إذا قلت لك أني أؤيد قرارك!

– كيف ذلك؟

- لم يكن ثمة ما يدعوك لتتقبلي صفعة أخرى من الحياة ، تعـرفين أن بعض النسـاء لا يطلبن الطلاق إلا لأنه ليس لهن مكان آخر يذهبن إليه! في حالتك ، كان الأمر مختلفًا . . .

كـان لديك منزل ينتظرك وهذا مـا جـعلك أكـثـر جـرأة في طلب الطلاق ، تخـيلي لو لم يكن لديك منزل ، أين كنتِ ستذهبين ، أعتقد أنك كنت ستبقين وستحاولين أن تتعايشي مع جرحك الجديد كما تعايشتِ مع جرحكِ القديم!

- إذاً توافقني أن الضرّة جرح؟

- بالتـأكـيـد أوافـقك ، لا ينكر عـاقل أثر هذا على المرأة ، ولكني بالمقابل أعرف أنّ الحياة تضعنا أمام خيارات أحلاها مر!

زوجك هو الآخر كان مدفوعًا ليتزوج ، هو الآخر كان يبحث عن شيء ينقصه!

ولكن أتعرفين لماذا يتعـاطف الناس مع المرأة ويقـفـون ضـد الرجل؟

- لماذا؟

- لأن تجربة الزواج الثاني تُظهر الزوجة ضحية وتُظهر الزوج جانياً ، هذا كل ما في الأمر صدقيني!

- أليس جانيًا فعلا؟

- بعضـهم جناة ، وبعضـهم الآخـر ضـحـايا ، وزوجك كـان ضحية!

كلاكما كان ضحية يا ريحان!

- ضحية ماذا؟

- ضحية قسمتكما من الحياة ، كانت قسمته زوجة لا تُنجب!

لماذا علينا أن نطلب منه أن يضحي أكثر مما ضحاه في سنوات عمره التي تاق فيها ليكون فيها أبًا!

- أنت تدافع عنه إذًا؟

- قلتُ لكِ لا أراه جانيًا لأدافع عنه ، أنا أحاول أن أريكِ إياه كما رأيتُه من خلال كلامك ، أحيانا نحتاج أن نبتعد لنرى الأمر بوضوح ، أنت كنتِ قريبة جداً من المشهد ، أضيفي أنك حاكمتِه بقلبك ومشاعركِ لا بعقلك!

- أنا لم أحاكمه!

- بلى فعلت!

- كيف؟

- في قرارة نفسك تعتقدين أنه ظلمك مع أنه خيَّركِ!

أنا لا أرى أنه قد اقترف ظلماً ، كل ما في الأمر أنه توقف عن التضحية ، فبدا لك توقفه هذا فاجعة .

أحيانًا لا نعرف قيمة ما يفعله الآخرون لأجلنا إلا عندما يتوقفون عن فعله!

- ربما ، ولكن أخبرني ، برأيك لو لم يكن لي بيت ، واضطررت أن أعيش مع ضرة في بيت واحد ، كيف ستكون حياتي؟

- سمعتُ قصصًا كثيرة عن ضرائر متعايشات مع ضرائرهن حتى ليُخيل لمن لا يعرفهن أنهن أخوات!

- أتصدق هذا فعلاً؟

- سمعته ، ولكني لا أصدقه ولا أكذبه!

- لأيهما أنت أقرب لتصديقه أم لتكذيبه؟

- بل أنا لتكذيبه أقرب!

- والسبب؟

- السبب أني أعرف أن المرأة متى رضيت رضاء تاماً عن مشاركة امرأة أخرى لها في زوجها فهذا يعني أنها تنازلت عنه ، بعض الأشياء لا يشملها قانون المشاركة ، هذه غرائز فينا نحن البشر ، ولا نستطيع دفعها مهما حاولنا . . .

- أنا مثلك لا أصدق أيضاً ، ولكنك لم تجبني كيف تتوقع أن تكون حياتي لو عشت معه وبيننا امرأة أخرى؟

- أعتقد أنه كان ليصيبك ما أصاب أمنا سارة!

- من تقصد بأمنا سارة؟

- سارة زوجة إبراهيم عليه السّلام . . .

- وكيف تشبه قصتها قصتي؟

- كانت سارة عاقرًا ، وكنتِ كذلك ، وحين آثرت إبراهيم عليه السلام على نفسها زوَّجته جاريتها هاجر ، فأنجب منها إسماعيل ، حينها أخذت الحكاية منحنًى آخر ، ربما كانت ستأخذه حكايتك لولا أنكِ غادرتها قبل هذا المنعطف ، مال

قلب إبراهيم لهاجر وابنها ، ووقعت سارة فريسة الغيرة ، فلم يكن قلبها ليتحمّل ذلك القدر من الحرمان ، الحرمان من الابن ، وها هو الآن حبُّ الزوج واهتمامه يصبح لغيرها ، لا يوجد امرأة مهما بلغت من الصبر والحكمة تتحمّل أن ترى كل ذلك ولا تفقد صبرها ، ثم حدث ما حدث من أمر الله لسيدنا إبراهيم بالهجرة بزوجته وابنه إلى مكة .

هذه حكاية ريحان يا وعد ، المرأة التي حُرمتِ الإنجاب ، فصارت في دار الأيتام أُمّاً لمئات من الأولاد والبنات!

إلى موعد آخر مع الحافلة وأهلها!

مضى النهار بطوله ، وأول المساء دون أن ينطق هاتفي بكِ ، كنتُ أرقبه كترقّب جندي يقف عند الحد الفاصل بينه وبين عدوه ، بيقظة وانتباه شديدين ، وفي كل دقيقة أتفقد الخدمة ، وكأن عطلاً ما حال بيني وبين رسائلك ، ولكن لم يكن ثمة إلا صمتكِ ، بعد ساعات من الانتظار تملكني اليأس ، فخرجتُ علّي أنشغل قليلاً عن هذا الانتظار المتلف للأعصاب ، في أول خطوة خطوتها خارج الدار رنّ الهاتف فأقام قلبي في صدري عرسًا ظنًا منه أنكِ المتصل ، ولكن بمجرد النظر إلى تلك الشاشة عرفتُ أن محمدًا هو من أحدث كل هذه الفوضى الشعورية لديّ ، أجبتُ بنبرة محبطة ، فسألني سؤاله المعتاد : أين أنت؟ دون أن يقف على طريقتي في الرد ، أخبرته أني خرجتُ للتسكع قليلاً ، فدعا نفسه لمرافقتي وحدد المكان دون أن ينتظر رأيي في المسألة ، التقينا في أحد المقاهي القريبة ، وكان يسترسل في أحاديثه التي لا تنقطع ، والتي في الغالب لا تندرج تحت موضوع واحد ، فتجدينه يقفز من الحديث عن الجامعة إلى الحديث عن النساء إلى الحديث في السياسة وينتهي الأمر به متحدثًا عن الفلك ، ثم التفت إليّ وكأنه انتبه لشيء قائلاً :

– إن العشاق أكثر الأشخاص إثارة للملل على وجه الأرض ، ماذا دهاك يا رجل ، كأن على رأسك الطير!

- لا شيء ، أستمعُ إليك!
- يبدو استماعك واضحًا ، إلى درجة أنك أشبعتني مناقشة في ما أقول!
- وهل تركت فرصة لأحد كي يناقشك ، أنت لم تصمت حتى لتلتقط أنفاسك!
- تبرير سخيف لبلادتك ، كأنك لم تقاطعني من قبل وتدلي برأيك ، هل اعتراك الآن أدب الاستماع!
- كف عن هذا الآن ، لا تجعلها قضية ، أين بقية المجموعة؟
- «كلٌ في فلك يسبحون» ، ماذا عن وعدك؟
- وعدي!
- أقصد فتاة الحافلة ، هل من جديد؟
- لا جديد ، يبدو أن لديها حياة معقدة نوعًا ما .
- كيف ذلك؟
- تبادلنا أرقام الهواتف ، ولكنها طلبت أن لا أحدّثها دون أن تفعل هي ، أي لا أبادر بل أنتظر ، وإلى الآن لا حسّ ولا خبر!
- لعلها منشغلة ، أوأنها تعيش بمكان مزدحم ، تعرف أحيانًا منازل العائلات الكبيرة ليس فيها تلك المساحة الشاسعة من الخصوصية .
- ألا يرسل المرء رسالة على الأقل!
- لا تكن لجوجًا ، ربما تحتاج هي لهذه المسافة لأنها لم تتأكد من مشاعرها أو مشاعرك بعد ، تحلَ بالصبر .

- ها أنا صابر كما ترى ، ولكنك سألت فأجبتك بما في ذهني .

ثم افترقنا ، وعدتُ إلى البيت ، كان وقت نومي قد حان ، فأويت إلى فراشي ، وإذ بالهاتف ينبئ عن رسالة واردة ، كانت منكِ ، بضع كلمات مختصرة تقولين فيها :

سعيدة لأنك في قلبي ، تصبح على خير .

تمنيت لو كان بوسعي أن أسمع صوتكِ على الأقل ، لكني كبحتُ جماح شوقي وكتبتُ لكِ :

سعيد لأني في أجمل مكان على الأرض ،

ومشتاق لأجمل امرأة على الأرض!

في الحافلة كنتُ بانتظاركِ كعادتي ، أتلهفُ لكوب قهوتك وضحكتك المشرقة ، وعطرك الذي يمثل لي رائحة الحب ، ترى كيف نعرف أننا عشاق؟

كيف نكون متأكدين أن هذا الأمر ليس خدعة شعورية وحسب؟

ربما كان الحب هو هذا الشعور الذي أشبه ما يكون بعناق روحين في داخلك ، هكذا شيء لا يمكن أن تراه ولا يمكن أيضًا أن تكون متأكدًا منه ، ستنساق خلفه أحيانًا وأنت تدرك النتيجة ، تراها رأي العين ، تعلم أن ثمة رماد في نهاية كل هذا الاشتعال الذي يخطف الأبصار ، ليس كالفراشة التي تنخدع لضوء اللهب فتحترق كما يقال عادة ، فأنت لا تذهب منخدعًا

إلى الحب حين تحب ، بل تذهب ببصيرة كاملة ودراية تامة بأن هذا الآخر سيكون جحيمك ونعيمك في آن معًا ، الخطوط الفاصلة بينك وبينه كانت هنا ثم تلاشت بفعل الحب ، كأن لديه ممحاة تمحو كل ما يمنع الآخر عنا ، كل ما يشوه الآخر في أعيننا ، بل إنه مخادع بارع ، لتلك الدرجة التي تخوله ليجعل عيوب من نحب حسنات ومزايا ، تلك التصرفات التي ننفر منها في الآخرين ، نجدنا نتغنى بفتنتها حين يملكها شخص يملك قلوبنا ، الحبُّ هذه الرغبة الهائلة في الاستسلام التام لشعورك ، تشدّك بالكامل إلى الآخر دون أن تدّخر منك شيئًا لنفسك أو لسواه ، تشعر لحظتها أن في داخلك مصنعًا للسعادة ، يمكنه أن يمنح العالم كله احتياجه من الفرح ليصبح جنة ، لأننا دائمًا نرى العالم من أعماقنا ، لأن نافذتنا المطلة على العالم حين نحب هي تلك المضغة الصغيرة المضطربة في صدورنا ، التي تنتج هذا الشيء الهائل المسمى حبًا .

نظرتُ إليكِ وأنتِ جالسة بجانبي تبتسمين وتستغرقين في أحاديثك المعتادة بتلك الروح المفعمة بالحياة ، كنت أشعر أن هذه اللحظات الجميلة لا يمكن أن تفسد أبدًا ، كنت أشعر بحبٍ طاغ ، إلى تلك الدرجة التي يتهيأ لي معها أن ثمة قداسة ما تحيطً بنا ، كنت أشعر بقوة هائلة واندفاع شديد إلى الحد الذي جعلني أظن أن لا شيء قادر على هزيمتي/ هزيمتنا/ هزيمة ما بيننا ، ربما كل الذين بلغوا شعور الحب يومًا مروا من هذا

الطريق ، طريق الثقة اللامتناهية ، أو دعينا نقول طريق الغفلة الكاملة عن وضع أي دفاعات ضد من نحب ، ومنحه شرعية كاملة لإلحاق الضرر بنا ، إنه التخلي التام عن الذات للآخر ، لأنك تتركين له صدركِ مشرعًا ، فهناك يقع بيته ، وهو وحده من يملك مفاتحه ، لوهلة تظنين أنكِ مأهولة وتغفلين عن كونكِ مُنْتَهَكة تمامًا!

كنتِ بتلك الوداعة لا تشين بأي ضرر ، كنتِ تبدين من النقاء بحيث أني أكاد أقسم أنكِ بلا خطيئة ، براءة غريبة تغلف مظهركِ ، أو لعلها تغلف إحساسي تجاهك ، لأني غالبًا كنتُ أنظر إليكِ من تلك الزاوية ، زاوية القلب!

أرجعُ الآن بكِ إلى ماهر وهشام ، لا أُخفيكِ أني تفاجأتُ عندما صرَّح هشام لماهر بأنه مُلحد ، وأن على الحوارات الآن أن تأخذ منعطفاً آخر ، أكثر جدية ، وأكثر شراسة أيضاً!

قد تسألين عن سبب دهشتي بإلحاده ، ولكنكِ لو تأملتِ حوارهما بالعمق الذي تأملتُهُ أنا لأصابتكِ الدهشة! خذي عندكِ مثلاً ، حوارهما حول الحُب لا يوحي بشخصية ملحدة البتة ، أقصى ما يُمكن فهمه أنّ هشاماً كان يعتقد أن الإسلام إنما جاء بطقوس وعبادات على الإنسان أن يؤديها لربه بحذافيرها ، ولكنه أهملَ أو لم يتطرق إلى عواطفِه وأحاسيسه ومخاوفه وهواجسه وأحلامه وأفكاره وشكوكه ، هذه الأشياء الصغيرة التي هي في الحقيقة نحن! أو بتعبيرٍ أدق كان يعتقد أن الإنسان بمفهوم الإسلام هو مجرد آلة خُلقت لتصلي وتصوم وتحج وتزكي وأن علاقة الصانع بهذه الآلة تقوم على فكرة : قُم بما خلقتُكَ له ولا شأن لي بهذا الضعف الإنساني الذي فيك! عليك أن تعبُدَني في المنشط والمكره ، والحِل والسَّفر ، في الصحة والمرض ، أما غرائزك وعواطفك وسائر أشيائك فهي شأنك!

وحوارهما حول الرأسمالية فأقصى ما يوحيه أن هشاماً يعتقدُ أن الإسلام إنما جاء بنظام عباداتٍ فحسب وما دام الأمر

كذلك فليست سُبة ولا منقصة أن يجمع المسلمون أفكارهم من هنا وهناك ، لا بأس بنظام ماليٍّ من هنا ، ونظام قضائي من هناك ، وبأحوال شخصية مًن هؤلاء ، وبنظام سياسي من أولئك! كل أسئلته وملاحظاته كانت تُوحي بهذا ، كان يبدو أن فهمه للإسلام فهم سطحي يفتقر إلى فهم حقيقةِ الإسلام فعلاً وأنه نظام دين ودنيا معاً ، وأنه كُلٌ متكامل نظّم عقود التجارة وعجلة الاقتصاد كما نظّم أركان الوضوء! ونظّم علاقات المسلمين ببعضهم وعلاقاتهم بغيرهم كما نظَّم أركان الحج! وحدّد نصيب الفرد من المال العام والميراث بنفس الدقة التي حدّد فيها عدد ركعات كل صلاة!

أما أن يكون مُلحداً لا يؤمن أنّ لهذا الكون خالقاً فهذا وجه كان يخفيه وراء قناع المُشَكِّك بالدين وكماله لا المُشَكِّك بالخالق ووجوده!

يُخيَّل إليَّ الآن أن هشاماً كان يخجل بإلحاده ولا أعرف حتى اللحظة سبب هذا الخجل ، هل لأنه لم يكن مقتنعاً وحازماً أمره بشأن إلحاده أو لأنه لم يكن يمتلك الجرأة الكافية ليكون على عكس ما يعتقده الجميع ، وتعتقده أسرته وكل من حوله! أما الشيء الوحيد الذي أنا على يقينٍ به بعد أن رأيتُ كيف سارت الأمور وكيف انتهتْ أنّ الله سبحانه قد أراد به خيراً إذ ألقاه في طريق ماهر ، أو ألقى ماهراً في طريقه!

لعلكِ تذكرين كيف بدأ الأمر ، كنا في الحافلة كلٌّ منا

يَستعد أن يصل ليبدأ يومه المعتاد ، ولكن هشاماً قلبَ يومنا ذاك رأساً على عقب عندما قال لماهر دون مقدمات : أتعرف يا ماهر ، حواراتنا السابقة جعلتني أتجرّأ أن أبوح لك بأمر لم أَبُح به من قبل ، ولعلك قد فهمتَ من حواراتنا أني ضعيف الإيمان ، ولكن في الحقيقة أنا لا أؤمن بما تؤمنون به ، أنا ملحد يا ماهر!

خيَّم الصمت فجأة ، وعمَّ الهدوء المكان لدرجة أنكِ لو ألقيتِ إبرةً لسمِعتِ صوتها ، جميعنا حبسنا أنفاسنا ، بعضنا من الدهشة ، وبعضنا كان ينتظر ماهراً ليُجيب! جميعنا كنا نريدُه أن يفعل ، هذا ما بدا على الوجوه والنظرات ، انتقلنا تلقائياً من الطرف المُحايد الذي يستمتعُ بالنقاشاتِ الدائرة بين الرجلين إلى طرف أساسي في الحوار ارتضى أن يُكلِّف ماهراً في أن ينطق باسمه!

بالمناسبة ، كانت تلك هي المرة الأولى التي لم أستطع أن أفهم الملامح التي ارتسمتْ على وجه ماهر ، على الأرجح كان مزيجاً من الغضب والشفقة ، شيء من الحُمرة بدا على وجهه تُشبه تلك التي تصيبنا إذا طعننا أحد بأحبِّ الأشياء إلينا ، وشيء من نظرات الشفقة بدتْ في عينيه وهو يُحملق في وجه هشام! تلك الصفة هي أكثر ما أحببتُها في شخصية ماهر ، كان ينظر في ذنوبِ الناس كأنه عبد انتشلَتْه رحمة الله إلى الهِداية ، لا كأنه ربٌ عليه أن يُحاسب الناس وهذا ما يفتقده كثيرون من المتدينين!

لأول وهلة شككتُ في قدرةِ ماهر على امتصاصِ الصدمة ، فقد كان الأمرُ أشبه بلكمةٍ يُوجِّهها ملاكم إلى خصمه! ولكن ماهراً فاجأني بهدوئه! كان كأنما تدرّب جيداً على هذا الموقف ، لم يأخذ الأمر منه أكثر من دقيقة ليستعيد اتزانه ، كانت اللكمة قوية ولكنها لم تكن قاضية ، وقد قالوا : اقتضتْ الحياة أن يكون النصر لمن يتحمل اللكمات لا لمن يُسدِّدها ، وماهر أذهلني في الأمرين معاً ، كان يعرفُ متى يُدافع ومتى يَلكُم!

بكل ما أُوتي من برودٍ واتزانٍ قال ماهر : ماذا تعني بقولك «أنا ملحد»؟

قال هشام : ملحد يا أخي ألم تسمع بهذه الكلمة من قبل؟

- بلى ، ولكن ما المانع لو أخبَرْتني ما مفهومك للإلحاد ، لماذا تعتبر السؤال هجوماً أو إهانة ، أنا لا أراه كذلك ، فلو سألني أحدهم ماذا يعني أن تكون مسلماً ، بِمَ تُؤمن وبِمَ تكفر؟! لوجدتُ الأمر فرصة سانحة لأخبره بمعتقدي الذي أفخر به!

- حسناً ، أنا لا أؤمن بوجود الله ، ببساطة لا يُمكنني أن أؤمن بشيء لا أراه!

- كلامك غير صحيح ، أنتَ تؤمن بأشياء كثيرة لا تراها ، تؤمن أن لكَ عقلاً ولم تره ، وتؤمن أن فيك ضميراً يُشعرك بالرضا عن أفعالك الجيدة وبالأسى على أفعالك المُشينة ولم تره ، ولو قلتُ لك أنت إنسان بلا عقل ولا ضمير لجُنَّ جنونك ، واعتبرتَ الأمر سُبّة وشتيمة ، مع أني لم أفعل شيئاً أكثر من

أني أجادلك بمنطقك ، لا أؤمن بشيء لا أراه ، أنا لا أرى عقلك ولا ضميرك! وأنتَ أيضاً لا ترى عقلي ولا ضميري ولكن تؤمن على الأقل بوجود عقل عندي وإلا ما جادلتني فأخذتَ بعض أفكاري ورفضتَ بعضها!

وأنتَ كذلك تؤمن بما أقرَّه العلم من وجود أشعة فوق البنفسجية وأشعة تحت الحمراء لا يمكن رؤيتهما!

وأنت كذلك تؤمن بوجود الكهرباء في السلك الذي يُنير مصباحك ، ولو جاء ابنك وأراد أن ينزعَ عن السلك غلافه ويُمسكه فإنّك سَتَنْهَاهُ لأنك تعرف أن الكهرباء ستقتله ، أنتَ لا تشك قيد أنملة بوجود الكهرباء رغم أنكَ لم ترها!

هناك موجات صوتية تتولد من حركةِ فمي وأنا أتكلم هي التي تحملُ كلامي إليكَ ، العلمُ يقول هذا ، وأنت تُؤمن بهذا رغم أنكَ لا ترى الموجات فلماذا تريد أن ترى الله لتؤمن به؟

– لنفترض أني سلمتُ لكَ بأني أؤمنُ بأشياء لا أراها كالتي استشهدتَ بها أنتَ في ردِّكَ عليَّ ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر بأن هذه الأشياء وإن كانت لا تُرى إلا أن ثمّةَ ما يدلُّ عليها ، فأنا إن لم أرَ عقلي فإني أعرفُ يقيناً أني أستخدمه ، وأثره في حياتي واضح ، وها أنا أستخدمه في حواري معك ، والكهرباء في السلكِ موجودة حتماً وإن لم أكن أراها يكفي أن المصباح الكهربائي مُضاء حتى نعرفَ أن في السلكِ كهرباء ولكن ما علاقة وجود الله بكل هذا؟!

- أردتُ أن أقول لكَ أننا نحن البشر مؤمننا وكافرنا نؤمنُ فعلاً بأشياء لا نراها بأعيننا أو نلمسها بأيدينا ، وقد وافقتني عليها وعارضتَ نفسك بنفسك ، فانتفى قولُك : أنا لا أؤمن بشيءٍ لا أراه .

أما ما علاقة وجود الله بكل هذا ، فأنتَ لا مانع عندكَ أن تؤمنَ بشيء لا تراه ما دام أثره بادياً لكَ واضحاً ، ولكن ما يدعو للأسى فعلاً فهو أن تؤمن أن المصباح لا يُمكنه أن يُنيرَ إلا بوجودِ الكهرباء في السلك ، ولكن لا حرج عندكَ في أن تؤمن أن هذه الشمس التي تنيرُ هذا الكوكب تُضيءُ من تلقاءِ نفسها أو أنها خَلقتْ نفسها!

أنتَ لا حرج عندكَ في أن تؤمن بوجودِ ضمير فيكَ رغم أنكَ لا تراه ، لأنك تستدلّ عليه بإحساسكَ به ، بينما تجد حرجاً في أن تؤمن أن الكواكب قد خَلقتْ نفسها واصْطفَّتْ بهذا الانتظامِ العجيب وحدها!

أنتَ لا حرج عندكَ أن تؤمنَ أن كتاباً جميلاً قرأتَهُ قد أنتجَهُ عقل مؤلف عظيم ، بينما تجد حرجاً في أن تؤمنَ أنّ هذا الكون المنظم تنظيماً مدهشاً بكلِّ ما فيه قد أوجده خالق عظيم!

تُحدثني عن الأثر ، أي أثر يا هشام ، أنتَ حين تمشي على الشاطئ وترى أثر خطوات تقول في نفسك قد كان هنا إنسان!

وحين تدخل حقلاً كبيراً وترى كومةً من القمحِ قد حُصدتْ تقول في نفسك هناك من حصدَ هذا القمح!

وحين تذهب برحلة برية وترى كوباً متروكاً تحت شجرة تقول في نفسك قد كان هنا إنسان!

هذه أشياء بديهية تقولُها أنت ، وأقولُها أنا ، ولكنك حين رأيتَ أثر الخطوات على الشاطئ قلتَ باستحالةِ مَجيء الخطوة من دون من يخطوها ، وحين رأيت القمح قلتَ باستحالة وجوده دون حاصده ، وحين رأيتَ الكوب قلتَ باستحالةِ مجيئه لوحده ، ولكنك حين ترى شجرة ضخمة لا تسأل نفسك عن تلك القوة التي أخرجت هذه الشجرة الضخمة من البذرةِ الصغيرة! وحين ترى الأرض التي تعيش عليها لا تكلفُ خاطرك في أن تسألَ من أين أتت ، ومن أوجدَها ، ومن وضعَها في هذا المدار ، هذا الضمير الذي تحس به ، وهذا العقل الذي تستخدمه كيف وُجِدا فيك ، ما هو الجهد الذي بذلته ليكونا فيك ، هل أوجدتَ أنتَ هذا في نفسكَ ، أم أن هذه الأشياء مستحيل أن توجد فيك لوحدها ولا بد لها من صانع ومُوجدٍ لأنها أوْلى بالصناعة والإيجاد من أثر خطوة على الرمل؟!

- حسناً ، أنتم تقولون إن الله موجود ، وموجوداته تدلُّ عليه ، الشجرةُ في مثالكَ قد جاءتْ من بذرة ، ولا شك أن البذرة قد جاءت من شجرة ، وهكذا سوف نبقى نرجعُ حتى نصلَ إلى بذرة أولى أو إلى شجرة أولى تقولون أن الله أوجدها ، أنتم تؤمنون بالسببيةِ ، وأن لا شيءَ يأتي وحده ، فمن خلقَ الله؟

- سؤال جميل جداً ، يبدو أننا على الطريقِ الصحيح ، لقد سلّمنا أن الأشياء لا تأتي من تلقاءِ نفسها ، ما لم نتفق عليه ، من أوجدَ الأشياء بدايةً ثم وضع فيها قانون أن تكملَ مسيرتها ، ومن خلقَ الله؟

دعكَ الآن من الأشياء والمخلوقات لأننا إذا أثبتنا وجود خالق صارتْ تلك المخلوقات هي من صُنعه وخَلقه بداهة!

أنتَ تسأل من خلقَ الله؟

اسمح لي أن أقول لك إن سؤالك خاطئ!

- وأين خطأ سؤالي؟

- الخطأ يكمن في أنك تقيس المخلوق بالخالق! نحن محكومون بقانونِ الزمانِ والمكانِ والسببية ، أما الذي أوجدَ الزمانَ والمكانَ والأسباب فأوجدَها لتحكم مخلوقاته لا لتحكمه ، ولتجري على الخلق لا لتجري عليه!

أنتَ ترى الطفل فتجزم أن له أباً لأن فهمكَ يقولُ لكَ لا بد لِكُلِّ طفلٍ من أب ، وهذا فهم صحيح ، ولكن الفهم يكون غير صحيح حين تقيس وجود الطفل على وجود الله!

أنتَ بهذا التفكير تشبهُ السيارة التي تشتريها لابنَك الصغير ، هذه السيارة لا تتحرك من دون بطارية ، ولو كان لسيارةِ ابنكَ عقل كعقلكَ لقالتْ إن الإنسان الذي صنعَها هو الآخر لا يمكنُ أن يتحركَ من دون بطارية ، إنها تقيسُ نفسها وهي المصنوعة علينا نحن البشر الصانعون لها!

وهذه كتلك ، أنت تُحاكم الله بهذه العقلية ، ما دام لك أب وأم فيجب أن يكون لله أب وأم ، إنّ محاولتي لإقناعِ السيارةِ لو كان فيها عقل أننا لا نتحرك ببطاريات هي نفس محاولتي لإقناعكَ أن الخالق شيء والمخلوق شيء آخر!

– دعكَ من هذه النقطة الآن ، سأُقلِّبُ برأسي ما قلتَهُ لي لاحقاً ، صدِّقني حين أقتنع سأُخبرك ، وإن لم أقتنع تبقى الأمورُ على ما هي عليه ، ولكن عندي سؤال آخر .

– تفضّل!

– لماذا عليَّ أن أهتمَّ بالدينِ أساساً؟! الدينُ في رأيي ليس مهماً لأنشغل بهِ إلى هذا الحد! أنا أستطيع عن طريقِ العلوم التجريبيةِ والاجتماعيةِ أن أتعاملَ مع الكون من حولي ، وأستطيع من خلال الموسيقى وبعض الرياضاتِ الروحية أن أُحققَ توازناً وسلاماً نفسياً ، وأستطيع أن أعيشَ مرتاحاً هادئ البال دون أن أقحم نفسي في المسائلِ الدينيةِ والغَيْبِيّة؟!

– تخيّلْ أنك دخلتَ ذات ليلة لتنام في غرفتك ، فاستيقظتَ لتجد نفسك في قطارٍ يمشي مُسرعاً ، فيه ركاب من كل نوع ، أطفال وشباب وعجائز ، باعة وأطباء وفنانون ، وأناس كثر لا تعرفهم ولا يعرفونك! القطارُ يمضي وأنتَ تنظر من النافذة وتشاهد مناظرَ لم ترها من قبل ، والقطار يقف في محطاتٍ مُعيّنة ، ويأتي رجال يأخذون بعض الركاب على غيرِ إرادتِهم بشكلٍ عشوائيٍّ لا تعرف أنت أسبابه ولا مبرراته ، إنهم يأخذونهم عنوةً فلا يعودون إلى القطارِ مرةً أخرى!

في هذه اللحظة العجيبة هل يَشْغَلُك شيء عن أن تسألَ ما الذي أتى بي إلى هنا؟ إلى أين أنا ذاهب؟ إلى أين ينزلُ هؤلاء الركاب ، إلى أين يمضي القطار ، إلى أين سيأخُذُني هؤلاء الرجال لو وقع الاختيار عليَّ في إنزالي عن متنِ القطار؟

تخيّل لو أنك تركتَ السؤال عن كلِّ ذلك ، وجلستَ تستمتع بشرب الشاي وتنظر من النافذة وأنتَ لا تدري مبدأَك ولا مُنتهاك!

هل يقبلُ عاقلٌ بهذا؟

ما أشبه هذا القطار بحياتنا! ولدتَ لتجد نفسكَ في هذا الوجود ، وبما يعتملُ في نفسك من إدراكات ومشاعر ، تشعر بالجوع ، والعطش ، والحب ، والبغض ، والتفاؤل ، والتشاؤم ، بالشهوة ، والعزوف ، بالإقبال ، والإعراض! ووجدتَ حولك بشراً بعضهم أتى قبلكَ ، وبعضهم غادرَ وأنت شاهدٌ على مغادرته! ووجدتَ أفلاكاً وكواكب ، جمادات ٍونباتات ، وجود متنوع ومتشابك ومعقد!

هل يشغلك شيء عن أن تسألَ : من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا كل هذا السباق المحموم؟

إن العقلاء يرغبون في المعرفةِ والاطّلاع على الحقائق حتى لو كانتْ لا تتصل بهم ، فكيف بتلك الحقائق التي تمسُّ وجودهم ومصيرهم!

ولكن هذا الذي ذكرته لك ليس باعثاً لكل إنسان ، فليس كل إنسان يحركُه عقله ، أو قد استقامَ فهمه ، فكان لا بد من سبب آخر!

حين تقود سيارتك قد تتجاوز السرعة التي حددها القانون ، خصوصاً إذا علمتَ أن الطريق غير مراقب برادار لضبط السرعة ، ولكنك متى تم إخبارك من صديق لك أن الطريق الفلاني مراقب بالرادار فإنك ستأخذ حذرك خوفاً من العقاب ، فالسرعة الزائدة خطأ يترتبُ عليه مخالفة قد تكلفكَ مالاً كثيراً!

بالمناسبة قد يكون صديقك هذا صادقاً في تحذيرِه ، وقد يكون كاذباً ، وأنتَ حين افترضتَ صدقه ، وفعلتَ ما يقتضي المنطق والحرص والخوف على مالِكَ لم تخسر ولو لم يكن الطريق مراقباً بالرادار!

الأنبياء هم أصدقاؤك الذين يريدون مصلحتكَ وأخبروك أن الطريقَ مراقبٌ بالرادار ، لا طريق العمل إلى البيت ، بل الطريق من الميلاد إلى الموت! أنتَ تقول في نفسك لربما لم يكونوا صادقين وهذا احتمال من حقكَ أن تضعَهُ ولكن من الحماقة أن لا تبحث فعلاً في صدقهم وفي ادعائهم على الأقل ، في مثال السيارة أنت تغامر بمالك وهذا شيء مهما عظمَ يبقى يسيراً ويمكن تعويضه ، أما في مثالِ الأنبياء فأنت تقامرُ بنفسك لأنها لو صحّت دعواهم أنّ للمؤمن الجنة وللكافر النار فتلكَ خسارتكَ التي لا يُمكن تعويضها لهذا عليكَ أن تهتمّ بقصةِ الدين ، وأن تسألَ نفسك من أين وإلى أين ، أنتَ الآن على متن القطار فاسأل نفسك إذا أنزلكَ الرجال عنوة إلى أين سيذهبون بك ، ماذا لو صحّت الأديان ، وصدقَ الأنبياء وذهبْتَ إلى الله مُنكِراً

وجوده ، ماذا ستفعل حين تقف بين يديه للحساب ، وما شعورك إذا نادى في ملائكته خذوا عبدي إلى النار ، ثمة حقائق لا ينفع إدراكها إذا فاتَ الأوان ، الدينُ حقيقة جديرة أن تبحثَ عنها يا هشام!

كانت إجابة موفقة من ماهر ، حتى أن هشاماً قد اعترفَ بهذا حين قال : إجابةٌ جيدةٌ يا ماهر ، ولكن هذا لا يعني أني سلمتُ لكَ بكلِ ما فيها ، كل ما تقوله الآن ولا أجادلُكَ فيه فلستُ بالضرورةِ أقولُ لكَ لقد أقنعتني ، كل ما في الأمر أني سأعرضُ على عقلي كل ما يدورُ بيننا ، وثِقْ تماماً في اللحظةِ التي أقتنعُ فيها بما تقولُه سأعترف لكَ ، وإن لم أقتنعْ نهاية المطافِ فسيبقى الحالُ على ما هو عليه!

حينها قال له ماهر : وأنا لا أريدُك أن تفعلَ أكثر من هذا ، أن تعرضَه على عقلك ، وتتفكر فيه ، وإني واثقٌ تماماً أنّ الله سيأتي بكَ إلينا نهاية المطاف ، أتدري من أين تنبعُ ثقتي هذه؟

– من أين؟

– من أنكَ تُناقشُ لتفهم ، وتسأل لتعرف ، ثمةَ اضطراب في داخلِكَ ، أنتَ لستَ واثقاً تماماً بما تعتقده الآن ، الشكُّ يأكلك ، على عكسِنا تماماً نحن المؤمنين بالله ، انظر لمن حولك ، للعمالِ البسطاء في الطرقاتِ الذين لو سألتَهم عن رضاهم عن ربهم لأجابوكَ بحمدِه وشكرِه لأنهم يعرفون أنَّ هذه الدنيا ليستْ سوى محطة عبور ، انظر إلى المحكومين بالموتِ من

المصابين بالأمراضِ المستعصيةِ إذ أحدهم لا يكفُّ عن قولِ الحمد لله لأنه يعرف أنها مجرد أيام وتمضي وسيجد العوضَ عن كل هذا!

سيأتي الله بكَ حين ينظر إلى قلبكَ فيعرف أنك تريد الحقيقة والهداية! وأنت لا تُكابر وتريد أن تعرفَ وهذا شيء جيد، واصِلْ أسئلتك، وقُلْ كل ما يخطر ببالك، هاجِمْ بضراوةٍ إن شئتَ، لا تترك سؤالاً يدورُ في ذهنِك، واعرضْ ما أقولُه لكَ على عقلِك ولكن إيّاكَ أن تعتقد أن المسألة هي مسألة عقول فقط، إنها مسألة قلوب بالدرجة الأولى يا هشام!

في أيامِ جاهليته كان عمر بن الخطاب يصنعُ إلهاً من تمرٍ يعبده أولَ النهارِ ويأكله آخر الليل، وفي أيام خلافته كان يقول: أين كان عقلي عندما كنتُ أصنع إلهي من تمرٍ فأعبده ثم آكله؟!

إن عقل عمر في الجاهليةِ هو عقل عمر في الإسلام، ولكن القلب لم يعد هو القلب، حين نظرَ الله إلى قلبِه وعَلِمَ أنه يريدُ الحق أتى به فصارَ هذا العبقري الذي تسمع عنه!

تسلَّح بعقلك ما استطعتَ إلى هذا سبيلاً، تفكّرْ، تدبَّرْ، قلِّبِ الأمور، ولكن لا تنسَ أن السِّر يكمُنُ في قلبك، يمكنُكَ أن تخبرني بلسانك حديث عقلك، أما حديث قلبك فالله وحده يعرفه، حافظْ عليه نقياً من أي ذرةِ كبرٍ وعناد، ليبقَ جائعاً للهدايةِ والحقيقة حيثما كانت، وممَّن أتتْ، وقتها فقط سيأتي بكَ الله!

وعند هذا الحد انتهى الحوار ، مضى كل واحد منا في سبيله ، ولكن الشيء الوحيد الذي كنتُ واثقاً منه أن هشاماً لن يستسلمَ بسهولة ، وأنّ ماهراً لن يدعَه حتى يُقنعه ، وكان لا بأس من الانتظار ، أو بالأحرى لم يَكُن أمامنا جميعاً من حلٍّ آخر ، كانت الدرب طويلة ، والحِداءُ زاد الراكب كما تقولُ العرب ، أما نحن فقد كان حِداؤنا هذه الحوارات الجميلة التي أمتعَتْنا وأفادَتنا على حدٍ سواء!

قلتُ لكِ مرة : هل تحتاجين هذه المسافة بيننا!

بدا على وجهكِ ما يشبه الاستفهام ، فأكملتُ : أعني ما زلتِ تتركين بيني وبينكِ بعض الحواجز ، هل لديكِ شك حيال مشاعري ، أو مشاعرك ، أعتذر إذ بدا السؤال وقحًا ولكني أحب الوضوح التام كما تعلمين .

– لا أتعمد وضع مسافة بيننا يا كريم ، رغم أني لستُ ضد المسافات بين الأشخاص بغض النظر عن العلاقة التي تجمع بينهم ، برأيي المسافة ضرورية جدًا لصحة أي علاقة ، ذوبان الشخص في الآخر لا يدل على أن درجة الحب بينهما أكبر من تلك التي بين اثنين يجيدان الوقوف على مقربة من بعضهما دون إلغاء الحدود البشرية الضرورية لأي إنسان ، هذه ضرورة كونية لا ضرورة إنسانية فقط!

– كونية إذًا ، وكيف ذلك؟

– هل سبق أن سمعت عن ظاهرة «خجل التاج»؟

– لا لم يسبق أن سمعت ، حدثيني!

– هي ظاهرة طبيعية أو لنقل سلوك بين الأشجار ، حيث أن الأشجار التى تنمو جنبًا إلى جنب ستنمو أغصانها بطبيعة الحال وتتفرع كما هو معروف لنا ، مما يؤدي إلى تشابك تلك الأغصان في الحالات المعتادة ، ولكن لدى بعض الأشجار لا

يحدث هذا الأمر ، إذ تترك كل شجرة مسافة بين تاجها وتاج الأخرى ، بحيث لا تتعدى تلك المسافة أبدًا ، بل تتوقف أغصانها عن النمو وتلتزم بحدود بينها وبين جارتها ، لا تتعداها أي شجرة من الأشجار ، وكأنها تتحاشى لمس بعضها ، لترسم بذلك لوحة بصرية فاخرة إضافة إلى البعد الشاعري أو لنقل الأخلاقي الذي يصوره هذا المشهد!

- هذه ليست إحدى دعاباتك ، أليس كذلك يا وعد؟

- لا ليست دعابة ، تستطيع التحري بنفسك عن الموضوع ، وأعرف أنك ستفعل!

- لا ، هذا ليست اختصاصي ، ولكنه شيء يدعو للإعجاب إن صح!

- الظاهرة مُثبتة علميًا!

- لكن بالتأكيد ليست سلوكًا شجريًا معتادًا ، وإلا ما كان أدهشني الأمر ، على الأقل الأشجار التي أعرفها لا تملك هذا النوع من التهذيب!

- لا ليس لدى كل الأشجار ذلك النوع من الخجل ، فللشجر سلوكيات متنوعة كالبشر تمامًا ، ودائمًا هنالك أسباب خلف كل سلوك!

- حقًا ، وما هي الأسباب الكامنة خلف سلوك الأشجار هذا؟

- يفترض بعض علماء النباتات أن الأشجار تحافظ على

تلك المسافات بين أغصانها كي لا يكسر بعضها بعضًا ، فهذه المسافة تؤمّن للشجرة حال هبوب الرياح نوعًا من الحماية لها ولجاراتها ، بحيث تمنع اصطدام الأشجار ببعضها وبالتالي كسرها لبعضها!

- هذا شيء يدعو للدهشة ، وما الأسباب الأخرى المفترضة؟

- أيضًا هناك احتمال الحصول على أكبر قدر من الضوء ، فكما نعرف تحتاج الأشجار للضوء لتصنع غذاءها ، وحين تنمو بشكل عشوائي ستختلط الأوراق وتتشابك الأغصان ، ويحجب الظل الضوء عن بعض الأوراق فتصفر وتذبل وتموت ، فهي بهذا ترتب لنفسها ولغيرها فرصة الحصول على احتياجها من الضوء!

- تحليل منطقي!

- هناك احتمال آخر وهو حدوث العدوى بين الأشجار ، حيث تنتقل الحشرات الضارة بينها ، فتترك الأشجار مسافة لحماية نفسها وغيرها كذلك!

- أقنعتني حقًا ، وهو ليس بشيء مستبعد ، فحين نتأمل هذا النسيج الكوني الكبير يتجلى بوضوح الإتقان الإلهي الذي يقف خلف كل هذا ، ولكن يدهشني أيضًا أنكِ اتخذتِ الأشجار قدوة لكِ في أمر عاطفي أيضًا ، لم يكن يبدو عليكِ هذا القدر من الرغبة في التنظيم ، لا سيما التنظيم العاطفي!

– لم أتخذ الأشجار قدوة ، كان حديثًا جرّ حديثاً لا أكثر ، بشأن العاطفة ما زلتُ عند رأيي ، فكل احتراز ضدها لا يجدي ، وكل تنظيم لها هو نوع من القتل ، أنا لا أتحدث عن العاطفة كشعور ، بل عنها كسلوك!

– في النهاية الشعور ينعكس على السلوك ، لا سيما حين نتكلم عن الحبّ ، لا يمكن فصل الاثنين عن بعضهما ، وبالمناسبة أنا لستُ ضد المساحات الخاصة والشخصية للإنسان ، هي حاجة ضرورية أتفق بشدة معكِ ، ولكني ضد الحواجز بين المحبين ، والاختباء خلف الصمت حين يكون البوح سيد الموقف!

– لا يوجد حواجز بيننا ، لم أشعر بها حتى قبل أن يدخل الحب بيننا ، كنتُ دائمًا تلقائية معكَ يا كريم!

– يبدو أنني صرتُ طماعًا ، لعل مردّ هذا لكوني لا أكتفي منكِ يا وعد!

– أفهم ذلك ، إنه يحدث في قلبي أيضًا ، تلك الرغبة اللامحدودة في الوجود ، والقرب ، وحتى ذلك الاهتمام الشديد الذي يستحوذ عليّ تجاهك ، حتى يفقدني اهتمامي بما عداك ، إنني أفهم رغبتك في المزيد ، أفهم ذلك الجحيم من الشوق الذي يهتف بكَ : «هل من مزيد؟» رغم كل اللحظات التي تملأه بها ، الحبّ هو عدم اكتفاء لا نهائي ، شوق ممتد على مدى البعد ، وكثيرًا على مدى العمر .

- يعني أنكِ أيضًا تشعرين بذلك الالتياع الذي يحوّل لحظات نومكِ إلى سلسلة من الأحلام ، يجعل الوقت لا يمر من دون أن تدفعه رسالة منكِ إلى الأمام ، يجعله يتثاقل أكثر كلما اشتهيتُ سماع صوتكِ ، يجعله يزحف كلما ظمأت عيناي إلى رؤية وجهكِ؟

- أشعر بذلك بقدرك وأكثر!

- هذا يعني أنني لن أحلم وحيدًا بعد اليوم!

- لستَ وحيدًا أبدًا ، تذكر دائمًا أنني أناصفك كل ما تشعر ، إنني دائمًا في صدرك حيث المسافة صفر .

- وتذكري أنكِ وحدكِ في قلبي ، أرضه لكِ وسماؤه لكِ ، لا حاجة بكِ إلى إفساح المسافة لغيرك ، أحب أن تتفرعي دائمًا وتملئي كل جزء مني .

- سأفعل .

وقد فعلتِ ، وما أكثر ما فعلتِ!

صبيحة هذا اليوم بدا أن هشاماً قد فكَّرَ كثيراً بما قالَه له ماهر البارحة! وتفكيرٌ طويلٌ كان من الطبيعي أن يَجُرَّ أسئلة أخرى ، شخصياً كنتُ أنتظرُها باللهفةِ التي كنتُ أنتظرُ فيها إجابات ماهر!

كان هشام متلهفاً ليبدأ ، ثمة شيء في أعماقِ نفسه كان يُخبرُه أن ماهراً قد كسبَ الجولة الأولى من النقاش ، وبالعادةِ فإن المغلوب فيه غريزة التعويض ، وبالفعل ما كادَ ماهر أن يجلسَ في كرسيه ، حتى بادره هشام قائلاً : ما رأيكَ أن نبدأ؟

– الكرةُ في ملعبك ، سدِّد حيث شئت!

– لو سلّمنا جدلاً أن الله موجود ، وأنه كما تقولون لا يُدركُ بالحواس ، وأنه قد أرسلَ أنبياءً ليدُلُّوا الناس عليه ، ألا ترى معي أن ما تقولونه عن أوصافِ الله لا يليقُ أبداً بالكمالِ الذي تنشدونه فيه؟

– وكيف هذا؟

– حسناً ، سأخبرك ، أنتم تقولون أنّ الله يعلمُ عدد ورق الأشجار ، وعدد ماء البحار ، وعدد الرمل على الشواطئ ، لا ترفع دابة قدمها إلا بعلمِه ولا تضعها إلا بعلمه ، يوحي إلى النحلِ أن يتّخذَ من الجبالِ بيوتاً وأن يصنعَ العسل ، إذا مات ظالمٌ تقولون أن الله قد انتقمَ منه ، وإذا نجا مؤمنٌ تقولون أن

رحمةَ الله قد أنجته ، إذا مرضَ أحدُنا فهذه مشيئة الله ، وإذا شُفي فهذه مشيئته أيضاً ، إنه مطلع على ما في الأرحام ، يكتبُ أرزاقاً وآجالاً ، لا ينام وليس له ولد متفرغٌ تماماً لكل شيء ، ألا تراها منقصة أن يقوم الرب بكل هذا؟!

– على العكس تماماً ، إنَّ هذا هو عين الكمال ، وما عداه هو عين النقص!

فكأنك تقول على الرب أن يكون عاجزاً وجاهلاً وغائباً ليكون جديراً بالربوبية!

– لا ، متى قلتُ هذا؟

– أنتَ لم تقله بالحرف ، ولكنك قلته بالمعنى!

تأخذ علينا أننا نقولُ أنه يعلمُ عدد ورق الأشجار ، وعدد ماء البحار ، وعدد الرمل على الشواطئ! مع أنّ هذا دليل على عظمته وقدرته وعلمه ، هل تريد رباً يخلقُ الأشجار ويجهلُ ما فيها ليكون جديراً بالربوبية ، ويخلقُ البحارَ ويجهلُ ما تحتويه ليكون جديراً بالربوبية ، ويخلقُ الشواطئ ويجهلُ عدد رمالها وما يعيشُ فيها ليكون جديراً بالربوبية ، عجيبٌ أمركَ إذ نقول لكَ أن ربنا يعلم كل هذا ، فتقول لنا : ربكم ليس كاملاً كان عليه أن يجهلَ أمر ما خلقَ ليكون كاملاً!

أنتَ بهذا المنطق كمن يقولُ إن فلاناً ألّفَ كتاباً وهو لجهله يحفظُ كل حرفٍ فيه ، كان يجب أن يكونَ عالماً وينسى بعض ما خطّتْ يده!

منطقٌ عجيب أليس كذلك!

ثم أين المنقصة في أن يخلقَ الله الخلائقَ ثم يدلَّ كل واحد منها على الغاية التي لأجلها خلقه ، وعلى الوظيفة التي أُوكِلَ له القيام بها ، نعم نحن نقول أنه خلقَ النحل وعلّمها صنع العسل ، وخلقَ الطيور وعلّمها كيف تهاجرُ صيفاً وشتاءً لتنجو بنفسها ، وخلق أسماك السلمون وعلّمها كيف تسبحُ عكس التيارِ لتستمر جيلاً بعد جيل ، أين المنقصة في هذا ، وكأنك تريدنا أن نقولَ لك إن ربنا خلقَ الخلائق ثم قال حسناً لقد انتهى دوري هنا ليبحثْ كل واحد منكم عن وظيفةٍ تناسبه ، وليخترْ عملاً على مزاجه فأنتم تعلمون أكثر مني ما يُناسبكم! عجيبٌ كيف لا يرضيكَ هذا الكمالُ في ربنا ، وتقول : لو كان فيه نقص لآمنتُ به معكم!

أنتَ بهذا المنطق كمن دخلَ على نجّارٍ في ورشته ورأى أنه قد صنعَ طاولة فسأله عن وظيفتِها ، فقال له : هذا لأجل أن نجلسَ حولها لنأكل أو لندرس ، فقال عنه : يا له من نجارٍ فاشلٍ كان عليه أن يصنعَ الطاولة دون أن يدري لماذا صنعها!

ثم أين المنقصة في أن لا ينام الله ، وأن لا يكون له ولد!

أنت تقيس المخلوق على الخالق وهذا خطأٌ قاتل!

إن بعض صفات الكمالِ في البشر هي صفات نقصٍ لو كانت في الله ، لهذا نزَّه نفسه عنها!

إن الإنسان العاجز عن الإنجابِ يُعاني نقصاً ما ، يكفي أنه

حُرِمَ ما يُريد ، أما الله فقد نزَّه نفسه أن يكون له ولد لا عن عجزٍ وإنما عن قدرة!

إنّ الذي خلقَ كل شيء قادرٌ من بابٍ أوْلى أن يخلقَ ولداً له ، ولكنك تريد أن تُملي على الله ما يفعل وما لا يفعل ، أنتَ كأنما تقول فليتخذْ ولداً لأعبده ، تريدُ أن تُفصِّلَ رباً على هواك ، وكأنك خلقتَه لا هو الذي خلقك!

والأمرُ لا يختلفُ كثيراً في مسألةِ النوم ، نحن يُجافينا النوم قهراً ، بسبب مرض أو قلق أو خوف ، فعدم النوم هنا صفة نقص فينا ، أما عدم النوم عند الله فهو قمة الكمال والحضور ، لماذا على منطقك أن يقول : نَمْ أيها الرب واستَرِحْ لأعبدك ، أما ما دمتَ لا تنام ولا يغيبُ علمك لحظةً فلن أعبُدك ولن أقر بربوبيتك!

ألا ترى يا هشام أننا ندعوكَ إلى ربٍّ كامل ، فتقول لنا : ليتَهُ كان أقل كمالاً!

نحن لا نُسيءُ إلى ربنا بمعتقدنا عنه ، نحن نُنَزِّهُه ونُقَدِّسُه عن كلِّ نقص ، ونعترفُ بقدرتِه على كل ذرة في هذا الكون!

نعم إنه يعلمُ ما في الأرحام لأنه الرب ، ونعم يكتبُ الرزق والأجل ، لأن رزق العباد بيده ، وأعمارهم بيده ، أتريدُ أن يقولَ للنُّطفةِ اخلقي نفسك كيفما شئتِ ، ذكراً أم أنثى على هواكِ لا علاقة لي بك ، وليَعِشْ هذا الإنسان ما شاء وليمُتْ متى شاء ، أنا ربٌّ لا أعلم ولا أقدر ولا أرزق ولا أحيي ولا أُميت!

لم يكن عليكَ أن تجادلنا في ربنا وهو بهذا الكمال ، كان

أجدر بك أن تناقشَنا وتجادلَنا فيه لو قلنا أنّ فيه ما تريده أنتَ أن يكون فيه!

المنطقُ يقــولُ إننا لو قلنا لك إن الله لا يعلم عــدد ورق الأشجار أن تقولَ لنا كيف بربٍّ يخلقُ ولا يعلم ، لا أن تقولَ لنا كيف يخلق ويعلم!

المنطق يقول إننا لو قلنا لكَ إن النحل قررَت من تلقاءِ نفسه أن يصنعَ العسل أن تقول لنا ولماذا لم يجعل له ربكم وظيفة يضعها هو له ، لا أن تقول لنا كيف يخلقُ المخلوقات عن حكمةٍ مُسبقة لتقوم بدور أراد لها أن تقوم به!

المنطقُ يقول إننا لو قلنا لكَ أن ربنا ينام أن تقولَ لنا ومن يُدَبِّر شؤون الكون حين ينام ، وكيف تعبدون رباً يغيبُ علمه وسمعه وبصره عن مخلوقاته؟ لا أن تقول لنا لماذا يبقى الله مطّلِعاً على كل شيء كل لحظة؟!

هذه كانت إجابة ماهر يا وعد ، تعلمين كما أعلمُ أن أمارات الدهشة التي ارتسمَتْ على وجهِ هشام كانتْ كأنما تقول : حسناً يا ماهر لقد كسبتَ هذه الجولة أيضاً!

لم ينطقْ بكلمة ، ولم ينبس ببنتِ شفة ، صمتَ بُرهة ، ثم هزَّ رأسه قائلاً : اتفقنا أن أفكرَ في ما تقوله لي

فقال له هشام : وأنا لا أريد منك أكثر من هذا!

لا أعرفُ حقيقة ما الذي دارَ في رأسِ هشام لحظتذاك ، مُؤكدٌ أن عاصفة من الأفكارِ كانت تحتدمُ في عقله ، ليس سهلاً

على المرء أن يأتيَ أحد ويهدمَ شيئاً من أفكارِه ومعتقداتِه بغض النظر عن صواب هذه الأفكار أو خطئها ، ولكن ما كنتُ أعرفه يقيناً أن هشاماً لن يستسلمَ عند هذا الحد!

وبالفعل لم يَطُل الوقت حتى صدقَ حدسي ، ها هو هشام يقول : حسناً يا ماهر ، أنتم تقولون أن اللهَ هو خالق كل شيء ، أليس كذلك؟

- طبعاً!

- وكذلك تقولون أن الله رحمن رحيم ، وأنه من أسمائه الرؤوف والسّلام ، أليس كذلك؟

- أجل نقولُ هذا ، ونؤمنُ به . . .

- ما دام ربكم هو خالق كل شيء فهو الذي خلقَ الزلازل والبراكين والجراثيم التي تفتكُ في أجسامِنا ، وهو الذي خلقَ الألم والأوجاع التي تنهشُ الصغير والكبير ، وهو الذي خلقَ العواصف والزمهرير والرياح التي تعيثُ فساداً في المزروعات والممتلكات ، فكيف بربٍّ رحمنٍ رحيم ، ورؤوف وسلام أن يخلقَ كل هذا الشر الموجود في العالَم ، أية رحمة في أن يُسلطَ السرطان على جسدِ طفلٍ غضٍّ طري ، وأي سلام في أن يثيرَ البراكين لتحرق بحممها النّاس والطبيعة ، أي عدل في أن يتركَ الظالمين يقتلون المظلومين؟ هل عندكَ إجابة على كل هذا التناقض فيما تقولونَه عن الله من رحمةٍ وعدلٍ ورأفةٍ وسلام وما ترون من الشر الذي خلقه؟!

- بالطبع يا هشام لدينا إجابة عن كلٍّ هذا ، ولكن لِيَكُنْ صدرك رحباً ، فقد أَثَرْتَ مسألةً مُتشعِّبةً تحتاجُ إلى تفصيلٍ كثير!

- صدري رحب ، خُذْ وقتك بشرط أن تكون مُقنِعاً ، لا أريدُ كلاماً إنشائياً لا يسمنُ ولا يغني من جوعٍ بحسب تعبيرِ كتابكم!

- حسناً ، لك هذا! سأروي لكَ أولاً قصةً جاءتْ في القرآن الكريم ستُلَخِّص لكَ كثيراً عن مفهومنا نحنُ للخيرِ والشر ، ثم أجيبكَ عن كل ما أثرتَه من أسئلة ، فهل عندكَ مانع أن تسمع؟

- كُلِّي آذانٌ صاغية

- سُئِل موسى عليه السلام عن أعلم أهل الأرض ، فقال : أنا أعلمُ أهل الأرض! فأوحى الله إليه أنكَ لستَ أعلم أهل الأرض ، هناك من هو أعلم منك!

فطلبَ موسى من ربه أن يدلَّه على هذا الذي هو أعلم منه ليذهب إليه ويتعلم منه ، فأخبرَه الله بالمكان الذي يجده فيه ، وبالفعلِ سارَ موسى عليه السلام يقطعُ الفيافي والقفار ليتعلم ، ثم شاءَ الله أن يلتقيَ الرجلان ودارَ بينهما حوار ، قال موسى عليه السلام للرجل : أنتَ الخضر؟

قال : نعم ، فمن أنت؟

- أنا موسى .

- موسى بني إسرائيل؟

- أجل ، وقد جئتُ أتعلمُ منكَ!

- يا موسى إنك على علم علمَكَ الله إياه لا أعلمه ، وإني على علم ٍ علمني الله إياه لا تعلَّمه!

- لا بد أن أصحبكَ حتى أتعلم منك!

- إن صَحِبتَني فلا تسألني عن شيء حتى أخبرك به!

- لكَ هذا!

فمرَّ قوم في سفينةٍ لهم ، وعرفوا الخضر ، فحملوهما بغيرِ أُجرة مجاناً ، ثم والسفينةُ في وسط البحر ، عمدَ الخضُر إلى لوحٍ من ألواح السفينة فنزعَه من مكانه!

فقال له موسى : قوم حملونا بغيرِ أجرة ، تعمد إلى سفينتهم فتُتْلِفها لهم؟

- ألم أطلب منكَ أن لا تسألني عن شيء حتى أحدثك عنه؟

- أعتذرُ عمّا بَدَرَ مِنِّي!

ثم سارَ الرجلان حتى أتيا على أولادٍ يلعبون ، فأخذَ الخضر ولداً منهم وقتله!

فقال له موسى : طفل صغير بلا ذنب تعمدُ إليه فتقتله؟!

- ألم أطلب منك أن لا تسألني عن شيءٍ حتى أحدثك عنه؟

- أعتذرُ ، ولن يحدثَ هذا ثانية ، وإن سألْتُكَ بعدها فلا تُصَاحِبني!

ثم أكملا سيرهما حتى إذا وصلا إلى قريةٍ كل أهلها بخلاء ، لم يتركا باباً إلا طرقاه لأجلِ الطعامِ والماءِ فلم يَقُمْ

بواجبِ الضيافةِ منهم أحد ، فرأى الخضرُ جداراً يوشكُ أن يقعَ ، فقام إليه فأقامه!

فقال له موسى : لو اتخذتَ أجراً على هذا العمل لكُنّا اشترينا به طعاماً!

– هذا فراق بيني وبينك ، ولكني سأُحدِّثك قبل أن نفترقَ عما رأيتَه مِنِّي!

إن السفينة هذه كانت لأُناسٍ مساكين يعملون في البحر ، وكان وراءهم ملكٌ يسلبُ الناسَ سفنهم ، ولو أتى ووجدَ سفينتهم سليمة ، لأخذَها منهم وألقاهم في البحر ، ولكني أفسدتُ شيئاً فيها ، فجاءَ الملكُ فرأى خرابها فتركَها لهم ومضى!

وهذا الغلام هو ابن رجل وامرأة مؤمنين ، وقد علمَ الله أنه إن كبرَ فسيكون شقياً كافراً يفتنُ أبويه عن دينهما ، فأخذناه رحمةً به أن يكبرَ فيطغى ، ورحمةً بأبويه وحفظاً لدينِهما!

وهذا الجدار فهو لولدين يتيمين ، كان أبوهُما من الصالحين ، وكان تحت الجدارِ كنز ، فلو سقطَ الجدارُ لجاء أهل المدينةِ وأخذوا كنزهما منهما ، ولكن أقمتُ الجدار ليكبرا ويستخرجا كنزهَما بنفسيهما!

أعرفُ يا هشام أن هذه القصة قد تكون غريبة بالنسبة إليك ، ولعلكَ تريدُ أن تقولَ لي هل تنتظر مني أن أؤمنَ بهذا! في الحقيقة أنا لا يعنيني ما الذي تؤمنُ به ، أنتَ تسألني عمّا

أؤمنُ أنا به ، فاتركني أتابعُ كلامي لأشرح لك مفهومنا للخير والشر!

- حسناً تابع كلامك!

- لا شك أن أهل السفينة عندما رأوا الثقب في سفينتِهم اعتبروا الأمرَ شراً مُسْتطيراً وكأنهم لا يكفيهم فقرهم حتى يصيب الخراب مصدر رزقهم الوحيدة ، ولكن الله ابتلاهم بالشرِ الصغير الذي هو ثقب السفينة التي وصلوا بها إلى الشاطئ وأصلحوها ليُنجيهم من الشرِ الكبير الذي هو فقدُ السفينة ومصدر الرزق ، هذا ما نؤمنُ به! لطف الله حاضر حتى فيما نحسبه شراً ، أما لماذا يكون هناك ملك ظالم ولا يقضي الله عليه بدلاً من ثقبِ سفينةِ المساكين ، فهو أن هذه الدنيا لن تكون امتحاناً كبيراً ما لم يكن الناسُ أحراراً في فعلِ الخير وفي فعل الشر!

لو أنّ الله لم يجعل الناس أحراراً فكيف سيُقيم الحجة عليهم ، إن الإنسان المنزوع الإرادة لا يمكن أن يخوضَ اختباراً ، وهذه الدنيا اختبار نهاية المطاف ، ثم إن هذه الدنيا لم يبقَ فيها عادل إلى الأبد حتى يبقى فيها ظالم إلى الأبد ، بعضُ الخير يَجزي الله به في الدنيا وبعضه يَجزي به في الآخرة ، وبعض الشر يعاقبُ عليه في الدنيا!

أين فرعون والنمرود وطُغاة العالم الذين تسمع عنهم ، كلهم عند الله ، فتكَ بهم في الدنيا بعد أن أعطاهم الحرية

المطلقة في أن يختاروا الطريقة التي يعيشون بها في الدنيا ، ثم إنه سبحانه سيُقيمُ لهم محكمة عادلة يُلاقي المحسنُ جزاءَ إحسانه والمسيءُ وبالَ إساءته! انظر لنفسك أنتَ حر في أن تسرق أو تقتل ، وأنتَ حر في أن تكون طيباً وأميناً ، لو لم تكن قادراً على الاختيار لجئتَ تقول لي أي حكمة من وجودي وأنا بهذا العجز الذي لا أستطيع معه أن أفعلَ أو لا أفعل ، إن الله حين تركَ الظالم يظلم ، والقاتل يقتل ، ليس عن عجزٍ ولا عن قلةِ حيلة ، لقد شاءَتْ قدرته أن يكون الاختبار على هذه الشاكلة ، أنتَ تدخل امتحاناتك ولا تعاتب أساتذتك على الطريقةِ التي يضعون بها الأسئلة ، ولا تُقرِّر أن عليهم أن يسألوك عن هذا ولا يسألوك عن ذاك ، أنت تُسلِّمُ لهم بهذا لأنكَ طالب ولأنهم الأساتذة ، ولكنك لا تُسلِّم لله بهذا وأنتَ العبد وهو الرب ، أنتَ تريد أن تتدخلَ بأسئلةِ الامتحان بدل أن تنشغلَ بالإجابة عنها!

ولا شك أن والدي الطفل لما ماتَ ابنهما حَزِنا حُزناً شديداً ، هذا طبيعي ، الإيمانُ بالله لا ينزع عنا بشريتنا ، وقد بكى رسول الله ﷺ يوم ماتَ ابنه إبراهيم ، إن الله لا يريد منك أكثر من أن تكون إنساناً تفرح وتحزن ، تضحك وتبكي ، ولكنه بالمقابل يريدُكَ أن ترضى عن قدرِه واختيارِه لك في الحياة! لو كانت الدنيا نهاية المطاف ، وهي الحياة الوحيدة ، لقلتُ لك لقد كان قتلُ الطفلِ عدواناً وشراً مستطيراً ، ولكن لأن وراء

الحياة الزائلة هذه حياة حقيقية دائمة إما في جنةٍ أو في نار ، فإنّ في هذا الحزن الحادث فرحًا سيُنسيهم كل شيء ، وفي هذا الشر الظاهر خيرًا أكبر منه أضعافاً مضاعفة!

نحن نبكي عند الفقد لأن الفراق أليم ولكننا نصبرُ لأننا نعرف أننا نخوض امتحاناً ، الويل لمن رسبَ فيه والهناءة لمن تخطّاه بنجاح!

نحن نتوجّعُ عند المرضِ ولكننا نتعزّى في أن الله حين يطّلع على قلوبنا ويرى أننا على بابِهِ في المرضِ كما كنا على بابه في الصحةِ فكل شيء يهون في سبيلِ أن يرضى ، نحن عبيده ، وفي مشيئته ، نعلمُ أنّ الدنيا لا تلبث على حال ، في الخيرِ نحمدُه فيا سعد الحامدين ، وفي الشر نصبرُ ويا لحظ الصابرين!

ولعلّك الآن تسأل ما شأن الجدار؟!

يا لوفاء هذا الرب يا هشام ويا لرحمته ، يبعثُ نبياً ووليـاً صالحاً ليُقيما جداراً ليتيمين لأن أباهما كان صالحاً! أرأيتَ إلى أي حدٍّ يكترثُ لنا ، ويهتمُ بنا ، إنه يقول لنا افعلوا الخير وأبشِروا ، حتى بعد مماتكم أنا أحفظُ أولادَكم ، ما أغناه عنا ، وما أفقرنا إليه ، ولكنه رغم غِناه عنا لا يَزهد بنا ، يرعانا كأحسن ما تكون الرعاية ، ويُكرمنا كأحسن ما يكون الكرم ، يُخبرنا أن الخير الذي نصنعه لن يضيعَ عنده أبداً!

ثم إنك تسألني عن الزلازل والبراكين وكأن الأرض تشهدُ كل ثانية زلزالاً ، وتُخرجُ من أحشائها في كل لحظة بركاناً! من

يسمع كلامك يعتقد أننا نعيشُ على كوكبٍ مجنونٍ مضطرب ، والحقيقة ليست كذلك ، الأرضُ هادئة مستقرة ، العيش على ظهرها حُلو مأمون ، الأشجارُ تعطي الثمر ، والسنابلُ محمّلة بالقمح ، الطيورُ تضع بيوضها ، والأسماكُ تفقسُ والناسُ يتكاثرون!

إن الخير هو القاعدة والشر هو الاستثناء!

وإن الصحة هي القاعدة والمرض هو الاستثناء!

إننا نعيشُ سنوات طويلة في صحةٍ ورغدٍ ونمرضُ أياماً معدودة فلماذا علينا أن نسخطَ إذا مرِضنا ونقولَ أين هو الله الذي أمرضنا ولا نقول يا له من إلهٍ رحيمٍ أَمدَّنا بالصحةِ أعواماً!

ثم من قال أن هذا الشر الذي تتحدث عنه هو شر مطلق ، لو نظرتَ إلى الأمور بعمق وتفرُّس لاكتشفتَ أن وراءه خيراً كثيراً!

لماذا عندما يتلقّى الأطفالُ التطعيمَ واللقاحاتِ يمرضون وترتفعُ حرارة أجسامهم ، أليس لأن الطعم واللقاح هو جرعة مرض مخففة يحقنون بها الطفل الصغير كي يتعرفَ جسمه عليها ويستطيع مواجهتها إذا ما أُصيب بالمرض الحقيقي لاحقاً! كثيرةٌ هي الأمراض التي تُصبحُ بعدها أجسامنا أقوى وأصلب ، هذا ما يقوله العلم الذي تؤمن به يا هشام! أما لماذا يمرضُ طفلٌ ويموتُ فكأنك تريد أن تشاركَ الله في علمِه إما أن تعرف لماذا ، وإما فإنه لا يوجد رب وإن وُجد فهو رب شرير لا يستحق

العبادة! أي منطق هذا ، نحن نجهلُ كثيراً من الماضي ، ونجهلُ أكثر من الحاضر الذي نعيشُ فيه ، ورغم هذا نعيش ونُقِرُّ بعدم قدرتنا على الإلمامِ بكل التفاصيل ، فلماذا حين يتعلقُ الأمرُ بالله نريدُ أن نعرِفَ كل شيء! لماذا فعل الله هذا ، ولماذا لم يفعل ذاك ، لماذا أماتَ هذا ، ولماذا أحيا ذاك ، نحن نتحلّى بأدبِ العبدِ مع ربه ، وهذا ما يغيبُ عن أذهانكم يا هشام ، أنتم تريدون أن تحاسبوا الله كما يحاسب المديرُ موظفيه ، يريدُ أحدكم أن يكون رباً لربه!

مما نظنه الشر يخرج الخير الكثير يا هشام ، من البراكينِ نستخرجُ المعادن ، ومن الأرض المحيطة به تكون أكثر التربة خصْباً!

ثم إن الأمور تُعرف بأضدادِها ، لولا المرض ما عرفنا قيمة الصحة فحافظنا عليها ، ولولا الحروب ما عرفنا قيمة السلم فعملنا له!

أما أنك تريد حياة هانئة لا مرض فيها ولا حروب ولا زلازل ولا براكين ولا موت ، فنحن نقول لك هذه الحياة موجودة فعلاً ولكن ليس هنا وإنما في الجنة ، أما هذا الكوكب فقد خلقَه الله على هذه الشاكلةِ امتحاناً واختباراً عليكَ أن تخوضَه بشروطِ من خلقه لا بشروطك أنت!

بقِيَتْ نقطة أخيرة في هذا المجال يا هشام ألا وهي أن شعورك بوجود الشر دليل على وجود «برمجة» مسبقة داخل

نفسك تجعلك تميز بين الخير والشر، وبين العدل والظلم، فلو كنتَ مجرّد مادة لما كان عندك تمييز بين شر وخير، وهذا دليل على وجود مَن «بَرْمَجَ» هذه المفاهيم في نفسك، ألا يقول صاحبك «داوكنز» في كتابه «River Out Of Eden» إن الكون في حقيقته مجرد مادة بلا شر ولا خير!

عند هذا الحد من كلام ماهر كنا قد شارفنا على الوصول، ولكن ليسَ لهذا السبب لم يكن لدى هشام مُداخلة أو تعقيب، صُرْنا جميعاً نفهمُ قانون اللعبةِ بينهما، هشام يسأل، وماهر يجيب، ثم يُفكرُ هشام بما قاله ماهر دون أن يخبرَنا أين وصلَ في تفكيرِه، أو إلى أي عمق وصلَتْ كلمات ماهر فيه، ولكن ما كنا نعرفه جميعاً أن اللعبةً لم تنتهِ عند هذا الحد، وأن هناك جولة نزال أخرى!

في صباح آخر ، مدفوعًا بلهفتي التي صارت عادة منذ عرفتكِ ، صعدتُ الحافلة ، وكلي شوق لرؤيتكِ ، الطريقُ منذ صعودي إلى الحافلة إلى لحظة صعودكِ كانتْ أطول طريقٍ في العالم! تخيلي يا وعد إلى هذه الدرجة كنتُ أشتاقُ لكِ!

شيءٌ مفاجئ حدث ذلك اليوم ، صعدتِ إلى الحافلة ، وبحركة لا إرادية أفسحتُ لكِ لتجلسي بجانبي ، ولكنكِ تخطيتني ، وجلستِ بجانب امرأة كان المكان بجانبها شاغراً .

نظرتُ إليكِ مستفهمًا ، فكانت نظرتكِ هادئة لا توحي بشيء ، ثم ابتسمتِ لي وتحولتِ ببصرك إلى حقيبتكِ ، وبدأتِ تفتشين عن شيء ما ، فواصلتُ طريقي إلى مقعدي بصمت ، بعد جلوسي بدقيقة وصلتني رسالة منك تقول : سأخبرك لاحقًا بكل شيء!

تحولت دهشتي إلى قلق ؛ ماذا حدث فجأة؟

أجبتكِ ردًا على رسالتكِ : هل يجب أن أقلق؟

بعد دقيقة جاء جوابكِ : لا أبدًا ، لنلتقِ في مكان آخر غير هنا ، لديّ ساعة فراغ عند الثانية ظهرًا ، هل يناسبك أن نلتقي؟

أجبتكِ : أجل ، أين ألقاكِ؟

حددتِ لي مقهى بالقرب من المصرف الذي تعملين فيه ، وبالكثير من الأسئلة والانتظار مضى أول النهار ، لم أفهم سرّ

هذا القلق الذي وقعتُ فريسة له ، ولم يكن لديّ رغبة لمشاركة أفكاري مع أحد ، حتى مع إلحاح محمد الشديد على معرفة ما بي ، إذ كان لا يغفل أبدًا عن حالة من حالاتي ، لكنني في حالات القلق غالبًا ما يستحوذ عليّ صمت كليّ ، وهذا ما يجعل محمد ينعتني بالبغيض حين أدخل في هذه الحالة .

كنتُ في المقهى قبل الثانية بخمس دقائق ، فقد تخليتُ عن محاضرتي الأخيرة وخرجتُ لألقاك ، وإذا نظرنا لحالة الشرود التي كانت تسيطر عليّ فأنا لم أكن حاضرًا حتى فيما قبل الموعد من محاضرات!

جئتِ متأخرة خمس دقائق عن الموعد ، ابتسمتِ كالعادة حين رأيتني ، وجئتِ تنشرين ذلك العطر الذي ينعش رئتيّ في كل مكان تعبرينه ، وقفتُ تلقائيًا حين رأيتكِ تتقدمين نحوي ، ثم قلتِ بمجرد أن جلسنا : هل أنتَ هنا منذ وقتٍ طويل؟

تصنعتُ اللامبالاة لأعطي انطباعًا آخر غير اللهفة المزعجة التي تسيطر عليّ ، فقد بدت لي سخيفة جدًا أمام هدوئك الشديد ، ثم قلتُ : بضع دقائق فقط .

- جيد ، خشيتُ أني تأخرتُ عليكَ ، كيف كان يومك؟
- على ما يرام ، يوم جامعي روتيني ، ماذا عنكِ؟
- روتين الأعمال المزدحمة .
- حسنًا!

لم أكن قادرًا على الانتظار أكثر ، وقد كانت تلك المقدمات

تبدو لي من دون داع ، لماذا نجلس كالغرباء نتصنع البروتوكلات العامة ، ونحن لا نشعر بأي أهمية لذلك!

- حسنًا ، أخبرتكَ أن لا داعي للقلق ، لم يحدث شيء سوى أننا غفلنا عن كون الحافلة تجمّع بشري وليست مكانًا خاصًا بنا ، وفِي كل مجتمع تتحول الألسن إلى مقصات مباشرة من خلف أي رجل وامرأة يلتقيان باستمرار ، بالأمس بعد مغادرتك الحافلة جلست بجانبي إحدى النساء الكبيرات وقالت لي : هل ثمة رابط بينكِ وبين هذا الشاب؟

لم أجد جوابًا في الحقيقة يا كريم ، إذ أن الرابط الشعوري مهما بلغت قوته ، لا يعني للناس شيئًا ، إنهم سينظرون للوثائق كما هو الحال دائمًا!

أعـــرف أنكَ لا ترغب أن تسيء إليّ ، ولكن الناس لا يعرفون ، وفِي نهاية المطاف مهما كان كلام الناس خاطئًا أو سطحيًا فإنه يمسني بأذى ، لأن الحديث عنا سيمس سمعتي ، وهنا كما تعرف سمعة الفتاة عبارة عن مجموعة من آراء الناس ، إذا قرروا أنها ساقطة فلا شيء يمكن أن يعالج آثار هذا القرار!

- أفهمكِ ، ومعكِ كل الحق في هذا ، أعترف أني غفلتُ عن هذه النقطة ، ولكن ليس سبب هذه الغفلة استهتاري بسمعتكِ ، ولكن ثقتي التامة بأني لن أمضي معكِ إلا في الطريق السليم لهذه العلاقة ، ربما لم أقل لكِ هذا من قبل ، ولكن فقط لأني أنتظر وقته المناسب ، أنا أريد أن تكوني المرأة

التي أتباهى بها أمام الناس ، أريدك دائمًا وأبدًا امرأتي التي أرافقها طوال العمر ، أن أعيش كل مراحل الحياة التالية معكِ ، إنني لا أفكر فيك إلا كزوجة لي!

– كريم . . أنا لا أقول لك هذا لأضطرك إلى عرض الزّواج عليّ ، إنني أوضح لك فقط القواعد التي تسير عليها العلاقات هنا ، ليس ثمة حاجة لتظهر لي مثل هذه الشهامة والنبل ، الأمر فقط دعنا نبتعد عن أنظار الناس ، على الأقل لنجعل لقاءنا خارج الحافلة!

– شهامة ونبل! أقول لكِ أريد الزّواج منكِ ، أرغب في قضاء عمري الباقي في محبتكِ ، أريدكِ معي دائمًا لا في الحافلة فقط أو خارجها ، لما تشعرينني أني أقدم لكِ معروفًا ، بينما الحقيقة هي أني من يسألك هذا المعروف!

– أنا فقط لا أريدك أن تتسرع في قرار كهذا ، أجد أنه من المبكر أن تتخذ مثل هذا القرار ، ربما ما زلت لا تعرفني جيدًا!

– أعرفكِ بما يكفي لأرغب في اتخاذك زوجة .

– الآن ثمة أولوية وهي أن تكمل جامعتك ، لا تقدم خطوة على أخرى فتتعرقل حياتك!

– لا تعارض بين الاثنين ، ثم من قال أننا ستتزوج فورًا ، لكننا سنضع اسمًا لعلاقتنا ، ألا يوجد مراحل للزواج؟ ألا يجدر أن يخطب الناس ليوضحوا نواياهم الصادقة تجاه بعضهم! ثم لم يبق على نهاية دراستي الجامعية سوى شهرين!

كان صمتكِ وارتباككِ ردكِ الوحيد على ما قلت .

- هل يمكنني أن أحصل على عنوان عائلتكِ؟

- لماذا؟

- ما هذا السؤال؟ لآتي مع عائلتي وأضع ما بيننا في موضعه الصحيح!

- عائلتي لا تعيش هنا ، إنهم يعيشون في الخارج!

- إذًا مع من تعيشين أنتِ؟

- أعيش مع بعض الصديقات في سكن مشترك .

- حقًا ، لم تخبريني من قبل!

- لم تسألني؟

- هذه أمور تشرحينها في حديثنا المستمر معًا ، وأنتِ كنتِ دومًا متحفظة!

- ليس تحفظًا ، لم أجد الفرصة لقول ذلك وحسب ، ثم لم أشعر بأهمية قول هذا .

- كل ما يخصك يهمني معرفته يا وعد!

- أظن أن موعد استراحتي قد انتهى ، يجب أن أغادر . . .

- لا بأس!

ثم نهضنا معًا ، غادرتِ أنتِ إلى عملكِ حيث كان على بعد أقدام بينما استقليتُ حافلة إلى المنزل

كنتُ قد جئتُ إليكِ بسؤال واحد فخرجتُ بألف ، حيرني كل شيء ، ردة فعلك ، ارتباكك ، تجهمك الشديد ونحن

نتحدث بأمر الزّواج ، أليس هذا هو ما يريده كل العشاق في هذا العالم؟

أن يجتمعا ، وكيف يكون الاجتماع إلا بالزواج!

أظن أن ثمة شيء غير صائب في الأمر ، لكن أين هذا الخطأ!

في المساء كنتُ قد بلغتُ ذروة الحيرة والتعب ، فبادرتُ إلى مهاتفتكِ ، كان الرنين يطول دون جواب ، ثم انتهى إلى عدم الرد ، عاودت الاتصال بعد بضع دقائق فوجدتُ أنكِ أغلقتِ الهاتف!

لا يمكن أن يكون هذا كله من أجل رفيقات السكن!

تنهدتُ أمام سيل الأسئلة الذي يغرق به رأسي ثم عزمت على الخروج برفقة محمد ، كان يجيب على الهاتف قبل الرنين ، أحيانًا أشك أنه بانتظار اتصال على مدار الساعة!

جلستُ صامتًا كالعادة ، فسألني بعد أن ملّ من انتظار أن أبدأ الكلام : هل تحتاج إلى تشجيع لتتحدث ، هاتِ ما عندك ، فأنا أعلم أن الشوق إليّ ليس دافعك الوحيد للاتصال بي!

- على الأقل بيننا من يدرك الأمور!

- لا تبدأ الندب الآن ، اسرد الأحداث!

- وعد تتصرف بغرابة يا محمد!

- كل النساء كذلك ، أخبرني عن الأحداث لا أفكارك حولها!

- اليـوم غـيّـرَت مكـان جلوسـهـا فـي الحـافلة بحـجـة كـلام الناس!

- معـهـا حق ، هل يعـقل أن تجلسـا كل هذه المدة جنبًا إلى جنب في حافلة تقلّ العشرات سواكما دون أن يتساءلوا؟

- وهذا مـا قلتـه لـهـا ، مـعكِ حق ، ولكـن الأمـر لـم يتـم حله بإقراري طبعًا!

- هي لا تريد إقـرارًا منك ، ببـسـاطة تريد الزّواج ، هذه هي الخطوة المنتظرة منك الآن ، استراتيجية الحب ثم المنعطف الكبير الذي تجد نفسك أمامه ، إما أن تنعطف وتغير حياتك أو تتجاهل وتكمل طريقك!

- ولكني طلبت منها الزّواج!

- ماذا؟

- قلت لها أني أريد الزّواج منها ، وهذه هي الحقيقة .

- إذًا ، رفضتك؟

- فعلتْ أسوأ من الرفض ، لم تعطني جوابًا مقنعًا ، شعرتُ للحظة كأن بيننا حاجزًا كبيرًا لا أستطيع معرفة سبب وجوده!

أتعـرف لطالمـا كـان ثمـة حـاجـز ، ربما كـنتُ لشـدة حـبـي لهـا أتغافل عنه أو أنسى وجوده أحيانًا ، ولكن ثمة شيء ، لا يمكنني معرفته عنها أو فيها ، غرابة من نوع ما ، تخيل أنها لا تعيش مع عـائلتـهـا بل مع رفيقـات سكن ، ولكن لماذا لا يمكنهـا أن تجيب على مكالماتي!

– هذا غريب ، ظننتُ أنكما تجاوزتما مسألة عدم القدرة على الحديث هذه ، عادة ما تكون النساء أكثر جرأة وإقدامًا حين يقعن في الحبّ ، هل يمكن أن تكون ما زالت تضعك تحت الاختبار!

– اختبار ماذا يا محمد ، أقول لك طلبت منها أن تتزوجني ، هل ثمة إثبات أكبر!

– ربما لا تجدك مؤهلاً للزواج ، ما زلت طالبًا في نتيجة الأمر!

– أنتَ تتحدث بذات السخف يا محمد ، هل يجب أن نتزوج فورًا ، عام من الخطوبة لن يكون فكرة سيئة!

– أنا أحاول أن أبحث عن الزاوية التي تنظر منها هي إلى الأمر ، لعلها لا تريد حياة تتطلب كفاحاً ، بمعنى أن هناك من يفصل بين الحب كشعور والحب كحياة ، ليس الجميع ينظر للأمر بتلك العاطفية التي نراها في الأفلام!

– أشعرتني أنني سأجعلها تعيش على الماء والملح ، بالتأكيد أني سأسعى لحياة لا تكون فيها المرأة التي أحب بائسة ، ثم أنا لستُ عاطفيًا يا محمد وأنتَ تعرف ، حتى وإن كنتُ أسعى للزواج من امرأة قلبي ، فهذا لا يعني أني لم أزن الأمر بعقلي ، لم يكن القرار باندفاع لحظة عاطفية بقدر ما كان يجسد قناعاتي في الحبّ ، إنني أرى أن للحبّ مآلاً وحيداً ولائقاً به وهو الزّواج ، وإلا لو لم أكن على تلك النية ، ما سمحتُ لنفسي أن أكون معها بهذا القرب وأظهر لها مني هذا الضعف!

– أفهمك ، ولكن عليك أن تفهمهما بقدر ما تحبها ، والفهم هنا ليس التفهم بل معرفة طريقة تفكيرها وكل ما يخصّ حياتها ، لأن هذا حقك كما هو حقها أن تعرف عنك أكثر من مشاعرك فقط ، لأن الزّواج في النهاية ليس مجرد وعاء تضعان فيه مشاعركما بل اتحاد حياتين ، وكل ما فيها من تفاصيل يجب أن تكون على بينة بها ، لذا أرى أن تجلس معها وتتحدثا عن كل هذه التفاصيل الغائبة والتي أنساكم الوقوف عليها اندفاع العشاق!

– هذا ما سيحدث ، لن أظل فريسة للحيرة أكثر من هذا ، غدًا سأضع النقاط على الحروف!

افترقتُ عن محمد بعدها ، ثم حاولت محاولة أخيرة الاتصال بكِ ، وكان هاتفكِ ما يزالُ مغلقاً ، فقررت أن أترك هذا الأمر للغد ، وأن أهرب منه إلى النوم ، حيث لا سبيل آخر سواه الآن .

في الصباح التالي لم يكن لكِ أثر في الحافلة ، هل لجأتِ للغياب الآن!

الهروب الدائم كلما أزعجكِ شيء هو أسلوبكِ الأمثل في التعامل معي ، ولكني هذه المرة قد شعرتُ بالغضب!

لم يكن لديك الحق في ممارسة هذا النوع من التعذيب عليّ ، لا سيما وأنتِ لا تملكين سببًا لفعل هذا ، هل تزدادين تعنتًا لأني أبدي لكِ هذا القدر الكبير من اللهفة؟

هل تدبرين عني لأني أقبل عليكِ بهذا القدر؟

هل هي تلك الخدعة القديمة ، الحبّ يتوهج تحت نار الحرمان!

لكن أليس ذلك مجرد رغبة في الممنوع؟ أن نحب شيئًا لمجرد أنه ليس في أيدينا!

أليس هذا فقط حبّ امتلاك لا حبّ صادق في أصله؟

إنني لا أشعر تجاهك بتلكِ الطريقة ، ليست مجرد لهفة الحصول على ما ليس بحوزتي ، بل إنني أحبّ فيكِ حضوركِ وقربكِ وحبكِ ، وتفاصيلكِ الصغيرة ، تلك التي لا ينتبه إليها أحد ، كالتجاعيد التي تشكلها ابتسامتك في زوايا عينيكِ ، والنبرة التي تغلف صوتكِ حين تتحدثين بحماسة عن شيء ما ، نبرة تجعل الكلمات تبدو كما لو كانت سكّرًا مذابًا!

يعجبني أن نتشارك الأشياء ، ذلك يجعل منها أكثر خصوصية ويمنحها معنًى مختلفًا ، يجعلها تعنيني كما لو كنتُ أنا من ابتكرها وليست فعلاً عامًا يفعله الجميع!

إنكِ أنتِ من يهمني لا تلك الطقوس التي يتعارف الناس عليها في العلاقات .

غيابكِ يزعجني الآن أكثر من أي شيء آخر ، وأجده مجرد هروب جبان لا مبرر له!

وصلتُ الجامعة ، كان كل شيء يسبب لي الضيق ، لكني أردتُ الانغماس في شيء لأخرج من هذه الحالة التي سببتها

لي ، فلم يكن يروقني أن أتحول إلى خيال بائس يتجول دون روح ، لذلك استغرقتُ طيلة النهار في إنجاز البحوث الخاصة بي ، وكان ذلك مفيدًا إذ توقفتُ عن تكرار تلك الأسئلة الفارغة التي لن يجعلها التكرار تنتهي إلى جواب بأي حال!

حتى حين سألني محمد عن التطورات ، كان «لا شيء يذكر» هو الجواب الوحيد الذي قلته ، ولم يلح ، فقد أدرك أني أبحث عن ضحية لأفرغ فيها توتر أعصابي ، لذلك تركني لما بين يدي .

ظلّ مقعدكِ فارغًا لثلاثة أيام ، وهاتفك على الجواب ذاته أيضًا ، لا يمكن الوصول إليكِ! هل هذا ما تريدينه حقًا!

ليكن إذًا!

في اليوم الرابع لم أعد أنتظركِ ولا أتلفتُ بحثاً عنك في الحافلة ، حتى أني وضعتُ احتمالاً أنكِ غيرتِ حافلتكِ ، ورقم هاتفكِ ، لأفهم أنكِ بهذا ترفضين الزّواج وترفضينني أيضًا ، كنتُ مشتاقًا إليكِ حقًا ، ولكني كنتُ أكثر من ذلك مستاءً منكِ ، ليس عدلاً تصرفك هذا ، ألا يليق بك أن تخبريني عدم رغبتكِ في المضي قدمًا في علاقتكِ بي! كنتُ أستحق احترامًا كهذا ، صدقًا كهذا ، لأني صدقتك كل شيء ، لم أكذب أبدًا ولم أهرب أبدًا ، ولم يهن عليّ قلبكِ ولا كبرياؤك يومًا ، كنت أرعاهما كما أرعى عينيَّ ، لأني أعرف أن شرف الحبّ يتجلى في حفظ الجانب الذي يأمننا منه أحبّتنا ، وأعرف أن قلوبهم

أوطاننا التي تستحق أن نذود عنها بكل ما نملك ، وكرامتهم هي شرفنا الذي لا يجب أن نسمح أن يُدنّس ، من يحبُّ لا يؤذي ولا يسمح للأذى أن يطال حبيبه وهو يملك أن يمنعه ، وكنتِ عندي أغلى من أن أسمح أن يمسكِ من الأذى قيد أنملة ، ولكني عرفتُ أنكِ ستسمحين بذلك لي ، عرفتُ أنكِ لستِ الحارس الأمين على قلبي وكبريائي ، لذلك قررتُ أن لا أتركهما دون حماية ، وأن أذود عنهما بنفسي!

في غيابكِ ، لم تكن المقاعد بجانبي فارغة ، كانت هناك حكاية جديدة دائماً ، لا يخلو أحدهم من قصة تدهشنا نحن الذين نتلقاها لأول مرة ، وهكذا نحن للآخرين أيضًا ، حكاية مدهشة حين نفضح أسرارها لهم!

هذه المرة كان يجلس بجانبي سيد الحكايا ، أحد أولئك الذين أغرقتهم الكلمات المتلاطمة في رؤوسهم ، فغلب على مظهرهم الصمت إلا قليلاً ، فلا أحد - كما تعلمين- صامت تمامًا ، إما أن يثرثر لسانه ، أو يثرثر عقله!

لم أفتح معه أي حديث بداية ، لكني كنتُ قد انتبهتُ له عدة مرات أثناء جلوسه في مقاعد مُقَابِلة من قبل أن نجتمع جنبًا إلى جنب ، فإما أن يكون منشغلاً بتدوين شيء ما على دفتره الذي يحمله معه دائمًا ، أو يستحوذ عليه شرود من يحاول تفكيك مسألة شائكة في رأسه ، وقد خطر لي أن يكون طالبًا جامعيًا أيضًا ، فمثل هذه الحالات تنتاب أصحاب الكفاح الدراسي أحيانًا .

لفتَ نظري بعض ما يكتبه في أجندته ، كان يبدو أنه يدون رؤوس أقلام لأمر يشغله ، أو لشيء خطر له فخشي أن يسرقه منه النسيان ، لكن العبارة لم تكن خاطرة ، بل كانت كما لو أنها تتمة حديث طويل ، أو جزء منها ، فقد كتب في

حاشية أسفل ورقة محتشدة بالكلمات : وبعد عامٍ ونصف جلبا طفلاً جميلاً لهذا العالم البشع!

فقلتُ له بعد أن أغلق الدفتر وعاد إلى الغرق في سكوته : هل أتدخل في أمر شخصي إذا سألتكُ عمَّا تكتب؟

التفت إليّ كمن انتبه للتو لوجود شخص إلى جواره ، ثم ابتسم قائلاً :

- كلا ، ليس شخصيًا كما آمل!

- كما تأمل؟

- أجل ، أكتب رواية ، والروايات لا تبقى شيئًا شخصيًا ، لا سيما بعد النشر ، وأنا أسعى للحصول على ناشر يقبل أن ينشر لكاتب لا يعرفه أحد .

- - وهل يجب أن يكون الكاتب معروفًا ليُنشر ما يكتبه ، أليس الأمر متوقفًا على جودة ما يكتب؟

- أغلب دور النشر تريد كاتبًا ذائع الصيت ، لتضمن المبيعات الجيدة ، في النهاية قليلون جدًا هم أولئك الذين يغامرون أو «يقامرون» حين تكون الخسارة جلية ، وهناك احتمال أن ينشر الكاتب على حسابه الشخصي حتى يصنع لنفسه اسمًا ، وميزانيتي الشخصية لا يمكنها تحمّل نشر ورقة ناهيك عن كتاب!

- لا بد أن هناك من يرغب في اكتشاف المواهب المغمورة ، لا تيأس!

– وأنا أسعى لاكتشاف هذا المكتشف!

قالها بضحكة ساخرة أظهرت نوعًا من الوسامة على ملامح وجهه النحيل ، فسألته قبل أن يعود إلى قوقعته : عمّ تحكي روايتك ، إن لم يكن في سؤالي إزعاجٌ لك؟

– تحكي عن كل شيء ، فيها الحب . . تلك الضالة المنشودة التي يبحث عنها الجميع ويهربون منها في نفس الوقت ، وفيها الألم ذلك المعلم القاسي الذي لا يتوانى عن تلقين دروسه بأسوأ الطرق وأشرسها ، وفيها الفقد ذلك الثقب الأسود الذي حين يبتلعك لن يتسنى لك الخروج من دون معجزة ، فيها بشكل عام النضال الإنساني المسمى حياة ، إن كل رواية لا يفترض بها إلا أن تكون قطعة من الحياة ، حيث تجتمع في داخلها كل الفصول حتى وإن اخترنا لها عنوانًا يؤطرها ويوجهنا إلى فكرة محددة .

استحوذ جوابه على كامل انتباهي فقلتُ أستحثه :

– هل لي بشيء من تفصيل؟

– أكتب في بعضها عن عاشقين لن يخلدهما التاريخ ، ولن تتداول الألسن اسميهما حين يمر بالحب الكلام ، لكن لعلها مرت على كثير من الألسن التي تسعى لنشر «فضيحة» على حد تعبير من ينظر إلى الآخرين من منصة قاضٍ يطلق الأحكام ، لأنهما لم يملكا قدرة تحويل حكايتهما إلى شعرٍ ، رغم أنهما ناضلا في الحب أكثر مما فعل قيس نفسه ، ولكن كما

يجب أن يكون النضال في الحب ، بالتشبث ومحاربة كل ما يقف في وجه اجتماعهما ، لم يتركا الأمر للقدر ، لقد صنعا قدرهما بنفسيهما ، لأنهما أدركا أن الحياة اختبار مستمر إذا لم نثبت فيه جدارتنا فإن الفقد الدائم سيلازمنا .

– شوقتني لمعرفة هذه الحكاية ، أهي وليدة الخيال أم الواقع؟ فمثل هؤلاء لا أظن أن لهم وجود بيننا!

– بل وليدة الواقع ، في الواقع من الدهشة ما يكفي ولكن اكتشافه يحتاج من يرى الأعماق ، ويسمع ما خلف الكلمات المعتادة ، الناس يخبئون الجمال الذي بداخلهم كالأسرار الخطيرة ، خشية الأحكام التي سيلقيها عليهم الآخرون ، أو سوء الفهم الدائم الذي يواجههم به العالم ، أو ربما فقط هم يريدون أن يعيشوا ما يشعرون دون استعراض ، في الغالب نحن نتمنى بدهشة أن نكون أصحاب مثل هذه المشاعر أو نعيش مثل هذه الحكايا ، ونلوم الواقع والعالم على عدم وجود نماذج كهذه في حياتنا ، مع أن اللوم يقع علينا وحدنا في هذا ، لم لا نكون نحن النموذج؟ لماذا ننتظر شخصًا خارقًا ليمنحنا دور البطولة في حكايته؟ إن فكرة الفارس ذا الحصان الأبيض أو الحسناء الخالية من العيوب التي نظن أنها تصنع الحكايا الصادقة هي أكبر خطأ نقع فيه ، إن العشاق الذي نجحوا في الوصول أو ماتوا في طريقه هم أشخاص مثلنا ، لا قوى خارقة لهم ، سوى أنهم أحبوا وصدقوا ولم يكونوا جبناء ولم يبرروا جبنهم بالواقع الظالم ، أو

قلة الأوفياء ، نحن الذين تبهرنا حكايات العشاق التي صنعتها أقلام الكتّاب أو المؤرخين ، نحن أنفسنا الذين نقتل المشاعر الجميلة بحجة المنطق والعقلانية ، ونسخر من أصحابها حين نلتقيهم ، ونهرب عند أول عثرة طريق أو عائق ، وهذا مما يدل على أنّنا نفضل ندب حظنا على المبادرة لتغييره .

- هذا صحيح ، ربما لأننا نبحث عن الكمال في العلاقات أو في المحبوب ، مع أن الحب الصادق لا يعميك عن العيوب ويريك الكمال ، بل يريك العيوب ولكنه يجعلك تراها بعين المحب لا عين الناقد .

- هذا ما يحدث في الغالب ، ولكن ثمة قلة لا تشبهنا ، هذه القلة تختبئ بعيدًا عن أنظارنا وأسماعنا لأنهم أدركوا أن المختلف بيننا يتم نبذه ، وتجريمه!

- لذلك تكتب عنهم!

- أكتب عنهم لأني أبحث عمن يغرّد خارج سرب العالم ، لأساعد صوته على الوصول ، كي يعلم الذين أحبطهم قبح النشاز السائد أن ثمة لحنًا جميلاً في الخفاء يستحق أن يعلو ، أو حتى لحنًا حزينًا ، يكفي أن يكون صادقًا ، ولا يكرر ما يقال عادة لمجرد أنه يُقال .

- أسمعني بعض هذا اللحن إذًا .

- بطلا حكاياتنا رجل وامرأة ، سعد وفريدة ، عرفا بعضهما بطريقة بسيطة لا تشبه أيًا من تلك المواقف الخارقة للعادة ،

بداية اعتيادية تشبه مثيلاتها من الحكايا في هذا العصر ، جمعهما حديث هاتفي عابر ، ما لبث أن تحول إلى أحاديث ، ثم صارت الأحاديث مشاعرَ ، بعد عام واحد من أول شعور ولد بينهما ، تقدم سعد لعائلة فريدة طالبًا إياها زوجة له ، تم رفضه للتقليد الجاهلي السائد القائل بأن العائلة ترفض أن تزوج بناتها إلا برجل يحمل نسبها ، في العادة ينتهي الأمر هنا ، يسلّم الرجل سلاحه بحجة الكبرياء أو بأنه عمل ما عليه ، وتصمت المرأة بحجة الخجل ، أو خوفًا من ردّ الفعل ، وتموت مشاعر وأحلام وقصة كانت لتكون جميلة ، وكان لها حقّ في الحياة ، لكن سعداً لم ييأس ، وفريدة لم تصمت ، أعلنت ببساطة أنها تملك حق الإدلاء برأيها في مسألة تخصها وحدها أو لنقل تخصها هي ثم ليأتِ بعدها الآخرون ، وعبّرت بوضوح عن رغبتها في الزواج بمن تحب ، أي بسعد ، وكان ردّ العائلة التقليدي هو تجريم الفتاة لفعلتها النكراء ، ووصفها بقلة العفة ونقص الحياء ، ثم معاقبتها بتزويجها بأول خاطب يطرق الباب ، ولا بد أن يكون ثمة ابن عم جاهزًا للمهمة ، ولكنها أصرّت على الرفض ، فضُيّق الخناق عليها كما يُفعل عادة ، وأوذيت في سبيل ذلك ، ولا أبالغ إن قلت أن الأذى لم يكن نفسيًا فحسب بل جسديًا أيضًا ، لكنها لم ترضخ! ولا سعد تركها ، لستة أعوام ظلّ يتقدم لخطبتها! تخيل أنه كان يأتي هو وعائلته كل بضعة أشهر فقط ليطلب الفتاة من أهلها الذين لم يقبلوا به ولن يقبلوا ،

لم يكن سهلاً ، لا سيما وهو يضع عائلته معه في الموقف ذاته ، ولكن لعل المفارقة تبدو جلية حين تنظر لطرفي النزاع ، أب يفعل ما بوسعه وأكثر ليجمع ابنه بالمرأة التي يحبها ، وعلى النقيض أب يفعل ما بوسعه ليعيق سعادة ابنته لسبب أقل ما يقال عنه أنه حمق وجهالة .

– حكاية مثيرة للدهشة فعلاً ، ولكن هذه الجرأة والعزيمة تدعو للدهشة أكثر ، هل استطاعا أن يجتمعا في نهاية المطاف!

– احتاجا لأكثر من ذلك ليجتمعا!

– ماذا فعلا؟

– قررا الزواج دون إذن العائلة ، بعد أن سلكا ألف طريق لإقناعهم وفشلوا ، اتفقا على أن تغادر فريدة المنزل خلسة ، كما يفعل الفار من سجنه ، وهكذا أخذها سعد ذات ليلة بعد أن نام سجانوها ، ولأنه رجل يعرف في أي مجتمع يعيش ، ويعرف كيف يسلك الطريق الصحيح مهما حاول الآخرون دفعه للانحراف إلى الطرق الأخرى ، وقطعًا لأي قيل وقال قد يمس حبيبته ، أخذها إلى بيت عائلته ، لتبقى بين أهله حتى يحل الصباح ويُعقد قرانهما ، وحين أشرقت الشمس كان أول عمل له هو الاتصال بوالدها ، إذ لم يتخل عن رغبته في الابقاء على الأمور في نصابها الصحيح حتى اللحظة الأخيرة ، أخبره أن فريدة في بيت أهله ، وأن القاضي سيزوجهما به أو من دونه ، لأن ما قام به من عضل تجاه ابنته يبيح لها الزواج من دون إذنه ،

ولكنه ما زال راغبًا في حضوره ومباركته ، كان يحاول جهده كي لا تشعر فريدة بالنقص لغياب عائلتها عن أهم لحظة في حياتها ، كان يعلم أنها وإن قاومت إظهار رغبتها في وجودهم إلا أنها في أعماقها ستتمنى أن لا تظل طرفًا وحيدًا ومنبوذًا ممن عاشت معهم كل ما سبق لها من عمر ، رضخ الأب أخيرًا ، ولكنه لم يكن راضيًا ، أما الأم ، تلك التي كان يفترض أن تكون الظهر المتين الذي يسند ابنتها ، والبئر الدفينة الذي تأوي إليه كل أسرارها ، فقد أشاعت بين الناس أن ابنتها العاقة فضحتها ، وأهانت وجه أبيها وأهلها ، وأنها هربت مع رجل غريب في منتصف الليل!

– لا يمكن أن تفعل أمّ هذا؟

– أجل الأمهات لا يفعلن ، ولكن من قال لك أن كل من ولَدَت صارت أمًا! الإنجاب عملية بيولوجية بحتة ، تستطيع أي أنثى القيام بها ، ولكن الأمومة شيء آخر ، فمنهن من لا تدرك شيئًا من الأمومة بل يغلب على ظنها أنها صك تملك يبيح لها تحويل حياة الأبناء لجحيم ، وهذا ما كان في حالة صاحبتنا ، بدل أن تحتوي ابنتها ، وتشاركها همومها ، أصبحت همًا آخر لها ، وهكذا أصبحت القصة الشائعة : الفتاة التي فضحت أهلها بالهروب مع رجل! وانتقلت القصة من فم إلى آخر ، كلّ يُلونها بما يروقه من إضافات ، والحقيقة لا صوت لها ، لا أحد يعرف عدد المرات التي وقف فيها سعد على الأبواب كما يليق برجل يحب ،

ولا عدد المرات التي ضُربت فيها فريدة من أخ مستبد أو أبٍ جاهل ، ولا مقدار الدموع التي ذُرفت في ليالي الأختناق واليأس ، ولا عدد المخارج التي جاهدا ليسلكاها دون جدوى ، لا أحد يهتم أن يعرف ، لأن الجميع يحب أن يكون جلادًا ، لأن الفضائح تُحيي مجالس الغيبة أكثر من الحقائق ، ولأنه فعليًا لا أحد يهتم بمعاناة الآخرين ، الجميع يبحث عن نصيبه من الثرثرة!

– لهذا ترغب أن تكتب عنهم ، لتجعل للحقيقة صوتًا!

– ربما ، وربما فقط لأني أحتاج لمادة أكتبها ، أنا لستُ نبيلاً أيضًا ، لعلي أبحثُ عن مجد الثرثرة أنا الآخر ، لذلك أغلفها بأهداف نبيلة تمنحها شرعية ما ، ولكني أؤمن أن الإنسان لا يفهم موقف غيره ما لم يجربه ، وكثيرون لم يمروا بالتجارب التي تشرح لهم كيف كان يشعر غيرهم ذلك الذي أشبعوه لومًا ، لذلك جاءت الكتابة ، لتجعلنا ندرك ما لا ندركه ، ولكن على الكاتب أن يُجيد شرح الموقف من جميع زواياه ، أن يملك تلك القدرة على تقمص موقف الشخصية التي اختار أن يحكي حكايتها ، ليقرأ الناس ما خلف التصرفات ، ما وراء العناوين المتداولة في المجالس ، تلك التي بغالبيتها تمتلئ بالافتراء وقلة البصيرة ، لأن لا شيء كما يظهر لك من الخارج ، لا أحد بالسوء الذي تظن ، ولا بالجودة التي تعتقد ، الناس التي تصنف المواقف والأفعال كأبيض وأسود فقط هم في الغالب مصابون بعمى الألوان!

- صدقت! لقد جعلتني هذه الحكاية أعيد الكثير من حساباتي ، والكثير من تقييماتي لما سبق وسمعته ، وبالتأكيد لن أكون نفس السامع القديم بعد الآن! غير أني معجب بشجاعة بطلي قصتك ، لقد امتلكا تلك الشجاعة التي لم يمتلكها قيس نفسه!

- لقد أحبّ سعد ليعيش مشاعره ، لا ليكتبها ، إنني أكاد أجزم أن أصدق ما يعاش لا يمكن أن يُكتب ، ببساطة لأن من يعيش حبه لا يجد وقتًا ليكتبه ، ولأن المشاعر وقود ، إما أن نستخدمها للأقوال أو الأفعال ، كان سعد يكتب قصيدته العظمى حين كان يقف على باب حبيبته طارقًا إياه لا متغزلاً بجدرانه ، كان يخلّد حبه بالوقوف في وجه كل من أراد أن يأخذ منه حبيبته ، لا بنظم قصيدة يسأل فيها زوجها إن كان ضمّ حبيته أو قبّل فاها! إن الهزائم التي يكون جبننا أو تراجعنا سببًا فيها لا يمكن أن تكون أمجادًا ، ولو ظلّ يتغنى بها الناس ألف عام بعد فنائنا .

- ألست متحاملاً قليلاً على المجنون؟ ألا يكفي أنه فقد عقله وحياته في سبيل حبه! ربما لكل إنسان طريقته في الحب ، أنت تقع فيما كنت تنهى عنه منذ قليل ، الحكم على الآخرين دون معايشة ما مروا به!

ضحك الكاتب وقال موافقًا :

- هذا صحيح ، لكنه ليس حكمًا بقدر ما هو مقارنة بين حالين ، وترجيح للحال الذي يوافق ما أراه ، ربما لأني أكره أن

يتقمص المرء دور العاجز بينما في الأمر متسع ، أحيانًا نرضخ لأننا نظن أن هذا ما يجب علينا فعله ، نرضخ قبل أن نجرب الطريق المؤدي لأحلامنا حتى ، فقط لأننا نخشى المواجهة ، أو أن الاستسلام يبدو لنا ظلاً آمنا ، حتى وإن كان تعيسًا وخانقًا ، وهذا هو الوهم الذي نقع فيه جميعًا ، إذ أننا حين نكسر عاداتنا ، حتى تلك التي نتعذب منها عادة ، فإننا نشعر بفزع انقطاعنا المفاجئ عنها ، فنفسره على صورة أمان مفقود ، أو ندم الخسران ، بينما لو صبرنا لأدركنا أننا أصبحنا أفضل حالاً ، وأننا سنعتاد على الراحة الجديدة كما اعتدنا على التعب القديم!

- لعلك على حق ، وقد أثرت فضولي تجاه حكاياتك المخبأة ، فهلا حدثتني عن المزيد؟

- لا بد أن يكون لدي المزيد ، إنني أبحث باستمرار عن هذا المزيد ، فالكاتب كالصياد الذي يجد في كل قصة مهما كانت عابرة طريدة تستحق الركض خلفها ، ووضعها على مائدة الورق ، ولعلك أنتَ ستكون على هذه المائدة أيضًا .

قالها مبتسمًا غامزًا بعينه ليوضح أن ما قاله في سياق الدعابة ، ولكني أجبته بارتباك واضح :

- هل تحاول استدراجي لأمنحك مادة خام تشيد بها حكاياك؟

هزَّ كتفيه قائلاً وهو يقلب ما في يده من أوراق :

- لو كان لديك ما تحتاج أن أسمعه فأنا مستمع جيد قبل

أن أكون كاتبًا ، وربما هذا ما جعل مني كاتبًا في نهاية المطاف . . لأن سمعي وحسي مرهفان!

– أفضل أن أسمع منك ، فأنا مجرد شخص عادي لا أملك ما يميز أيامي أو شخصي .

– لا يوجد شخص دون ميزات ، وفي عالم الكلمات خصوصًا كل العاديات تتحول إلى روائع إن صادفت فنانًا يجيد لعبة الحروف ، فمهمة الكاتب أن يجعلك ترى الأشياء من جهاتها الأربع ، أن يُسلّط الضوء على المناطق المعتمة في عقلك لترى المشهد كاملاً ، أن ترى الحوار من الداخل ، أن يجعل الأصوات التي نكتمها داخل أنفسنا ، مسموعة وواضحة ، إن الكتابة بشكل ما هي عملية تشريح لداخل الإنسان لنفهم خباياه ، ولكن الأمر هنا يتعلق بخبايا الروح والعقل لا خبايا الجسد نفسه ، إن الكاتب الذي لا يُريك من المشهد إلا ما تراه في العادة لا يمكن أن يكون مُجيدًا للكتابة ، لأنه يملك ذات العين التي يرى بها الشخص العادي ، وبالتالي ينتج عقله ذات الفكرة العادية المتداولة في عقول الجميع ، بينما الكتابة هي نقيض العادية ، إنها عمليات إخراج للأحداث العادية بطريقة مدهشة ، لا أعني هنا التحذلق واللعب البهلواني بالمفردات ، بل ذلك النوع من البساطة المدهشة ، التي تجعل القارئ يشعر أنه كان بإمكانه أن يلتقط تلك الفكرة ، وأن يقول تلك الكلمة ، ولكنه لم يكن ليفعل لولا أن لفت عقله كاتب ما إليها ، لذلك فالقراءة تعلّم الناس

التفكير ، والانتباه ، وتذكرهم أن تلك الصورة العامة مليئة بالتفاصيل ، وأن التفاصيل حين ندركها كفيلة بتغيير كل شيء .

– مدهش ، في الحقيقة لطالما أدهشتني تلك الطريقة التي يصنع بها الكتّاب جملهم ، رغم أني لستُ ذلك القارئ النهم ، ولكني كثيرًا ما أصادف تلك العبارات التي تجعلني أظن أن أحدهم كتبها من قلبي لا من قلمه .

– هذا هو سحر الكتابة . . أن تسرق منا مشاعرنا وتلبسها أثوابًا من الكلمات لتظهر بأناقة ساحرة ، وهنا تكمن بعض الخطورة ، إذ أننا نستطيع بالكتابة أن نُجمّل الشَرَّ ونجعله فاتنًا ومقبولاً ، لو لاحظت ففي كثير من الأحيان تبدو الكتابة كفعل تبرير للأشياء ، أو تفسير لها ، ولكل كاتب طريقته ، غير أن كل كاتب لا بد أن يملك قدرة الإقناع ، حتى حين يكتب لك عن رجل برأسين فإن الكاتب الجيد سيجعلك تصدق هذا ، بل ويجعلك ترى لنفسك رأسين إن لزم الأمر!

ضحكتُ باستغرابٍ وأنا أقول :

– هذا يتجاوز كونه كاتبًا ليصبح مشعوذًا!

– «إن من البيان لسحرًا» . . ولكن هذا كان مثالاً مجازيًا فقط ، الفكرة هنا أن الخيال لا يمكن أن يحده حدّ ، إنه كالكون في سعته ، واللغة أداة ، وكلما كانت تلك الأداة جيدة وكلما كان الخيال واسعًا ، وكلما كان الكاتب ثاقب الفكر عميقه ، أخذك إلى أبعد مما تعتقد .

تنهد ثم استرسل قائلاً :

– إن الكاتب يجب أن يكون لسان أولئك الذين أخرستهم الآلام ، وطحنتهم عجلات الأحكام المسبقة ، أولئك الذين أصبحوا مجرد حكايا تتناقلها الألسن دون فهم ، وأحداث تُسرد في مجالس الثرثرة مُضاف إليها ما تجود به مخيلة الناقل من أحداث وهمية ، أو تحليلات السامع الظالمة للنوايا ، فتخرج آلام الآخرين من عقولهم الملوثة بالظنون كالآثام ، في عالمنا الذي يُنظر فيه إلى طلاق المرأة كتهمة ، في حين أنه في أفضل الحالات يأتي كطوق نجاة أخير لشخصين غارقين في التعاسة ، أو ربما كان وسيلتها للخروج من حياة لا شيء فيها كالحياة ، إن الناس ينظرون إلى امرأة تخلصت للتو من قبضة ظالم وكأنها قطعت يدًا تمد إليها العطايا دون حسبان ، فقط لأنهم لم يذوقوا طعم الاختناق حين تطبق تلك القبضة على أنفاسهم ، تتزوج طفلة في الثانية عشرة من عمرها ، رجلاً لا تعرفه ، يسوقها إلى فراش الزوجية الذي لا تعرف عنه شيئًا ، لتُقتل في لحظة واحدة طفولتها وأنوثتها معًا!

من يعرف مدى الوحدة الرهيبة التي يعيشها إنسان هذا المجتمع الملاحق بالألسن الحادة! المجتمع المتعطش من فيه للكلام ، للكلام فقط من دون الاستماع ، ذلك الذي هم في أمس الحاجة له ليتمكنوا من الفهم ، الفهم الذي يجدونه صعبًا مقارنة بالاتهام!

لذلك على الكاتب أن يستمع لأبعد مما يقال ، وأن يرى ما خلف المشهد ، فالحكايات لا تأتي فرادى ، كل حكاية حبلى بألف حكاية ، كل قصة ترتبط بها آلاف القصص المخفية ، عليه أن يكتب الدمعة حتى تهطل من عين القارئ ، أن يصف الآه حتى تخرج من صدره ، أن يُجسّد حرقة الشعور حتى يشعر بنارها تلتهب في قلبه ، إن الكتابة ليست نافلة في الحياة بل فرض ، وعلينا حين نقدر عليها أن نفعلها بإخلاص ، لأنها لسان الوعي مقابل لسان الجهل الذي لا يكاد يقف ثانية واحدة دون أن يلوث حياة إنسان ، علينا أن نقول للحمقى الذين يظنون أنهم بلا خطايا لمجرد أن الحياة لم تختبر ورعهم بعد ، أو لم تكشف خطاياهم بعد ، علينا أن نقول لهم : إنكم تعرفون قليلاً لذلك تتحدثون كثيرًا! علينا أن نحدث ضجيجًا بصوت الحقيقة كما يُحدثون هم جلبة بالأكاذيب ، والتهم الباطلة ، فالعقل الجمعي يتبع الصوت الأعلى والأكثر تكرارًا مهما كان ما يحكيه باطلاً .

كنتُ أستمع إليه بخشوع ، كان يتحدث بصدق وإخلاص من يدافع عن إيمانه المهدد بالتكذيب ، وقد أعجبني ذلك الكم الهائل من التعبيرات التي تتعاقب على ملامحه ، بين الغضب والسخرية ، والكآبة وطيف عابر من الأمل ، كان يبدو كمن يحاول إنقاذ شيء في أعماقه أكثر من محاولته إنقاذ العالم من حوله .

انتشلني صوته من تأملاتي وهو يسألني قائلاً :

- هل تحب أن تسمعها؟

- ما هي؟

علت وجهه ابتسامة خجل وأجاب قائلاً :

- أعتذر ، لا بد أني أضجرتك ، أظن أني منذ زمن لم أجد سامعًا مستجيبًا لا مستسلمًا كالورق لذلك أمطرتك بكل هذا الحديث!

- لا أبدًا ، كل ما في الأمر أني شردتُ في كلامك ، ليس ضجرًا بل تأملاً وفاتني مطلع حديثك السابق .

- حسنًا ، كنت أحدثك عن حكاية الطفل الذي قتل أمه ، وسألتك إن كنت ترغب في معرفة التفاصيل .

- طفل قتل أمه! أجل أخبرني التفاصيل!

- طفل في الخامسة من عمره قتل أمه خطأً ، في لحظة عبث بمسدس والده! هذا الطفل صار رجلاً في الثلاثين الآن وما زال كل ليلة يستيقظ من نومه ينشج كالأطفال ، لأن الطفل ذا الخمسة أعوام ما زال حيًا هناك في صدره ، ينظر إلى جثة أمه الهامدة على الأرض ، بعد أن انفجر في يده صوت الرصاصة التي غادرت المسدس مستعجلة لتسرق روح أمه ، فلم يكبر ، لم يكبر أبدًا وإن طال جسده ، لأن عمره توقف في تلك اللحظة التي توقف فيها عمر أمه .

ثم صمت برهة ، وقال وهو يمد يده إليّ برزمة الأوراق في يده :

- هل تحب قراءة التفاصيل بدلاً من سماعها ، فأنا في الكتابة أفضل مني في الحديث شفاهًا

أمسكتُ رزمة الأوراق وبدأت أقرأ :

جلستُ في المقعد المقابل لمكتب الطبيب النفسي الذي لا أعرف ترتيبه لكثرة الأطباء الذين زرتهم ، علّ أحدهم يُسكت صوت الرصاصة في رأسي ، وصوت بكاء الطفل في صدري ، استحثني الطبيب لأبدأ الحديث أو الشكوى كما هو معتاد ، كان الطبيب مجرد غريب عابر ، لا حكم مسبق لديه ، ولن يلاحقني بالتهم كما يفعل الآخرون ، لعل هذا ما يدفعنا للغرباء ، لنترك عندهم أعباءنا ونرحل ، الغرباء الذي يعبرون طريقنا مرة واحدة دون رجعة ، لأن الوجوه حين تعود ، تجلب لنا ما نناضل طويلاً لنسيانه ، إننا لا نهرب من ذكرياتنا فقط لننسى ، بل من ذكريات الناس أيضًا ، الناس لا يتركون لنا حرية النسيان إن كانت ذكرياتنا السيئة تصلح مادة يحركون بها ألسنتهم ويتواصلون من خلالها مع بعضهم! لذلك كنتُ بحاجة للهرب لأعيش ، وإن كنت سأعيش دائمًا بشعور الفأس التي قطعت الشجرة حتى وإن كانت فعلتها بيد الحطاب ودون إرادة فعلية منها!

بالاستعانة بغربتي عن الطبيب استرسلتُ في الكلام قائلاً دون تنميق ، ودون اختراع لمقدمات الحديث المربكة وغير المجدية غالبًا : تخيل أن تصبح يتيمًا وقاتلاً في نفس الوقت! تخيل أنك لا تعرف مِمَ تبكي ، من لوعة اليتم ، أم من هول الشعور بالذنب! ربما ستقول كنتَ طفلاً بلا وعي ، لا ذنب لك ، ولكنك لا

تعرف أن الأطفال أكثر قدرة على الشعور بالذنب ، لأنهم صغار ، صغار جدًا ، ليس بمقدورهم التصدي لهذا العملاق الذي يهشم قلوبهم دون رأفة ، أنا ما زلتُ طفلاً ، لم أجد وسيلة لأكبر بعد أمي ، كأن كل شيء عالق هناك ، في تلك اللحظة ، لم يخطُ الزمن خطوة واحدة بعد! حتى بعد أن تزوجتُ ، لقد أصرّ أبي عليّ لأتزوج ، لأنسى ، لأعيش! على حدّ قوله ، ولكن كل شيء يمر دون أن يمس قلبي ، أشعر أن حول قلبي قشرة قاسية ، تحمي الألم الساكن فيه ، لا شيء يمكن أن يخترقها ، لا شعور ، بينما من الداخل ثمة هشاشة عظيمة تتغذى من خلالها أوجاعي ، لا أشعر بشيء تجاه زوجتي ، تجاه طفلي ، تجاه أي شيء يحدث لي ، لا أشعر سوى بالحصار والاختناق ، أنا لم أستطع أن أكون إلا الطفل الذي قتل أمه! كنتُ أسمع ذلك كلما مررتُ بالشارع بعد الحادثة ، أسمعه في المدرسة التي غيّرها أبي عشرات المرات ، لأنهم دائمًا كانوا يعرفون ويتحدثون ، فأرفض الذهاب إليها ، لم أكن أريد الاختباء بقدر ما أردتُ النسيان ، ذلك الذي بدا أشبه بمعجزة لا يمكن حدوثها ، لا سيما في وجود كل أولئك الذي يتذكرون الحادثة ويذكّرون من لا يذكر .

ذات يوم تحدثتُ إلى شخص ماتت أمه وهو صغير ، قال لي : أكثر ما يحزنني هو أني نسيت وجه أمي! بينما كان أكثر ما يحزنني هو وجه أمي الذي لا يفارق عقلي! لا أستطع نسيان ملامحها أبدًا ، في لحظتها الأخيرة تلك ، والنظرة الثابتة لعينيها

تجاهي ، النظرة الباردة ، تلك النظرة التي كانت تنظر بها إليّ حين أرتكب خطأً ، لقد تحولت تلك النظرة إلى دوامة أعجز عن الخروج منها! الآن ليس ثمة دواء لهذا الوجع ، ربما لا يجب أن أشفى منه ، ربما لا أبحث عن الشفاء بقدر ما أبحث عن مخبأ أعيش فيه آلامي بسلام! دون أن أرى تلك النظرة الفضولية في عيون زملاء العمل حين يهمس لهم أحدهم : هل تعرف أن هذا الرجل قتل أمه! أو تلك النظرة المتعاطفة في عيون زوجتي حين أستيقظ فزعًا خلال الليل فلا تجد بدًا من محاولة تهدئتي التي أتمنى لو لم تقم بها ، أتمنى فقط أن تواصل نومها ، أو حتى تتظاهر بذلك ، شفقتها الدائمة تلك تجعلني أشعر بالرغبة في الابتعاد عنها ، محاولتها المستمرة في دفعي للحديث بحجة تحقيق الراحة بالكلام تجعلني راغبًا في الهرب بعيدًا عنها ، في داخلي شيء هشّ وموجوع لا يحتمل أن يمر الكلام من قلبي إلى لساني ، أشعر به يحرق كل ما يمر به ، وقد تعبتُ من الاحتراق! لم أكن أعرف الموت قبل تلك اللحظة ، لم أعرف أن هناك من يغادر ولا يعود ، لا سيما شخص لصيق بي كأمي ، لم أكن أعرف أن شيئًا صغيرًا كالرصاصة يمكن أن يأخذ شيئًا كبيرًا كالحياة .

ولكن منظر تدفق الدم كان مرعبًا ، أتذكر كم كان دافئًا ككل شيء في أمي ، كان يتدفق دون توقف ، الشيء الوحيد الذي كان يتحرك فيها هو دمها ، أما هي فقد كانت هادئة جدًا كعادتها!

حين جاء أبي كنتُ قد بقيتُ ساعة كاملة بجانب أمي ، أنتظر أن تصحو ، أن يكون كل شيء مجرد لعبة ، كما كنت أظن المسدس الذي كان في يدي ، لكن وجه أبي الجاد كان يقول لي أن المسألة أعقد مما أتصور ، رجفة صوته حين سألني بخوف : ماذا حدث؟ عيناه التي تحمرّ زواياها حين يغضب ، ويده التي كانت تجس عنق أمي . ركضتُ هاربًا كعادتي حين أراه غاضبًا ، لم يلحق بي هذه المرة ، لم يقل لي أي شيء ، فقط أخذ أمي ولم يعدها أبدًا!

حين وصلتُ إلى نهاية الصفحة شعرتُ بثقل في حنجرتي ، كما لو أن غصته التي بدت في الكلمات قد سكنتني ، لم أفكر من قبل فيما يمكن أن تفعله عقدة الذنب بحياة إنسان ، كيف يمكن أن تحيله إلى كائن مفكك الروح يبحث فقط عن وسيلة للتعويض عن فعلته ، وسيلة يعرف أنها لم تعد متاحة لأن الذي يبحث عن غفرانه غادر دون عودة ، كان خطأً كلفته حياتين ، حياة أمه التي انتهت ، وحياته التي تستمر كظل للحادثة ، كرحلة طويلة من العذاب .

أعدتُ الأوراق إلى كاتبها وقلتُ :

– عقدة الذنب قاتلة ، لا سيما ذنب كهذا!

– حين لا نجرؤ على مسامحة أنفسنا على خطأ ما يتحول شعور الذنب إلى هاجس ، يستحوذ على أفكارنا ومشاعرنا وكل ما نراه ونسمعه ، كانت الحادثة أليمة ودامية دون شك ، ولكن كان

على صاحبنا أن يغفر لهذا الطفل الصغير الخائف بداخله ثم يطلق سراحه ، ولكنه لم يفعل ، لم يغفر له أن جعله قاتلاً ، ولم يغفر له أن حرمه من أمه ، ربما كان الآخرون يتحدثون ، بل بالتأكيد هم يفعلون ذلك ، ويلاحقونه بنظراتهم الفضولية ، ولكن لولا شعوره الحاد بفداحة الأمر لما منحهم كل تلك السلطة والتأثير عليه ، إن كل ما حولنا يبدأ من أنفسنا أولاً ، كل ما يؤذينا يستمد قدرته على الأذى من ضعفنا ، وهشاشتنا واهتمامنا بمصدره ، إننا بحاجة إلى الكثير من التغافل لنعبر جسر الحياة ، لنجتاز الناس وأحكامهم ، فإن تخاذلت خطواتنا واستسلمت سقطنا ، وجرفتنا تيارات الحياة إلى القاع ، حيث لا شيء سوى الخراب .

- هل تقول إذاً أنه ضحية نفسه قبل أن يكون ضحية قدره؟

- ليس قبل بل بعد ، كانت البداية قدرًا ، وتغيير الأقدار التي حدثت غير ممكن بطبيعة الحال ، ولكن التعامل مع الأقدار بعد حدوثها يحدد ما سنكون عليه لاحقًا ، البكاء على اللبن المسكوب لا يغير من الأمر شيئًا ، ما حدث قد حدث ، ولا يمكن محوه من الذاكرة ، ولكن العيش في ظله يعني أن صاحبه لم يجرؤ على مواجهة آلامه ، بل رضي بأن يظل عمره رازحًا تحتها ويغذيها بالتحول إلى وضع الضحية ، والتمسك بهذا الدور كأنه لا يريد غيره .

- ولكن بعض الآلام لا يمكن الشفاء منها ، مهما حاول المرء ذلك .

– لا يمكن الشفاء منها صحيح ، ولكن يمكن أن تجعل منا شخصًا أقوى ، من قال إن الشفاء ضرورة؟ ومن قال إن الألم خطيئة؟ الألم جزء من الحياة والإنسان ، لا حيلة في تفادي الإصابة به ، بل إنه قد يكون ضرورة لبناء الشخصية ، وأحد أركان النضج واتساع الفكر ، إننا بالألم نتخلص من السطحية والتفاهة ، الألم يفضّ بكارة أرواحنا الساذجة فنكتشف من خلاله مكامن القوة فينا ، حدود قدراتنا ، نكتسب البصيرة ونتخلى عن التصديق بظاهر الأشياء ، نحن بحاجة إليه كدافع للانطلاق لا كجدار نتكئ عليه ونبكي ، أو ننظر إليه كنهاية للطريق ، بل هو يرشدنا إلى البداية في كل نهاية ، إن نحن أجدنا قراءة لوحاته ، يمكن أن نحمل أوجاعنا معنا ، أن ندفنها عميقًا ما استطعنا ونواصل السير ، نفسح المجال للجديد ليدخل أعماقنا ، ليختلط بألمنا القديم ، ليغير شكله ، ويعيد تشييد أرواحنا ، لا تقزّم من حجم أوجاعك ولكن أيضًا لا تعملقها لأنها ستسحقك وتمضي ، امنح كل شيء حجمه الذي يستحق ، ووقته الذي يحتاج ، ثم تعامل معه وفقًا لذلك ، بأقصى قوتك ووعيك لا بضعفك وخنوعك ، لا تصغِ كثيرًا لمخاوفك وهواجسك وسيذهلك ما أنت قادر عليه .

– صدقت ، أنا سعيد بمعرفتك حقًا ، وأتطلع لقراءة كتابك أو حتى كتبك ، أثق أنك ستنجح ما دمتَ تحمل هذه السعة في الأفق .

قلتُ ذلك وأنا أرى وجهتي قد لاحت عن قرب ، فابتسم صديقي الكاتب بعذوبة وهو يتمتم بكلمات الشكر والامتنان ، ثم افترقنا كلٌ إلى طريقه .

كنتُ غارقًا في أفكاري حين داهمني عطركِ ، ظننتُ أني أتخيل ، رغم أن الرائحة لا يمكن أن تكون خيالاً ، ورغم أني على يقين أني لا أملك قلب يعقوب الذي وجد ريح يوسف قبل مجيئها ، لكني أجد ريحكِ!

التفتُ فرأيتكِ بجانبي ، كنتِ تنظرين إليّ بابتسامتكِ المعتادة ، لم أقل شيئاً ، لم أرغب في قول شيء ، كل ذلك الغضب فتر فجأة ، كل تلك الحيرة تلاشت ، كل ذلك الشوق أيضًا صمت ، شعرتُ أني بلا قلب ، كأن خواءً عظيمًا استقر في صدري ، لقد شعرتُ للحظة أني لا أرغب في رؤيتكِ ، بمقدار ما انتظرت ذلك ، لم أعد أرغب!

قلتِ بتردد : كيف أنتَ؟

لم أجب!

- كنتُ مريضة!

- إلى درجة عدم القدرة على إجابة مكالماتي؟

- لم أعلم أنك اتصلت بي!

- حقًا ، هل هاتفكِ فاقدٌ للذاكرة؟ ألا يمكنه تسجيل المكالمات الواردة؟

- لم أتفقد حقيقة ، لأني لم أظنك ستتصل .

- أي عـذر واهٍ هذا يا وعـد ، بالله عليك لا تسـتـخـفي بعقلي ، أو تسخّفي من نفسك!
- لماذا أنتَ غاضب بهذا القدر؟
- لماذا؟ ثلاثة أيام من الغياب يا وعد ، بعد حديث تعلمين كيف كان ، أليس لغيابكِ هذا سوى معنًى واحد فقط ، وهو الهـروب مني ، من مـا بيننا ، رغم أني لـم أضطرك لـهـذا! كـان لديكِ القـدرة على الحـديث مـعي ، لو رغـبتِ أن ننتـهي فـقط أخبريني ، هل كنتُ سأجبرك على البقاء ، إنني حتى لن أحاول إقناعكِ ، ولكن الابتعاد والتجاهل لا يمكن أن أقبلهما كتصرف لائق تجاه صدقي معكِ .
- كنتُ مريضة يا كريم ، هذا كل ما في الأمر ، حسنًا لم أتمكن من الاتصال بك ، هذا إهمال غير مقصود أرجو أن تغفره لي ، ولكن المسألة أبدًا ليست كما تبدو لك ، لماذا قد أتجاهلك ، أنا أحبك كما تحبّني ، أم أنك لست واثقاً من هذا؟
- أنتِ من يتصرف بغموض لا أنا يا وعد!
- لقـد وضـحـت لك كل أسـبـابي ، لم أظن أنك وجـدت صعوبة في فهمهما!
- لقد وصلت ، من الأفضل أن تذهبي الآن لا تتأخري عن عملك!
- إلى اللقاء إذًا!

غادرتِ ، دون أن تضـيفي شيئًا ، ولا أنا لأنه لم يكن لديّ

الرغبة في تلك اللحظة أن أخوض في شيء ، كنتُ متعبًا ، منكِ ومن مشاعري ، ومن سير الأمور بذلك التعقيد بينما كنت أرى أن عليها أن تكون أبسط من ذلك!

في طريق العودة تعمدتُ أن أجلس بجوار شخص آخر ، كنتُ فقط غير راغب في الكلام ، ولكن رسالتكِ التي وصلت بعد ركوبك الحافلة كانت تشير إلى أن لكِ رأيًا آخر : هل تنتقم مني بذات السلاح؟

أجبتكِ : في الحبّ يفترض بنا أن نرى الآخر أيضًا ، لا أنفسنا فقط!

بعد قليل كانت رسالتكِ تقول : في الحبّ حين نرى الآخر نرى أنفسنا!

فكتبتُ إليكِ : هذا يعني أن مفهوم الحبّ عندي يختلف عنه عندكِ ؛ أنا أراه مشاركة وأنتِ ترينه أنانية!

لم يكن هناك جواب ، لأن الموقف لم يعد يحتمل المزيد من المهاترات ، لأول مرة منذ عرفتك شعرتُ أني بحاجة ماسة للبعد عنك ، كنتُ مشوشًا جدًا ، متعبًا أكثر ، غير مرتاح!

لم أشعر أنكِ صادقة معي ، كان ثمة شيء فيكِ يوحي بخديعة ما ، أو على الأقل كان ثمة سرّ لا أعرفه ، أو لا تريدين مني معرفته ، لماذا تقتربين مني بذلك القدر إن كنتِ تريدين البعد عني؟

إذا لم يكن قلبكِ واثقًا مما فيه ، فلأي شيء كل هذا الشعور الذي تجرينني إليه؟

أتريدين لعبة تسليكِ؟

القلوب لا تصلح ألعابًا ، لا سيما قلب جاد كقلبي ، لا يسرف في صرف مشاعره في علاقة ليس لها مسار واضح ، لا يعتبر السراب أكثر من خدعة ، لذلك يرفض الانسياق خلفه أياً كان السبب ، وإن قتله الظمأ!

في الوقت الذي تلا ذلك حاولتُ جاهدًا ألا أفكر بكِ ، وبما حدث ، أردتُ فقط أن آخذ قسطًا من الراحة ، أن أهدأ ، كنتُ أشعر أن في داخلي غضباً مكبوتاً ، لم أجرؤ على التعبير عنه خشية إيذائكِ ، لم أكن قادرًا على إلحاق الضرر بكِ مهما كان .

كان ثمة شعور خفي بالرغبة في إصلاح كل شيء ينتابني كلما فكرتُ في عينيكِ ، وكلما خطرت ببالي تلك الطريقة التي تتحدثين بها ، كدتُ أتصل بكِ لأسمع فقط نبرة صوتكِ ، ولكني كنتُ أستعيد نقمتي عليكِ سريعًا ، وأعزم على البقاء بعيدًا عنكِ ما استطعت!

اتصلتِ بي لاحقًا ، كان اتصالكِ شيئاً لم أتوقعه ، أو أني يئستُ من حدوثه ، هذا ما جعلني في صراع داخلي بين الردّ أو عدمه ، بين الرغبة في سماع صوتكِ وعدم الرغبة في الكلام!

في النهاية تركتُ الهاتف يرن دون جواب ، ثم اتصلتُ بمحمد وأخبرته أني أريد الحديث معه ، كان محمد موجودًا

دائمًا لأجلي، لم يكن يومًا بعيدًا أو منشغلاً، حتى حين يكون في انشغال فإنه لا يخذلني حين أطلبه، محمد بالنسبة لي البطل الخارق الذي يحب أن يمثل دور المهرّج، يحبّ السخرية كثيرًا لكنه حين يتطلب الأمر يصبح أكثرنا جدية والتزامًا، يتصنع اللامبالاة وهو من الداخل بحر من الاهتمام!

سألني ونحن في طريقنا إلى مكاننا المعتاد: هل جدّ شيء؟

– أجل، يبدو أنني لن أنجح في هذا الأمر يا محمد!

– ماذا حدث؟

– لا أعرف، لستُ مرتاحًا وحسب، كل الأشياء الجميلة التي كانت بيننا تلاشت، لا أعرف كيف أشرح لك، لم أعد قادرًا على فهم ما يحدث بداخلي، أو فهم تصرفات وعد، أظن أني لا أستطيع الثقة بشيء!

– مشكلتك يا كريم هي أنكَ تصرّ على مسألة الفهم هذه، لا يمكن أن تحيط بكل شيء يا صديقي، عدا ذلك فإنك لستَ صبورًا وثلاثة أرباع الحب صبر! عليك أن تدرك أن البدايات الجميلة ليست من جوهر الحب في شيء، الحقيقة تبدأ فيما بعد، برفقة المعاناة!

– يمكنني أن أصبر معها على أي ظرف يواجهنا يا محمد، ولكن لا يمكنني الصبر على تصرفاتها السيئة معي!

– أي تصرف سيئ قامت به؟ لم ترد على اتصالك؟ غابت

عدة أيام عنك؟ لم تشرح لك ظروفها العائلية؟ لم تقفز لمعانقتكَ عندما طلبتَ منها الزواج! كل هذه الأمور لا تحمل إساءة لك في الحقيقة؟ لعلّ لها سببًا منطقيًا ستشرحه لكَ في حينه ، ماذا جرى لك ، كنتَ متفهمًا أكثر قبل أن تدخل هذه العلاقة!

- لا أعرف ، أظن إني شعرتُ أني تعرضتُ للإهانة حين تجاهلتني بتلك الطريقة ، لا أشعر أني قادر على الكلام معها ، أريد ذلك بشدة في بعض الأوقات لكن سرعان ما يجفّ ذلك الحنين ، وأتذكر فقط تلك اللحظات العصيبة من الانتظار والحيرة! لقد قالت إنها مريضة لذلك لم تستطع الردّ ، كان يجب أن أصدقها ولكني لم أستطع ، وقبل قليل جاء منها اتصال لم أجرؤ على الردّ عليه!

- هل تشعر أنك لم تعد تحبها؟

- أشعر بالحب ، ولكن لا أشعر بالثقة ، ليست واضحة معي ، وهذا يزعزعني جدًا!

- لعلك تتوهم وجود أمر آخر في هذا ، لعل الأمور ببساطة كما هي عليه في الظاهر ، ألا ترى أنك تبالغ قليلاً؟

- لستُ أتعمد المبالغة ، أنا فقط أتصرف بناءً على ما أشعر به .

- برأيي استمع إليها من دون أن تطلق الأحكام مسبقًا ، اترك لها فرصة تصحيح الأمر البسيط الذي حدث بينكما في الظاهر دون أن تجعل للأمر أبعادًا غير مرئية حتى يثبت لك

عكس ذلك ، لا تكن مندفعًا ، أنت لست كذلك في الواقع ، لا أعرف ماذا حدث لك حتى صرت بهذه العاطفية!

– هذا ما يدفعني للجنون ، لم أعد قادرًا على الخروج من هذه الدوامة من المشاعر ، والأدهى من ذلك أني لا أفهم الكثير مما أشعر به ، أنت تعرفني لا أدخل في أمر دون أن أفهم كل جوانبه ، وحين وجدتُ نفسي داخل هذا تحولتُ إلى مجنون وأعمى في نفس الوقت!

– حسنًا ، إذا كنتُ تريد علاقة مريحة فأقفل باب الحبّ ، لأن الأمور ستتعقد كثيرًا ولن تجد الخلاص لاحقًا!

– شكرًا لأنك طمأنتني!

– أنت لا تبحث عن الطمأنينة بل عن الفهم ولا يمكن أن تجدهما في ذات المكان!

كالعادة بعد كل حديث مع محمد ، أشعر أن مصباحًا كان مغلقًا في عقلي قد أضاء فجأة ، حين عدتُ إلى المنزل فكرتُ في معاودة الاتصال بكِ ولكن الوقت كان متأخرًا ، وكنتُ أفضل أن أتحدث معكِ وجهًا لوجه ، لذلك انتظرتُ حتى لقاء الحافلة المعتاد ، فأرسلتُ لكِ رسالة أخبركِ فيها أنني أريد لقاءك في المكان الذي سبق والتقينا فيه ظهرًا إن أمكنكِ ذلك ، أجبتِ عليّ بالموافقة ، ثم انصرفنا إلى أعمالنا .

حين التقينا في وقتٍ لاحق ، كنتِ من بكّر في المجيء هذه المرة ، سألتكِ معتذرًا : أرجو أني لم أتأخر عليك كثيرًا؟

- لا بأس!

قلتِ بابتسامة وديعة ،

- كيف حالكِ اليوم؟

- على ما يرام ، ماذا عنك؟

- أنا بخير ، أعتذر لعدم اجابتي على اتصالكِ البارحة ، لم أكن جاهزًا للكلام .

- لا عليكَ ، هذا حقك ، أردتُ أن أسوي الأمور بيننا ، لقد أسأتُ التصرف معك ، لكن الأمور لم تكن كما تصورت ، أي أني لم أحاول الهرب منكَ حقًا ، كنت مضطربة جدًا حين تحدثنا آخر مرة ، فاجأتني بما قلت ، لم أعرف كيف أجيبك ، ولم أقصد ما فهمته ، لقد شعرتُ أني دفعتُكَ لذلك ، أي طلب الزواج ، لذلك حاولت أن أشرح لك أنكَ لستَ مضطرًا ، ثم أصبتُ بالحمى تلك الليلة ، صدقني لم أكن قادرة على الردّ عليك ، وحين تماثلتُ للشفاء جئتُ إليكَ مباشرة ، فوجدتكَ قد نسجت حكاية خاصة بكَ واقتنعت بها!

- لقد غضبتُ كثيرًا من كل هذا ، رأيتُ أنكِ تعقّدين أمرًا بسيطًا ، نحب بعضنا لنتزوج إذًا ، هذا ما أعرفه أنا عن الحب!

- حسناً عندما تأتي عائلتي من ألمانيا ، سأخبرك!

- ماذا تفعل عائلتكِ هناك ، ولماذا لستِ معهم؟

- هل تريد أن أكون معهم كي لا ألتقي بك!

قلتها بضحكة عريضة ، هذه الضحكة التي اشتقتُ لها كثيرًا ،

- لا طبعاً!

- أردتُ أن أدرس هنا ، وأعــمل هنا ، لذلك جــئت كي التحق بالجامعة ، ثم حصلتُ على عمل ، أذهبُ لزيارتهم ويأتون لزيارتي ، هم مستقرون هناك منذ طفولتنا .

- ألديكِ إخوة؟

- أخ وأخت فقط .

- هل هم هنا أيضًا؟

- كلا ، أنا هنا وحدي!

- فهمتُ ، أعتذر إذا بدوت كمحقق ، فقط أحبّ أن أعرف كل شيء يخصك .

- لا عليك ، سل ما شئت .

- هل اشتقتِ إليّ؟

- كثيرًا!

- لا تحاولي الابتعاد عني مرة أخرى ، كدتُ أجنّ!

- من الممتع رؤيتكَ مجنونًا يا سيد المنطق!

- هل هذا تهديد بالابتعاد!

- كلا ، هذا فقط تعبير عن إعجابي بحالتكِ المجنونة تلك .

- على سيرة التعبير : أحبك!

- على سيرة الحبّ : أحبكَ أكثر .

هذا نزالٌ آخر يا وعد ، لا أعرف إن كنتِ تذكرينه كما أذكره ، ولا أعرف إن كان لكِ رغبة في قراءتِه ، ولكنها حكايتنا وهذا جزء منها!

جلسَ هشام في مقعدِه ، اتّخذَ وضعية الهجوم المعتادة حين يريدُ أن يبدأ ثم قالَ وهو ينظرُ في عينيّ ماهر : حسناً يا ماهر ، قلتَ لي إن الدنيا دار امتحان واختبار وأن الإنسان كي يشعرَ أنه قد خاضَ الاختبار فعلاً فلا بد له أن يكون حُراً ، أليس كذلك؟

– هذا صحيح يا هشام ، الدنيا دارُ اختبار ، ودارُ عبور لا دار قرار ، ونحن فيها أحرار فيما نفعل أو لا نفعل!

– جميل جداً ، إذاً اسمحْ لي أن أقولَ لك أن دينكم متناقض!

– متناقض! وكيف هذا؟

– أنتم تقولون أن الله قد كتبَ أفعال العباد قبل أن يخلقَهم ، وأن كل ما حدثَ وسيحدثُ على ظهرِ هذه الأرض مُدوّن فيما تسمونه اللوح المحفوظ ، فأي عدلٍ ومنطق في أن يحاسبَني ربكم على عملٍ أنا مجبرٌ أن أفعله ، بل أكثر من ذلك هو مكتوب عليَّ فعله حتى قبل أن أولد؟! أليس في هذا ظلم ، كيف يكتبُ ربكم عليَّ عملاً ثم يعاقبُني عليه؟!

أما التناقض يا صاحبي فهو أنكم تارة تقولون نحن أحرار

نفعلُ ما نشاء ، وتارة أخرى تقولون إن الله قد كتبَ هذا وقَدَّره قبل أن يخلقنا!

ثم إن مفهومكم للحرية مُشوَّه وغير واضح! أية حرية هذه التي تتكلمون عنها ، هل باختيارك يا ماهر اخترتَ جنسك ، ووطنكَ ، وأمك وأباك ، وطولك ووزنك ، ولون عـــينيك ونوع شعرك ، هل باختيارك اخترتَ سنة ولادتك أو يوم موتك ، أنتَ وأنا ونحن جميعاً لم نختر شيئاً من هذا ، فأين الحرية المزعومة التي تتحدثون عنها ، وأين العدل في أن يكتبَ ربكم أني سأعملُ عملاً ثم يأتي ليحاسبني عليه ، أليس هذا فعله قبل أن يكون فعلي ، لأنه إن صحَّ قولكم فأنا مجرد أداة في مشيئته ، ومجرد مُنفِّذ لما أراده ، أنا بهذا المفهوم مجرد دمية ، أو حجر في لعبة شطرنج ، حرَّكني كيف شاء ثم جاءَ ليُحاسبني على نتيجةِ هذه اللعبة!

– اسمع يا هشام ، إن سؤالك الطويل هذا الذي تعتقدُ أنك حشرتَني فيه بالزاوية ، وكسبتَني بالضربةِ القاضية ، ما هو إلا حلقة في سلسلةِ مفاهيمك المغلوطةِ التي تحدثنا عنها سابقاً وعلى ما يبدو أننا سنتحدثُ فيها لاحقاً!

فعلى سبيل المثال أنتَ تخلطُ بين حريةِ العبد وحرية الرَّب ، مرةً أخرى أنتَ تريدُ أن تكون رباً!

الحريةُ عندك أن تختارَ جنسك ، ولونك ، ونوع شعرك ، وطولك ووزنك ، وأمك وأباك ، وأن تقررَ في أي يومٍ تولد وفي أي

يوم تموت ، ولعلكَ تريدُ أن تقررَ كم تجني من رزق ، وأن لا تمرض إلا إذا قررتَ ذلك!

هذه هي الحـــرية بنظرك ، أن تكون رباً ، أمـــا إذا لم تكـن كـذلك فأنتَ مسلوب الإرادة ، مقـيد ، ومجرد حجر في لعبة شطرنج!

أنتَ تخلط بين الحرية المطلقة التي نقول صراحة أنها ليست إلا لله ، وبين الحرية النسبية التي نقول صراحة أيضاً أنها لكَ!

سبقَ واتفقنا أن الدنيا دار امتحان ، الإنسانُ فيها يعملُ ، والملائكةُ تكتبُ عملَه ، والله يَجزي بالجنةِ أو يعاقبُ بالنار ، بناءً على هذا العمل!

فأين قلنا لكَ إن الله سيحاسبك على جنسك ، ولونك ، ونوع شـعـرك ، وطولك ووزنك ، ونسـبك ، وعـمـرك ، وغناك وفقرك؟!

متى قلنا لك إن الإنسان قد يدخل الجنة لأنه رجل فقط ، وأن المرأة قد تدخل النار لأنها امراة فقط أو العكس؟! ما نقوله لك إن أعمال الإنسان هي التي تحددُ مصيره وليس جنسه! أما لماذا أنتَ رجل وهي امرأة فهذا بندٌ من بنودِ الاختبارِ الذي لا علاقة لك بتحديده!

متى قلنا لكَ إن الله سيُدخل الأبيض إلى الجنة ، ويُلقي بالأسود في النار ، أو العكس؟! نحن نقول إن الله لا ينظر إلى الوجوه والأجسام وإنما إلى القلوب ، وقد استحقَّ أبو جهلٍ

القرشيُّ الهاشميُّ النار بعمله ، واستحقَّ بلالُ أسود البشرة الجنة بعمله ، أما لماذا أنتَ أبيض وفلان أسود فهذا بندٌ من بنودِ الاختبار الذي لا علاقة لك بتحديده!

متى قلنا لك إن الثري يدخل الجنة بماله ، وإن الفقير يُلقى في النار لفقره؟! نحن نقول لك إنكَ لو ملكتَ الأرض فسيحاسبُكَ الله على أعمالِك لا على ممتلكاتِك ، ولو لم تملك إلا قوتَ يومك فلن يحاسبك إلا على أعمالك أيضاً ، أما لماذا أنتَ غني وهو فقير فهذا أيضاً بند من بنود الاختبار الذي لا علاقةَ لك بتحديده!

إن الأشياء التي ليس لكَ يد في اختيارها لن تُحاسبَ عليها ، إن الحساب مجاله التكليف فقط ، ما كلَّفَكَ الله القيام به ، أو الانتهاء عنه هو ما ستُحاسب عليه ، وأنتَ هنا حُر بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، أنتَ حر في أن تسرقَ أو تزنيَ أو تقتلَ ، وحر كذلك في أن تصلي وتصوم وتتصدق ، إن الله أمركَ أن لا تقول إلا خيراً وصدقاً ، وأنتَ صحفي تكتب مقالاتك هل تشعر وأنتَ تكتب أن ثمة قوة خفية تمسكُ قلبك وتُجبرُك على أن تكتبَ ما لا تريد كتابته أم أنك تشعر بحرية مطلقة في أن تكتب الحقيقة أو غيرها؟! لا شك أنك حُر تماماً في هذا ، وإن الحرية التي تتمتع بها في هذا المجال هي ما تجعلك أهلاً للثواب أو العقاب ، وعليه سائر أعمالك وأفعالك!

أنتَ عند التصرف الجيد تشعرُ برضا عن نفسك ، وعند

التصرف السيئ تشعرُ بتأنيبِ ضمير ، تشعرُ بالرضا لأنك تعلم أنك اخترتَ أن تفعلَ الصواب ، وتشعرُ بتأنيبِ الضمير لأنك تعلم أنه كان بإمكانك أن لا تفعل الشر ، وهذا هو مجال المُساءلةِ أمام الله!

نحن نستطيع بيُسرٍ وسهولة يا هشام أن نميزَ بين ما نقومُ به جبراً وقهراً وما نقوم به اختياراً ، حين ترتعش يدك تحت وطأةِ المرضِ تعرفُ في قرارةِ نفسكَ أن هذه الحركة ليست إرادية وأنها بسبب المرض ، وعندما تمسكُ قلمك لتكتب تعرف في قرارة نفسك أن هذه الحركة بملء إرادتك واختيارك ، ولو لم يكن فيكَ حرية ارتكاب الفعل أو عدمه لما استطعتْ التمييز بينهما!

يمكن لمديرك أن يجبرَكَ على كتابةِ ما لا يروق لك ، ولكنه لا يستطيع إجبارك على تغيير قناعاتك ، ببساطة أنتَ تعرف أنك وإن أُجبِرتَ على فعلٍ لتحفظ عملك فليس لأحد سلطة على إيمانك وأفكارك ، أنتَ تختار ما تعتقده!

أما قولك : كيف يكتبُ الله أعمالي عليّ ثم يحاسبني عليها؟

فأقول لكَ إن علم الله مُطلق ، يعلمُ الغيب بذاتِ الدقةِ التي يعلمُ بها الماضي ، وعندما عَلِمَ ما الذي سيفعله عباده ، وكتب هذا ، فهذا لا يعني أنه أجبرهم على ارتكابِها وحَمَلَهُم عليها حملاً!

فعلى سبيل المثال لو كان لك ابن ربيته مُذ كان طفلاً غضاً طرياً ، اطّلعتَ على أخلاقه وشخصيته ، وتنبأتَ أن ابنك هذا

سيسرق ، وحدث بالفعل ما توقعته وسرق ، فهل أنتَ الذي أجبرته على السرقة ، أم أنه هو من سرقَ بكامل حريته واختياره وأن توقُّعك ليس له علاقة بفعله؟!

بالطبع إن الفعل فعله ، وتوقعك ليس عاملاً مؤثراً في المعادلة!

الفرق بين علمك وعلم الله ، بين توقعك وحتمية قدر الله ، هو أن علمك قد يُصيب وقد يُخطئ ، وتوقعك قد يقع وقد لا يقع ، أما علم الله فلا يخطئ ، وقدره لا محالة واقع ، لهذا فإن علم الله ليس عاملاً مؤثراً أيضاً في المعادلة ، أنتَ ترتكب أفعالك باختيارك ، ولأنك تختار تُثاب أو تُعاقب!

ما رضيَ الله به قدراً أن يقع لا يعني أنه رضي به شرعاً أن يقع ، بمعنى أن القاتل لا يقتل غلبةً على الله ، ولا عن عجز منه سبحانه أن يمنعه ، وهو سبحانه إذ لم يرضَ بالقتل شرعاً وأخبرَنا أنه جريمة ، وإنما سمحَ بوقوعه لأنه لا يريد أن يسلبَ الإنسان حرية الفعل ، لأنه لو سلبه هذا لكان خللاً في الاختبارِ والله أعدل من أن يقيدَكَ ثم يحاسبَك ، يملي عليك ما تفعل ثم يأخذك به!

وكالعادة لم يكن هشام يُعقِّب على كلام ماهر ، وكالعادة أيضاً لم يكن يستسلم ، ما إن يتلقّى الضربة حتى يُسارع لتسديدِ ضربة ، كان الأمرُ أشبه بما يقولُه خبراء كرة القدم : أفضل وسيلة للدفاعِ هي الهجوم!

قال هشام مُسدِّداً سؤاله في وجهِ ماهر : أنتم تقولون أن الدين أخلاق بالدرجة الأولى ، وتقولون أن نبيكم يقول : «أدناكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً» ، حسناً أنا متدينٌ أكثر بكثير ممن يدّعون الإسلام ، أنا لا أسرق ولا أغش ولا أقتل ، أحترمُ النّاس جميعاً وأساعدُهم ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً ، بينما اُنظُرْ حولك إلى أخلاقِ بعض المُتدينين ، هل تريدني أن أتركَ الأخلاق الحسنة التي أنا عليها وأتّبعَ دينكم وأصبح على شاكلتهم؟!

قال ماهر وهو يبتسم : ما ظننتُك أن تفتحَ سيرة الأخلاق أبداً يا هشام ، فهذه نقطة قوتنا بينما هي نقطة ضعفكم ، بالإضافة إلى أن تقديمك ومن بعده استنتاجك فِرْيَة عظيمة أو جهل مُطْبِق!

- فِرْيَةٌ وجهلٌ يا ماهر؟!
- أجل فرية وجهل يا هشام ، سأخبرك لماذا؟
- حسناً ، أخبرني لماذا؟
- أولاً نحن نقول إن الدين المعاملة ، والدين أخلاق بالدرجةِ الأولى ، وإن أقرب الناس منزلة من النبيِّ ﷺ يوم القيامةِ أحاسنهم أخلاقاً ، وإن الدين كله خُلُق فمن فاقكَ في الخُلُق فاقك في الدين كما يقول ابن القيم!

ولكننا نقول قبل هذا إن قيامك بحقِّ الناسِ من أخلاق وحسن معاملة ونصح ومساعدة وصدق وأمانة لا يُسقِط عنك واجب الإيمان بالله أولاً وعبادته ثانياً!

الذي تفضّلتَ به من أخلاقك الحسنة يُسمّى حُسْنُ سيرٍ وسلوك ، وإنسان خيِّر ، وهذا أحد أهداف الدين ، ولكنه ليس الدين كله ، بمعنى أنه لا يستقيم أن تقولَ الدينُ كله خُلُق على قولكم وأنا إنسان خلوق ولا حاجة لي للإيمان بالله!

نحن نقول لك إن الله خلقنا جميعاً لأمرٍ عظيم وغايةٍ نبيلة ، وهي عبادته سبحانه وحده ، ولأجل هذه الغايةً كانت السماوات والأرض ، وخلقَ الله الجنة والنار ، وأرسلَ الرسل وأنزلَ الكُتب!

ثم بعد ذلك نقولُ لكَ : الإيمانُ بالله نصفُ الطريق ، ونصفه الآخر هو عبادته سبحانه ، عبادته كما أراد ، وبالشرعِ الذي جاء به نبيه ، لا على هوى كل إنسانٍ ولا على مزاجِه!

وأما قولك إن كثيراً من المتدينين ليسَ فيهم أخلاق ، فهذا للأسف صحيح ، ولكن الصحيح أيضاً أن كثيراً من المتدينين على خُلقٍ وأمانةٍ وصدقِ حديثٍ وحبٍّ للخيرِ والمسابقةِ لفعله!

إن القِسمً الأول قد حققَ نصف مطلب الله منه ، وهو الإيمان به سبحانه ولكنه لم يحقق النصف الآخر الذي طلبه الله سبحانه ألا وهو العبادة والمعاملات وفق الشريعة السمحاء!

إذا كان يوجد مسلم يسرقُ فلا يمكنك أن تقولَ لي إن الإسلام دين يدعو إلى السرقة!

وإذا كان يوجد مسلم يكذبُ فلا يمكنك أن تقولَ لي إن الإسلام دين يدعو إلى الكذب!

وإذا كان يوجد إنسان يغشُّ أو يزني أو يؤذي جيرانَه فلا يمكنك أن تقولَ لي إن الإسلام دين يدعو إلى الغشِ والزنا وأذيةِ الجيران!

أنتَ هنا تخلطُ بين النظرية والتطبيق ، وإن فساد التطبيق لا يعني فساد النظرية!

بمعنى أن أعمال المسلمين الخاطئة هي بفعلِ النزعة الإنسانية التي فيهم ، والهوى ، والشهوة ، وليست ديناً وتعبداً والتزاماً بشرعِ الله!

أنتَ يمكَنُ أن تحاسبَنا على الأخلاق السيئة عند بعضنا إذا وجدْتَ آية تحثُّنا على أن نكون سيئي الأخلاق ، أو حديثاً نبوياً يُرغِّبنا بهذا! ولكنك تعرف أن العكس هو الصحيح! إن الله عندما أرادَ أن يمدحَ نبيه في القرآن الكريم لم يمدحه بنسبه مع أنه من أرفع العرب نَسَباً ، ولم يمدحه بقبيلته مع أنها أشرف قبائل العرب ، وإنما مدحه بأخلاقه فقال به : «وإنك لعلى خُلق عظيم» وإن نبينا ﷺ عندما أراد اختصار الدين قال : «الدينُ حُسن الخلق»!

نعم قد تجد مسلماً يسرق ولكنكَ ستجد في القرآن عقاب السارق وهذا دليلٌ أن الله حرَّمَ السرقةَ ولم يرضَها ، وقد تجد مسلماً يقتلُ ولكنك ستجد في القرآنِ أن الله جعلَ قتل نفس بريئة كقتلِ الناس جميعاً!

هذا دينٌ إماطةُ الأذى فيه عن الطريقِ صدقة ، والابتسامةُ

في وجه أخيك صدقة ، هذا دينُ التكافل «فواللهِ لا يؤمن من باتَ شبعاناً وجاره جائع» ، هذا دين الرحمة ، امرأة دخلت النار في هرةٍ حبسَتْها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكلُ من خشاشِ الأرض ، وبغيٌّ من بني إسرائيل غفرَ الله لها بكلبٍ سقته شربة ماء!

نعم فينا من هو سيئ الأخلاق ولكن أغلبيتنا ليسوا كذلك فلا تُعمِّم!

ولو كان أهلُ الأرض جميعاً أخلاقهم سيئة فهذا لا يرفع عنك واجب أن تؤمنَ بالله ولو كنتَ الوحيد من سكان أهل الأرض الذي أخلاقه حسنة ، فدعْ عنك هذا القياس الفاسد الذي تتسلح به!

ثم دعكَ منا ولنذهب إليكم ، أنا لن أقول إن ملحداً قتل أو سرق ، لأنك ستقول لي هذا أيضاً يشبه قولك لي فساد التطبيق لا يعني فساد النظرية ، لهذا سأذهبُ بكَ مباشرة إلى نظريتكم ، وإلى أشهرِ الملاحدةِ في العالم ونظرتهم إلى الأخلاق والقيم الأخلاقية التي جئتَ تسألنا عنها ، فيا صديقي إن كنت لا تعرف ماذا يقول كُبراؤكم فاسمع مني!

يقول ملحدكم «جان بول سارتر» : يجدُ الوجوديُّ حرجاً بالغاً في أن لا يكون الله موجوداً لأنه بعدم وجوده تنعدمُ كل إمكانيةٍ للعثور على قِيَم في عالم واضح!

أتعرف ما معنىً هذا الكلام يا هشام؟ معناه أنتم أيها

المؤمنون تستَمِدُّون قيمكم من وجود خالق تدَّعونه ، ورب تعبدونه ، نحن لا يمكن أن نجزم بوجود قيم أخلاقية لأننا لا نعترف بوجود رب!

أما صديقك الملحد الشهير «ريتشارد داوكنز» فيقول : في هذا العالم لا يوجد شر ولا يوجد خير ، لا يوجد سوى لامبالاة عمياء وعديمة الرحمة!

أما صديقك الملحد «ديفيد برلنسكي» فيقول : إذا كان الإله غير موجود فكل شيء مباح!

أما صديقك الملحد الأشهر «سام هاريس» فأراد إخراجكم من مأزق أنكم لا تقولون بوجود أخلاق ولا تعترفون بالقيم في كتابه المشهد الأخلاقي ، فكان أرقى ما وصل إليه أن القيم والأخلاق نفعية ، بمعنى يقوم بها الإنسان لتحقيق منفعة!

وبالعودة إلى صديقك الملحد «ريتشارد داوكنز» فقد قال مرةً مدافعاً عن الإجهاض بأنه «فعل أخلاقي» طالما ليس هناك ألم وبرَّرَ ذلك قائلاً : إن الجنين في بطن أمه هو أقل إنسانية من أي خنزير بالغ!

أما صديقك الملحد «بيتر سنجر» فيدافعُ عن ممارسةِ الجنسِ مع الحيوانات! ويقول بالحرف : لا خطأ في ذلك على الإطلاق بل إنه أمر محمود طالما يؤدي إلى استمتاع الطرفين : الحيوان والإنسان!

إن موقفك وأخلاقك الحسنة يا هشام ليس ديناً ،

ولا يصلح أن يكون ، إن قصتك وقصة أخلاقك لخَّصَها علي عزت بيغوفيتش في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب حين قال : يوجد مُلحدون على خُلق ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي!

الفرق بيننا وبينكم في الخطأ ، والجريمة ، والشذوذ ، أنه لا أحد منا يجرُؤ أن يسرقَ ويقول إن الله أحلَّ السرقة ، أو أن يزنيَ ويقول إن الله أمر بالزنا! بل إنه يقوم بهذه الأفعال المشينة وهو يؤمنُ في قرارةِ نفسه أنها خطأ ، وهو في الغالب لا يجرؤ على الدفاع عن تصرفاته ، هذا إذا لم يعترف فوراً بأنها خطأ ، وأن ارتكابه للخطأ لا يجعله يقول بأنه صواب!

بينما أنتم فالأمر كما رأيت يا صديقي ، إن نظرية الإلحادِ برُمّتِها قائمة على قلةِ الأخلاقِ والوجدان!

بدءاً من أنه لا يوجد أخلاق أساساً ، مروراً بكل شيء مباح ، وصولاً إلى أن الجنين لا يزيدُ إنسانية عن خنزيرٍ بالغ ، وليس انتهاءً على أن ممارسة الجنس مع الحيوانات أمرٌ محمودٌ لأنه يحقق لذة للطرفين!

أتدري لماذا قلتُ لك ليس انتهاءً لأني خبأتُ لك شيئاً أردْتُهُ أن يكون مسك الختام!

في مناظرةٍ بعنوان الإلحاد والإسلام أيهما أكثر منطقية ، سُئل الملحد الشهير لورانس كراوس : على أي أساس تُخطئ زنا المحارم؟

فقال : ليس واضحاً لديَّ أنه خطأ!

وعندما أراد دوكينز الدفاع عن صديقه كراوس قال : زنا المحارم لا أفعله ولكنه ليس عيباً!

ليس عيباً عند كُبرائكم ومُنظِّريكم يا هشام أن يمارسَ الإنسان الجنس مع أمه أو أخته أو ابنته!

وليتكَ وجدتَ مُنظِّراً ملحداً يخرج ويدافع عن الإلحاد حفظاً لماءِ الوجه ، بل إن البروفيسور غريف خرج ليدافع عن صاحبيك دوكينز وكراوس فقال : يجب أن نحذفَ من القائمةِ تجريم زنا المحارم ، والأب يستطيع الإنجاب من ابنته ، أين المشكلة في هذا؟!

هنا تكمن المشكلة يا هشام أنهم لا يرون في الأمر مشكلة!

عن ماذا أحدثك بعد؟!

عن دان باركر الذي يقول : إن الاغتصاب قد يكون أمراً أخلاقياً!

أم عن دوكينز الذي رفض تسمية الخيانة الزوجية على أنها خيانة لأنه ليس من حقِّ أي شخص امتلاك جسد الآخر ، هذه عبودية!

بمعنى أنك إذا تزوجتَ امرأةً ملحدة يا هشام فليس لك الحق في أن تلومها إذا مارسَتِ الجنس مع غيرك ، أنتَ بهذا تمارسُ عليها العبودية وتسعى لامتلاكِ جسدِها ، عليك أن تتقبلَ الأمر بروحٍ رياضيةٍ وتصفقَ لها لأنها تسعى لنيل حريتها!

عن ماذا أحدثك يا هشام؟!

عن «بيتر سنجر» الذي يقول بأنه لا بأس بقتلِ المواليدِ الذي يعانون من الإعاقة!

أم عن «ديفيد سيلفرمان» الذي يقول بأن تعذيب الأطفال وأكلهم ليس خطأً واضحاً ، قد يكون خطأ نسبيًا ليس إلا!

أنا أقبلُ أن تحاسبني على نظريتي فتقول لي قال ربك كذا ، وقال نبيك كذا ، وأنتَ بالمقابل عليك أن تقبلَ مُحاسبتي لكَ على نظريتك عندما أقولُ لكَ إن مُنظّريكم وفلاسفتكم يقولون كذا!

أما أن تقول لي أنا لا أقبل أن تزني زوجتي ، ولا أقبل بقتلِ الأطفالِ وأكلِهم ، ولا أقبل بزنى المحارم ، ولا ممارسة الجنس مع الحيوان ، فجميلٌ أن لا تؤمن بهذا ولا تفعله ولكن من المخجل أن تكون تحت مظلة فكرية واحدة مع من يقولُ هذا وينادي به ويفعلُه دون أن يرفَّ له جفن!

جولة أُخرى كسبَها ماهر ، ولكن النصر كان هذه المرة مختلفاً ، وبالتالي كانتْ هزيمة هشام مُختلفة أيضاً ، ثمّة هزائم عابرة لا نُبالي بها ، نُرمِّم أنفسنا منها سريعاً ونُكمل ، ولكن ثمّة هزائم حتى العظم ، هذه التي تجعلنا نفقد ثقتنا بجدوى الحرب التي نخوضها ، ومن معرفتي بهشام وطريقة تفكيره ، كانتْ هزيمته هذه المرة من هذا النوع الذي يصلُ حتى العظم ولا يمكن ترميمه ، ولكن هشاماً على أية حال قررَ أن يُواصِل ، ليس مُكابرة طبعاً ، هذا شيء أنا أكيدٌ منه ، ولكن برأيي أنّه قررَ أن

يُتابع ليُثبت خطأ معتقدات ماهر ، أو لِنقل بتعبيرٍ أدق خطأ اعتقاد ماهر واعتقادنا معه أنّ الإسلام دين من عندِ الله! أما بخصوص الإلحاد ووجود خالق فقد كنتُ على يقين أنّ هذه النقطة كان هشام قد تجاوزَها ، نظرات عينيه كانتْ تقول هذا ، الأسئلة التي طرحَها لاحقًا تقول هذا ، لم يعد هشام يُناقش فكرة الخالق ووجوده ، صار يُناقش في تفاصيل الإسلام ، وقد كنتُ على يقين أنّ ماهراً لن يكون أقلّ دراية وحنكة في هذه الأمور عمَّا كان عليه في النقاشات السابقة التي تناولا فيها قضية الخالق ووجوده . وما كنتُ على يقين به أيضاً أن الوقت لن يطول حتى يأتي هشام مُقِراً لماهر بما قال ، ولستُ أبالغ يا وعد إذ أقول لكِ أني في لحظة من اللحظات قلتُ في نفسي : إن الله أرادَ بهشام خيراً إذ ألقاه في طريقِ ماهر ، أو ألقى ماهراً في طريقه ، ثمة شيء في القلب لا يراه إلا الله ، ثمة بصيص نور في حياة الإنسان المُظلمة لا يعلمه إلا الله ، ومن رحمته يُهيِّئ من يَأخذ بيدِ هذا الإنسان لأجل النور في قلبه ، وكذلك بالمقابل ثمّة ظُلمة في قلب إنسان آخر وحده الله يعلمها مهما ادَّعى صاحبها من نور!

قد تبدو لكِ المسألة شائكة يا وعد ، ولكني سأُقَرِّبها لك بمثالين :

الأول : تعرفين قصة إسلام عمر بن الخطاب لا شك ، ودعاء النبي ﷺ : اللهم أعزَّ الإسلام بأحد العُمَرين عمر بن الخطاب

أو عمرو بن هشام! لم يكن اعتباطاً أن كان عمر بن الخطاب ولم يكن أبا جهل ، لقد نظرَ الله إلى قلبيهِما فأتى بالأجمل قلباً!

بالمقابل تعرفين حديث رسول الله ﷺ : «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل النار فيسبق عليه الأجل فيدخلها! وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيسبق عليه الأجل فيدخلها!»

وانتبهي جيداً لقوله : فيما يبدو للناس!

القلوب صناديق مغلقة يا وعد ولا يعلم بها إلا خالقها!

كان ابن سلول يصلي الفجر في المسجد خلف رسول الله ﷺ ولكن الله كان يرى نفاقه وظلمة قلبه فكان في الدرك الأسفل من النار!

وكان خالد بن الوليد في أُحُد يقلب نصر المسلمين إلى هزيمة ولكن الله كان يرى نوراً في قلبه فأتى به!

هذا ما خطر لي بعد أن عرفتُ هشاماً عن قرب ، كنتُ أعرف أن الله أرحم من أن يتركَ قلباً كقلبه يبتعد ، وصحيح أنه تأخرَ كثيراً في المجيء ، ولكني أعذره ، فالإيمان عن اقتناع أحب إلى الله من الإيمان عن تقليد ، وصدق رسول الله ﷺ حين سُئل عن معادن الناس فقال : «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»!

اتفـقنا أن نلتـقي بعـيـدًا عن الحـافلة ، حـيث لا نرى الأشخاص ذاتهم يوميًا ، فلا نثير الأقاويل والثرثرات حولنا ، كنتُ أتصبر بكونها حالة مؤقتة ستنتهي قريبًا بمجيئ والديك وتقدمي رسميًا لطلبكِ منهما!

ولكن ظلّت الحافلة المكان الذي أراكِ فيه كل يوم ، أحصل على حصتي فيه من ابتسامتكِ ، والمكان الذي تنعشني فيه رائحة عطركِ!

- بقي شهر واحد يا مهندس كريم!

قلتِ ذلك ويدكِ تجول بالملعقة في صحن الغداء ، فقد اعتدنا على أن نتناول غداءنا معًا كل ظهيرة في المطعم القريب من عملك ، منذ انقطعت رفقتنا في الحافلة .

- شهر واحد على ماذا؟

- على تخرجكَ ، ماذا أصابك ، هل نسيت؟

- أجل ، لقد استحوذ انتظاري لمجيء والديك على انتظاري ليوم تخرجي ، كان الشيء الوحيد الذي أنتظر حدوثه قبل أن أعرفك!

- هذا يعني أني صرتُ أولوية!

- أنتِ كذلك .

- عليك الآن أن تنحّيني جانبًا ، قريبًا ستبدأ اختباراتك النهائية ، لا أريد أن يتدنى مستواك بسببي

- لن يتدنى ، لقد تضاعف عزمي منذ عرفتكِ ، لأن تقدمي خطوة من التخرج والعمل يعني تقدمي خطوة منكِ ، أنتِ دافع لا عائق .

- أحيانًا يرعبني كلامك هذا!

- لماذا؟

- أشعر أني لا أستحقه ، أخشى أن أخذلك!

- أنتِ تستحقين الأفضل ، وجودك سبب كافٍ لاستحقاقكِ هذا ، فبوجودكِ جعلتِ الأرض مكانًا أجمل ، وجعلتني شخصًا مختلفاً وسعيدًا .

- أنتَ تعرف أني أحبكَ كثيرًا

- أعرف ، وأحبّ أني حظيتُ بقلبك .

- تذكر هذا دائمًا ومهما حدث!

- لماذا تتحدثين الآن وكأنك على وشك فراق!

- فقط أحبّ أن تعرف أنك مهم عندي ، ليس للفراق علاقة بالأمر .

ابتسمتِ بعدها ونهضتِ وأنتِ تشيرين لساعتكِ إشارة مفادها أن وقتك انتهى وعليك العودة للعمل .

نهضتُ بدوري وأنا أفكر في تلك السحابة الغريبة من الوجوم التي تغزو ملامحك كل مرة أقترب فيها من الحديث عن

مسألة تخص مستقبلنا معًا ، شيء يبدد راحتي ويزرع في قلبي أشواك القلق .

انقضى الشهر الأخير في الجامعة ، وحصلتُ على ما أصبو إليه وأكثر ، كنتُ قد اجتهدتُ كثيرًا في الدراسة دون أن أهمل الحصول على حصتي من وجودك ، لم يكن يمرّ يوم دون دقائق من صوتكِ على الهاتف ، ساعة من وجهكِ في الحافلة ، ساعة من أحاديثكِ في أماكن متفرقة نحددها للقاء ، كنتُ سعيدًا ، كل شيء كما في أحلامي ، المرأة التي أحبُّ ، الشهادة التي أردتها أخيرًا صارت بحوزتي ، وعرض العمل الأول قد جاءني من الجامعة نفسها لأكون أستاذًا فيها ، طرتُ إليك لأزفّ تلك الأخبار الجميلة ، فلم يعد للأشياء طعم ما لم أتشاركها معكِ .

- أنا سعيدة جدًا لأجلك ، هذه أخبار جميلة فعلاً ، هل ستقبل العمل في الجامعة؟

- أجل ، أظنها فرصة جيدة ، ولكنني أرغب في ممارسة العمل الميداني أيضًا ، غير أني لن أتعجل الآن ، سأستغل الفرصة التي لديّ ثم أحقق طموحاتي الأخرى على مهل ، الأولوية الآن للعمل ، ثم الاجتماع بكِ يا حلوتي!

- أنتَ تستحق الأجمل من كل شيء!

- لذلك حظيتُ بكِ!

ابتسامتكِ كانت على غير المعتاد ، شحوب غريب كان يعلو وجهك ، فسألتكِ بقلق :

– ما بكِ يا وعد؟ هل أنتِ مريضة؟

– لستُ مريضة ، أظن أنه مجرد إعياء عابر . . .

– لا يبدو كذلك ، هل ثمة شيء يزعجك؟

– كـلا ، ليس في هذا اليـوم على الأقل ، وقـد أسـعـدتني بأخبارك الجميلة هذه!

– أرجو ذلك ، ستحضرين حفل تخرجي أليس كذلك؟

– متى؟

– مطلع الأسبوع القادم!

– لا أعرف ، أرغب بشدة ، ولكن ألن يتساءل الآخرون عن سبب وجودي معك!

– هذا ما أريده ، أعرّفك على أصدقائي وعائلتي ، أرغب أن أباهي بكِ ، لا أريد أن أخبئك بعد الآن ، أريد أن يعرف الجميع أنك المرأة التي سأعيش معها القادم من عمري . . .

– لا أظن أن هذه فكرة صائبة ، أقصد الناس ليسوا بهذه العاطفية ليتفهموا علاقة لم تتم بالطرق التقليدية!

– يا إلهي يا وعد ، متى تحولتِ لشخص يأبه بالناس أكثر من نفسه ، نحن لا نرتكب خطأً ، أَنتِ تعرفين أني أرغب اليوم قبل الغد أن تكوني زوجة لي ، أنتِ من يؤجل الأمور دائمًا!

– أنا أتحدث من واقع الحياة التي نعيشها يا كريم ، لا من قناعاتي ، لا أهتم بما يقوله الناس ، بقدر ما أهتم بكون هذا قد يمس عائلتي ، وأنا لا أريد أن يمسهم سوء من طرفي . . .

– أين هي عائلتك؟ تتحدثين وكأنهم هنا ونحن نلتقي سرًا عنهم ، ونتعمد أن نشوه مكانتهم في المجتمع! لا كأني منذ أشهر أنتظر عودتهم لأحل هذه العقدة التي تخنقيني بها كل مرة يجرنا الحديث إلى هذه المسألة!

– لا بأس ، دعنا لا نمضي في هذا الحديث فنهايته معروفة ، سآتي لحفل تخرجك .

– تحبين تعذيبي قبل أن تقبلي أمرًا!

– لا أحبّ تعذيبك ، بل أحبك أنتَ!

– أرجو أن يكفي ما تبقى لي من صبر حتى تُحلّ مسألتك العائلية هذه .

بدأ الاحتفال في العاشرة صباحًا ، حيث كان المكان قد شارف على الازدحام قبل التاسعة ، الخريجون بعباءاتهم وقبعاتهم وابتساماتهم الشبيهة بابتسامات النصر ، الأهالي يوزعون نظرات التباهي بأبنائهم على الآخرين ، القائمون على الحفل يُعدّون المنصات ويتأكدون أن المكان جاهز بكل ما تتطلبه فعاليات الاحتفال المعتادة ، وحدي كنتُ مشغولاً بترقب مجيئكِ الذي بدا لي متأخرًا أكثر مما يجب ، كنتُ أريد أن آتي لاصطحابكِ ، ولكنكِ لم تقبلي كالعادة ، فما زال عنوان سكنكِ سريًا بالنسبة لي ، ولكنكِ وعدتني بالحضور وهذا ما جعلني أتراجع عن الإصرار على جلبكِ معي بالقوة ، فكل ما كنت

أعتقده هو أن خجلكِ من عائلتي وأصدقائي هو ما يمنعك من مرافقتي .

كان محمد يثرثر بأحاديث حول نظرات الإعجاب التي تخصه بها الفتيات على حدّ قوله ، وسهام تغرز في خاصرة أحاديثه ردودها اللاذعة ، كان الجميع مشغولاً بالتقاط الصور التذكارية ، في كل مكان يتكوم الخريجون ملوحين للهواتف التي لا يكف أصحابها عن إشهارها في وجوه كل من يقابلهم ، وكأن الجميع قد احترف التصوير فجأة ، شدني محمد إليه لأنضم إلى المجموعة بغرض أخذ صور للمناسبة التي لا تتكرر على حدّ تعبيره : لا ترتدي كل يوم قبعة تخرج ، ولا يحتفي بك هذا الجمع كل يوم!

اقتربت منه ، صنعتُ ابتسامة لتبدو الصورة أفضل ، لم تكن صورة واحدة على أي حال .

كانت أمي في أوج سعادتها بي ، وكان أبي فخورًا متباهيًا ككل الآباء والأمهات هنا ، وكنتُ ممتنًا فعلاً لكل هذه الألفة التي يصنعها جو المكان حولي ، غير أني لم أكن أشعر بقدرتي على استشعار هذا ، بينما يشتتني غيابك حتى الآن .

بدأ الحفل!

كان الجميع قد أخذ مكانه ، واعتلى المنصة مقدم الحفل ، وتتابعت المراسيم المعتادة ،

حاولتُ التركيز والتخلي عن فكرة انتظارك ،

لم يكن عليّ أن أصر عليكَ ، لو كنتِ تحبين أن تكوني بجانبي لكنتِ الآن هنا ، لجاءت بكِ رغبتكِ في مشاركتي لحظاتي الهامة والمميزة ، إصراري أحرجكِ فأسكتني بوعد دون نية بالوفاء ، هكذا كنتُ أحدث نفسي طوال الوقت ، لقد شعرتُ أنكِ أفسدتِ ما كان يفترض به أن يكون لحظة سعيدة .

مضى الوقت حتى بدأ تكريم المتفوقين وكنتُ واحدًا منهم ، علت موجة صاخبة من التصفيق حين أجبتُ النداء الذي ارتفع باسمي ، وتوجهتُ إلى المنصة ، رفعتُ يدي عاليًا بالشهادة التي أُعطيت لي ، علامة الفخر ربما أو كتصرف اعتيادي في هذا الموقف ، جالت عيناي بين الحضور ، لم تكن تبحث عنكِ هذه المرة ، فقد يئستُ من مجيئك ، لكنها ولدهشتي قد وقعت عليكِ ، كنتِ تقفين في منتصف المقاعد تصفقين بحرارة وتبتسمين بسخاء ، دون وعي مني صافحتُ الأيدي الممتدة بعجالة وعيني ما زالت عليكِ ، خشيتُ أن تتلاشي إن أنا أشحتُ بها عنكِ ، أسرعتُ إليكِ ، كنتِ تقطعين المسافة أيضاً إليّ ولكنكِ لم تكوني في عجلة من أمركِ كما كنتُ ، قلتُ لكِ وأنا ألهث من المشي السريع أو على الأرجح من السعادة : ظننتكِ لن تأتي!

- وعدتكَ بذلك!
- عندما تأخرتِ بدأتُ بالتفكير بسوداوية!

- أنت تسيء الظن بي كثيرًا في الآونة الأخيرة ، هل تظن أني أفوت حدثًا كهذا ، لو تعلم كم شعرتُ بالفخر عندما رأيتكَ على المنصة!

- لو تعلمين أنتِ كم شعرتُ بالسعادة عندما رأيتكِ هنا ، لقد منحتني الدنيا كلها بمجيئكِ ، تعالي أريد أن تلتقي بأصدقائي .

رافقتني حيث كان الجميع يقف في مكان بعيد عن الضوضاء قليلاً ، رغم أنه لم يكن ثمة بقعة هادئة في المكان ، كان الرفاق ما زالوا يلتقطون الصور مع كل شيء وكل شخص!

انضممنا إليهم وبدأتُ بتعريفكِ على الجميع ، وحين عرّفتهم عليكِ أخبرتهم فقط أنكِ وعد ، لم أضف صفة على اسمك ، نزولاً على طلبك أولاً ، ولأنه بالنسبة لي كان اسمك كافيًا ليشمل كل الصفات ، الحب والصداقة والسعادة والجمال .

كانت سهام قد بدأتكِ الحديث بقولها : هل تقابلنا من قبل؟ وجهكِ مألوف لديّ!

- لا أعلم حقيقة ، أنا موظفة بنك وأقابل الكثير يوميًا ، لعلكِ كنتِ إحدى اللواتي تعاملتُ معهن!

- ربما!

قالت سهام وهي تتفحصك كما تفعل عادة حين تقابل شخصًا جديدًا .

أمضينا بقية النهار في الطقوس المعتادة لمثل هذه المناسبات ، الكثير من التهاني والمهنئين ، الحماسة الزائدة التي يظهرها بعض الخريجين .

اتفقنا أن نغادر المكان لتناول الغداء في أحد المطاعم القريبة ، لكنك اعتذرتِ بأنكِ لا تستطيعين التأخر أكثر من ذلك ، لم أرغب في الضغط عليكِ أكثر ، رغم أني تمنيتُ أن تخرجي بصحبتنا ، كنتُ أحبّ أن تكوني معي ، لكني رضختُ لرغبتكِ ورافقتكِ حتى موقف الحافلات ، قلتُ ونحن واقفان بانتظار الحافلة :

- سأبقى عمري كله مدينًا للحافلة!

- لماذا؟

- لأنها جمعتني بكِ!

- أرجو ألا تكرهها لاحقًا!

ضحكة ساخرة صاحبت كلماتكِ ، بينما أجبتكِ بسخرية مشابهة :

- الكراهية جزء من الحبّ في الواقع!

- أتفق معك ، كلاهما اهتمام مبالغ فيه!

- هل تلاحظين معي أننا لم نعد ذات الشخصين اللذين ركبا تلك الحافلة لأول مرة!

- كيف ذلك؟

- أنتِ كنتِ أشدّ مرحًا ، أقل مبالاة ، أكثر انطلاقًا ، وتوهجًا ، لا أدري كيف تحولتِ إلى هذه المرأة الحذرة المترددة؟

بينما كنتُ أنا جبان الخطوات ، بخيلاً فيما يتعلق بالعواطف ، أحسب حساب كل شيء بدقة ، والآن أشعر أن قلبي بخفة غيمة ، وبداخلي اندفاع يكفي ليجعلني آخذكِ أمام أعين الجميع وأمضي بكِ لأتوّجكِ على عرش حياتي ، لقد حررني الحبّ وقيّدكِ ، ولا أفهم سبب ذلك!

- ليس الحبّ ما قيدني يا كريم ، الحقيقة من فعلت ، الجهل ببعض الأشياء هو ما يصنع شعورك الجميل هذا .

- ما هي هذه الأشياء التي أجهلها!

- لا تلقِ بالاً ، مجرد حديث عابر ، ها قد وصلت الحافلة ، سأذهب الآن ، وأنت عُد لأصدقائك وأكمل احتفالك ، سنتحدث لاحقًا .

- حسنًا ، اعتني بنفسك ، أحبك .

- أحبك أكثر .

راقبتُ الحافلة التي انطلقت بكِ حتى توارت عن الأنظار ، ثم عدتُ إلى حيث كان الجميع يتأهب للخروج .

وصلنا إلى المطعم ، وبالطبع كانت وعد محور الحديث بين الأصدقاء ، وجهت سهام السؤال الذي يشغل بال الجميع :

- من وعد هذه؟

أجاب محمد قبل أن أفتح فمي : زوجة المستقبل!

- ماذا؟

كان تساؤلاً جماعياً ،

- متى حدث هذا؟

سألت هناء ،

- لماذا لم تقل لنا شيئًا؟

سألت منال :

- هل تقدمت لخطبتها ونحن آخر من يعلم؟

سألت سهام :

حين هدأت عاصفة الأسئلة ، قلت : لم يحدث شيء رسمي بعد ، الأمر لا زال مجرد نية ، أفصحتُ عنها لمحمد ، وقد تكرم بإذاعتها!

- يعني أنكَ في علاقة جادة معها؟

استلمت سهام دفة الحديث أو بالأحرى التحقيق!

- وهل أبدو كشخص لعوب؟ تعرفين أني لا أقيم علاقات عبثية ، إضافة إلى أني أحبها حقًا!

- هذا شيء جميل جدًا يا كريم ، سعيدة من أجلك!

قالت هناء التي تُظهر لطفًا دائمًا في تعاملها وحديثها ،

لكن سهام علقت :

- ما زلتُ أظن أني أعرفها من مكان ما!

- قد تكونين التقيتِ بها من قبل ، كما أخبرتك فطبيعة عملها تقتضي مقابلة الكثير من الناس!

- ومتى الزواج؟

سأل زيد ،

- لا أعرف بعد!

لم أستطع الخروج من حصار الأسئلة ذاك ، حتى غيّر محمد دفة الحديث ببراعة كعادته ، سائلاً هناء وزيد :

- كيف تجري الأمور معكما أنتما الاثنين ، هل سنقيم عرسًا قريباً؟

ابتسمت هناء ،

- أظن أننا ما زلنا بحاجة لعام آخر من أجل الاستعداد ماديًا للأمر .

تحول الحديث إلى نوع من النقاش الاقتصادي والاجتماعي حول تكاليف الأعراس والمعيشة المادية الصعبة ، تنفستُ الصعداء قليلاً ، كنت ما زلتُ أفكر في حديثنا الأخير قرب موقف الحافلات ، ثم فكرتُ كيف كانت مفاجأة حضورك مبهجة وكيف غيرتِ مسار اليوم كله بوجودكِ ، كنتُ أحاول التخلي عن أي شعور سلبي تجاهكِ ، لأني أردتُ حقًا أن يفوز حبكِ بداخلي على كل تلك الهواجس المتصارعة ، حين خطرت ببالي تفاصيل اللحظة التي رأيتكِ فيها بين الحضور ، تحركت أشواقي إليكِ ، مما دفعني لإرسال رسالة تحت وطأة ذلك الشعور فكتبت : أحبك حبًا لو وُزع على هذه الأرض لأنهى الحروب وأوقف المجاعات وجعل الأرض جنة .

ثم ضغطت على أيقونة الإرسال .

وانتظرتُ ردك الذي لم يأتِ أبدًا .

تقولُ العرب يا وعد : كلٌّ مُنتَظرٍ آت!

وبالفعل صدقتْ فراستي ، وأتى ما كنتُ أنتظره!

قال هشام لماهر : حسناً يا ماهر أنتم تقولون أن الناس كلهم لآدم ، وأنهم في الأصل أحرار ، جميعهم أبناء رجل وامرأة هما آدم وحواء ، والأصل أن يكون الإنسان حُراً كما وُلد ، فكيف لدين هذا قوله في الإنسان أن يُبيح الرِّق؟

وأن نجد في آيات القرآن وأحاديث نبوية ، بين قوسين طبعاً ، تشريعات لنظام الرِّق هذا؟! كيف يُعقل بدين يقول جئتُ لأحرر الإنسان أن يرضى أن يكون الإنسان سلعة تُباع وتُشترى في الأسواق؟! وكيف لدين يقولُ جئتُ لأساوي بين الناس في الحقوق والواجبات والكرامة الإنسانية أن يرضى بمجتمع طبقي ينقسمُ إلى سادة وعبيد؟!

– أسئلة جميلة يا هشام ، ولكنها قائمة على مغالطات تاريخية!

أنتَ تسألني عن الرِّق في الإسلام وكأنَّ الإسلام جاء والناس جميعهم أحرار فأمَرَهم أن يسترِقَّ بعضهم بعضاً كما أمرهم بالصلاة والصيام والزكاة والحج! لو كان الأمر كذلك لقلتُ لك معك حق أسئلتك في مكانها وملاحظاتك منطقية ، ودين

جاء لاستعباد الناس ليس جديراً بالاتِّباع أبداً! ولكن الأمر ليس كذلك يا صديقي!

لقد بدأ الرِّق والاستعباد في عصر الإمبراطورية الرومانية أي قبل مجيء الإسلام بآلافِ السنوات ، فليس من العدلِ والإنصاف أن نناقشَ ظاهرة الرِّق في الإسلام على أن الإسلام هو الذي جاء بها!

كان الرقيق والعبيد في الإمبراطورية الرومانية مجرد أشياء لا أشخاصاً! ليس لهم حقوق وعليهم كل الواجبات! ولو قام سيد روماني وأخذ سكينه وذبح عبداً له في وسط الطريق ما سأله أحد لماذا ذبحتَ هذا العبد! إذ أنه كان في عُرف القوم مُلكاً لسيده بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى ، مُلكاً له بجسده وروحه!

أما من أين أتى الرومان بالعبيد ، فقد أتوا عن طريق الغزو الجشع الذي كان قائماً على فكرة أن الشعوب الأخرى أقل قيمة وليست جديرة بالحياة فضلاً عن أن تكون جديرة بالحرية ، ولكنهم كانوا يُبقون على بعض تلك الشعوب لكي يستمتعوا بحياةٍ مرفهةٍ مليئةٍ بالبذخ والترف قوامها هؤلاء العبيد الذين هم بالأصل أحرار فتم استعبادهم بعد أسرهم وحوّلوهم من بشر إلى بضاعةٍ تُباع في الأسواق!

أما ظروف العمل التي كان يعمل بها أولئك الرقيق في الإمبراطورية الرومانية فحدِّث ولا حرج ، كانوا يعملون في

الحقول مقيدين من أرجلهم لمنعهم من الهرب، وكانوا يحصلون على طعام قليل يحتاجونه ليبقوا على قيدِ الحياة فقط، وكانوا كل صباح يُساقون إلى الحقول، وورش نحت الصخور، وشقّ الطرقات بالسِّياط والكرابيج! وكان نومهم في زرائب الحيوانات التي تُعتبر حظائر الخيول فنادق خمس نجوم مقارنة بها!

وكذلك كان العبيد في الإمبراطورية الرومانية مجرد أداة لِلّعب واللهو، يجلس الرومانيون في مدرجاتهم الشهيرة، ويُعطى العبيد الرماح والسيوف ليتبارزوا أمامهم أيهم الأسرع في قتل منافسه الذي لم يختره وليس بينه وبينه أية عداوة، بل هي رغبة السيد في رؤية الدم البشري يُسال أمامه فترتفع صيحات الجماهير تشجيعاً وحماسة! وعند انتهاء اللعبة يُلقى الأموات الخاسرون في المبارزة في قبورٍ جماعية، أما المنتصرون الجرحى فليس لهم حق العلاج حتى!

ولم تكن هذه حالة الرومان فقط، فالوضع في جزيرة العرب وبلاد فارس أو الهند لم يكن أحسن حالاً، كان عبيد هذه المجتمعات يُلاقون ما يُلاقي إخوتهم من العذابِ والإهانةِ وهدرِ الكرامة الإنسانية في المجتمع الروماني!

ثم أشرقتْ شمس الإسلام على الدنيا! ونزلتْ أولى كلمات القرآن الكريم «اقرأ»، وكانتْ هذه الكلمة إيذاناً بأنّ كوكب الأرض مع لحظةٍ مفصليةٍ من تاريخه، هذا إن لم نقل أجمل لحظة في تاريخه، هذا الكوكبُ سيعجُّ بالرحمةِ بدءاً من

الآن ، ورسالة السماء ستُرخي بظلالِها على الأرض يتفيّأها الناس ، ذكرهم وأنثاهم ، حرهم وعبدهم ، صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، حتى الشجر والدواب ستطالهما رحمة هذا الدين ، سيُعلِّم رسول الله ﷺ أتباعه أن لا يقطعوا شجرة ، وأنّ الساعة لو قامت وفي يدِ أحدهم فسيلة فلْيَزرعها ، وسيخبرهم أن بغِياً من بغايا بني إسرائيل دخلت الجنة بكلبٍ سقته ، وأن امرأة أخرى دخلت النار في هرةٍ حبسَتْها!

ولعلكَ تتلهفُ لتسمعَ ما الذي فعله الإسلام بشأن العبيد!

إنَّ أول شيء فعله الإسلام هو أن ردَّ للعبيد والرقيق إنسانيتهم المهدورة ، فلم يعودوا أشياءَ تُباع وتُشترى ، ولا بهائم يَنحرها أسيادها إن شاؤوا!

جاء الإسلام ليقول للناس : كُلكم لآدم وآدم من تراب!

جاء ليُخبر الناس أن التفاضل بينهم من الآن هو التقوى فقط وليس لون البشرة ، ولا الثروة ، ولا الحسب ولا النسب!

جاءَ الإسلام ليصعد بلال بن رباح على ظهر الكعبة ويؤذِّن في الناس وقد كان من قبل سلعة تُباع فصارَ بالإسلامِ سيداً ، وما زال عُمر بن الخطاب كلما رأى بلالاً قال : بلالَ سيدنا وأعتقه سيدنا! وهو الخليفة يومذاك!

جاءَ الإسلام ليرفع عن العبيد الظلم ، ويضمن لهم حق الحياة ، وحق الكرامة ، ويُساويهم بهذا بأسيادِهم وإن كانوا

يملكونَهم فقال رسولنا ﷺ : «من قتل عبده قتلناه ، ومن جَدَعَ عبده جَدَعْناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه»!

جاءَ الإسلام ليجعل العلاقة بين السيد والعبد علاقة أخوة بعد أن كانت علاقة استعلاء واستعباد ، فكان يقول للسادة : «إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليُطعمه مما يأكل ، وليُلبسه مما يلبس ، ولا تكلِّفُوهم ما يغلبهم ، وإن كلَّفتموهم فأعينوهم»!

جاء الإسلام ليُراعي مشاعرهم حتّى ، فنهى رسول الله ﷺ أن يقولَ الرجل هذا عبدي وهذه أَمَتي ، وإنما يقول فتاي وفتاتي!

وقد قال ﷺ لرجلٍ ركبَ فرسه وخلفه عبده يجري : «احمله خلفكَ فإنه أخوكَ ، وروحك مثل روحه»!

وبعد أن ردَّ الإسلام للعبيد كرامتهم وإنسانيتهم ، وغيَّر نظرة العبيد لأنفسهم ، ونظرة السادة لهم ، انتقلَ إلى مرحلةِ التحريرِ الفعليّ من ضيقِ العبودية إلى سعةِ الحرية ، وقد اتّخذ طريقين لتحقيق هذه الغاية .

الأولى العِتْق ، فقد شجّع الإسلام على عتق العبيد تقرُّباً إلى الله ، سواء العبد الذي يملكه الإنسان المسلم ، أو الذي يَشتريه من سيده ثم يعتقه ، ومؤذِّن الرسول ﷺ كان مملوكاً لأُمية بن خلف فاشتراه أبو بكر وأعتقه!

وأيضاً جعلَ الإسلام كثيراً من الكفارات هي عتق العبيد فكفارة القتل الخطأ هي دية لأهل القتيل وعتق رقبة عبد!

أما الثانية فهي المُكاتبة فأيّما عبد أرادَ حريتَه يكتب بينه وبين سيده عقداً بمبلغ من المال متى أدّاه صار حُراً ، وممنوع على السيد أن يرفضَ المكاتبًة ، فهي اختيار من العبد ولكنها واجب على السيد! وباللحظةِ الأولى للمُكاتبة يُصبح عمل العبد عند سيده مُقابل أجر! بل وله الحق أن يعملَ في وقت فراغه عند غير سيده ليجمع ثمن حريته ، بالإضافة إلى أن أحد مصاريف الزكاة هي إعانة هؤلاء المُكاتبين على نيل حريتهم!

– حسناً يا ماهر ، اسمح لي أن أُقاطِعك على غيرِ عادتي وأسألك : ما دام الأمر كذلك لماذا لم يَنص القرآن صراحةً على تحريم الرِّق ، كما حرَّم الخمر والميسر والزنا والربا؟!

– عليكَ أن تعرفَ أولاً أن القرآن تشريع رب الناس للناس ، وهو حين يُشرِّع فإنه يعرف خفايا الأشياء التي لا نعرفها نحن ، لهذا سأُجيبُك مُتكئاً على التاريخ وعلمي النفس والاجتماع!

الحُرية يا هشام تُؤخذ ولا تُمنح ، ومُخطئ من يعتقد أن إصدار مرسوم بتحرير العبيد كافٍ لتحريرهم ، يخبرنا التاريخ أن أبراهام لينكولن وقَّعَ مرسوماً لتحرير العبيد ، فما الذي حدث؟ هل صاروا أحراراً اعتباراً من لحظة توقيع المرسوم؟!

على العكس تماماً إن الغالبية العُظمى من عبيد أميركا يومذاك لم يستطيعوا تحمُّل تكاليف الحرية ، وعادوا إلى أسيادهم يرجونهم أن يقبلوهم عندهم عبيداً مرةً أخرى!

أتعرف ما السبب يا هشام؟

السبب أنهم كانوا ما يزالون عبيداً من الداخل ، حُرِّرت أجسادهم فقط أمّا أنفسهم وأرواحهم فكانت ترزح تحت أغلال العبودية!

قد يبدو إليك الأمر غريباً ومُستهجَناً ، ولكنه لن يعود كذلك إذا نظرتَ للأمرِ من زاويةٍ نفسية!

فحياة الإنسان باختصار هي جملة عادات ، والظروف التي يعيش في ظِلِّها الإنسان تصوغ مشاعره وأحاسيسه وأجهزته النفسية! ولا شك أن نفسية الحُر تختلف عن نفسية العبد ، ليس لأنه من جنسٍ آخر كما كان يعتقد قُدماء الرومان والفُرس والهنود وحتى العربُ في جاهليتِهِم ، ولكن لأنّ قروناً طويلةً من العبودية جعلتْ أجهزة العبيد النفسية تتكيف مع العبودية ، وبهذا نَمَتْ أجهزة الطاعة العمياء إلى أبعد حد ، وضَمَرَتْ أجهزة المسؤولية وتحمُّل التبعات إلى أبعد حد!

فالعبيد يُحسنون القيام بما يأمرهم به أسيادهم ، لقد برمَجَتْهُم سنوات العبودية الطويلة على الطاعةِ والتنفيذ ، ولكنهم لا يُحسنون القيام بالأمورِ التي تقعُ فيها مسؤولية عليهم ، لا لأنّ أجسامهم عاجزة عن القيام بهذه الأعمال ، ولكن لأن نفوسهم وأرواحهم ما زالتْ حبيسة بيدِ أسيادِهم!

لهذا قبل تحرير العبد حرية كاملة كان يجب تغيير أجهزته النفسية أولاً ، ومن ثم تغيير أوضاعهم الاجتماعية وتغيير نظرة الأحرار لهم ، وهذا ما فَعَلَه الإسلام! إنّ الإسلام لم يتأخر في

تحـريرهم عـن جـهـالة وإنما عن علم ودراية وظروف نحن نعـرف أسبابها اليوم أمّا وقتذاك فكان شرحها سيبدو مُستعصياً على الفهم ، ولكن الخبير العليم كان يعلم كل هذا ، لهذ تدرَّج في تحريرهم!

حين يمنعُ الإسلامُ الأذى أن يقعَ بالعبد فهو لا يأخذ على يد السيد فقط بل إنه يُعيد إلى العبد جزءاً من إنسانيته المسلوبة التي يحتاجها بالضرورة ليُمارس حريته فعلاً عندما يصيرُ حراً!

وحين يُخبر العبد والسيد بأنهما من أبٍ واحدٍ فإنه يكسر الاستعلاء في نفس السيد أولاً ، ويَبني الثقة في نفس العبد ثانياً ، هنا تكمُن عبقرية الإسلام في تحرير العبيد ، إيجاد مناخ اجتماعي مُتقبِّل لإنسانية كاملة للعبد ، وإيجاد نفسية حرة قادرة على تحمل المسؤولية ، لأن قيودنا النفسية تُكبِّلنا بذات الضراوة التي تُكبِّلنا بها قيودنا المادية إن لم تكن القيود النفسية أشد وأعتى من القيود المادية!

حين يُؤاخي الإسلام بين زيد بن حارثة المولى وحمزة بن عبد المطلب السيد ، وبين خارجة بن زيد المولى وأبي بكر السيد مؤاخاة تعدل رابطة الدم فهو يَهِبُ المَوالي والعبيد نسبهم الإنساني المسلوب على مدار قرون من العبودية فإنه هنا يُهيِّئ السادة للّحظة الحاسمة ومن باب أَوْلى فإنه يُهيِّئ العبيد لتحمل تبِعات الحرية ، فالحرية مسؤولية وليست فكاكاً من القيد فقط!

وحين يضع رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة على رأس جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار الصحابة فهو يُهيِّئ لِلَحظةِ التحرير الحاسمة ، إنّه يُخبر الناس أنّ المْولى بالإمكان أن يّصبح قائداً ، ويخبر العبد والمولى أنه ليس محكوماً أن يبقى تابعاً!

إن تأخير تحرير العبيد دفعة واحدة لا يدلّ على تقاعس الإسلام في المسألة بل يدل على فهمِهِ العميق للقضية ومُلابساتِها من مختلف الجوانب المادية والنفسية والاجتماعية!

ثم دارَ الزمان قروناً ، وغدتْ بلاد المسلمين بلا عبيد وقد كانوا يحكمون الدنيا بأسرها ، كان تحريراً حقيقياً جفَّفَ فيه الإسلام منابع العنصرية ، ومنذ مئة سنة يا هشام لم يكن يُسمح للأسود أن يجلسَ في الحافلةِ في أمريكا ويقف الأبيض رغم أن أبراهام لينكولن وقَّع على تحرير العبيد قبل هذا بكثير! ولكن منذ ألف وأربعمئة سنة اعتلى بلال بن رباح ظهر الكعبة ليُؤذِّن في الناس ولم يَقُلْ أحد ماذا يصنع الذي كان عبداً من زمن قريب فوق الكعبة حيث لا يرقى قرشي هاشمي ، هذا هو الإسلام العظيم يا هشام ، دين يرى ما لا يراه الناس ، ويُشرِّع لما فيه خير البشرية!

لقد كانتْ جولةً أحسبُ أن ماهراً قد كسبها كما هي العادة ، وكما هي العادة أيضاً فإنّ هشاماً يَسألُ ولا يُعقِّب ، هذا هو قانون اللعبة التي كُنا نحن جمهورها يا وعد!

مباراة أخرى على وشك أن تبدأ ، اتّخذ هشام وضعية الرامي ، ونظر في عيني ماهر وقال له : ماذا عن العقوبات التي تُسمُّونها حدوداً يا ماهر ، أية وحشية هذه في أن تُقطعَ يد السارق بربع دينار ، وأن يُجلدَ ظهر إنسان على الملأ في كأسِ خمر ، وأن يُرجمَ إنسان بالحجارةِ حتى الموت لأنّه أقامَ علاقة جنسية خارج نطاق الزواج ، أين التناسب بين الخطأ والعقوبة ، أيُعقل أن الربّ الرحيم الذي تعبدونه يُشرِّع لمثل هذا العنف والوحشية؟!

ابتسم ماهر ببروده المُعتاد ، وقال له : يبدو أنك غاضب اليوم يا هشام!

– دعكَ مني ، وناقِشْ فكرتي ، بالمناسبة أنا لستُ غاضباً بقدرِ ما أنا ممتعض من هذه القسوة في قانون عقوباتكم!

– لا بُدَّ أن تهدأ لتسمع وتفهم ، لكل شيء عندنا إجابة وليس في ديننا ما نخجل منه يا هشام!

– حقاً أنت لا تخجل أن تنتمي لدينٍ يقطعُ الأيدي ويجلدُ الظهور ويرجمُ الناس؟!

– يا للمنطق العجيب ، والقياس الأعوج الذي ترموننا به ، الرأسمالية التي تُمَجِّدها قتلتْ في أسبوع واحد في هيروشيما وناكازاكي أكثر من مائةٍ وخمسين ألف إنسان لا ذنب لهم ولا جريرة ، هي عندكم مجرّد صفحة قاتمة من صفحاتِ الحرب ، والشيوعية التي تُمجِّد إِلحادها قتلَ كبيرها ستالين في سبيلها

ثمانية ملايين إنسان هي عندكم مُجرد صِدام فكري ، أمّا أن يعاقبَ الإسلامُ سارقاً أو زانياً فهذا تخلُّف ورجعية ووحشية!

– دعكَ ممّا يفعل الآخرون ، وأخبرني أنتَ بصراحة هل عقوباتكم وحشية أم لا؟!

– لأُجيبك على هذا السؤال يجب أن يكون صدرك رحباً وصبرك حاضراً لأُخبرك بفلسفةِ الإسلام في العقوبات ، فالأمر ليس جلداً بسوط ولا رجماً بحجرٍ كما تراه!

– حسناً ، قُلْ ، كُلِّي آذان صاغية ، وأنا متشوق لأرى كيف سَتُدافع عن هذه القضية الخاسرة!

– أولاً لا يُوجد مجتمع على ظهر الأرض إلاّ وله نظام عقوبات وإن اختلفتْ هذه الأنظمة ، لم يَقُمْ مجتمع بشري منذ فجر التاريخ إلى اليوم إلا وقد حكمه قانون ، وكانت فيه عقوبات ينالها المذنبون ، والمجتمع الإسلامي ليس بِدعاً من المجتمعات ، هو الآخر فيه نظام عقوبات ، هذا ما يَقتضيهِ المنطق ، وتَفرضُه الضرورة ، أو العقد الاجتماعي كما يُسميه عُلماء علم الاجتماع!

بقيَ الآن أن نتحدثَ عن فلسفة الإسلام في العقوبات!

تختلفُ العقوبات من مجتمعٍ لآخر تبعاً لنظرةِ هذه المجتمعات لِلإنسان!

فالحضارة الرأسمالية على سبيلِ المثال هي حضارة فردية ، بمعنى أنها تُبالغُ في تقديسِ الفرد وتجعلُه محور الحياة

الاجتماعية برمّتها ، كما تبالغُ في منع القيود عن الفرد وتطالُ هذه المبالغة نظام العقوبات ، فنجد الحضارة الرأسمالية تنحازُ إلى المجرم انحيازاً مقيتاً ، وتُدلّله باعتباره ضحية أوضاع فاسدة ، أو عُقَد نَفسية لم يستطعْ أن يتغلبَ عليها ، وهي تنطلقُ في هذا من أفكار سيغموند فرويد ، فسيغموند يرى أن المجرم هو ضحية العُقَد الجنسية التي تنتج من كبتِ المجتمع والأخلاق والدين والتقاليد والأعراف للطاقة الجنسية التي يجب أن تكون حرة دون قيود أو موانع ، والمجرم تبعاً لهذه النظرية مخلوق سلبي لا يملك شيئاً من أمرِه ، إنه محكوم بالجبرية النفسية!

أما الشيوعية فعلى النقيضِ من هذا ، لأن الشيوعية هي فكرة جماعية أو مجتمعية بتعبيرٍ أدقّ ، فالمُجتمع عند الشيوعيين هو الكائن المقدس الذي لا يجوز للفرد أن يخرجَ عليه ، لهذا تبالغ في عقاب الفرد على عكس الرأسمالية المتساهلة حد المياعة!

وإذا كانت الرأسمالية ترى أنّ العُقد النفسية هي أساس الجريمة ، فإنّ الشيوعية القائمة على إدخال الاقتصاد في كل شيء ترى أن الجريمة كلها تنشأ من أسبابٍ اقتصادية!

أما الإسلام فكالعادة يأخذُ موقفاً وسطاً بين المياعة والتطرف! فالإسلام لا يُلغي الفرد ، ولا يَستهين بالمجتمع ، إنه يُعطي الفرد حقه والمجتمع حقه! وبالمناسبة كان الإسلام أول نظام في الأرض اعتبرَ الجماعة مجرمة بحق الفرد إن هي حرمتْه

حقوقه الإنسانية ونزعتْ عنه كرامته ، وبالمقابل لم ينسَ الإسلام أن الفرد قد يكون هو المُعتدي على المُجتمع!

نظرةُ الرأسمالية للعقوبات ليستْ خاطئة تماماً ، نحن نعترفُ أيضاً أنّ الظروف التي يعيش فيها الإنسان لها أبعد الأثر في تكوين شخصيته ، وأن العُقد والأمراض النفسية قد تقود إلى الجريمة ، ولكننا بالمقابل نقول أن الإنسان ليس كائناً سلبياً مسلوب الإرادة! إن عيب الرأسمالية أنها تنظرُ إلى الباعثِ والمُحرِّك ولكنها لا تنظر إلى الإرادة مع أنها جزء أصيل في تركيبةِ الإنسان ، فنحنُ حين نعترف بالشهوةِ الجنسيةِ عند الإنسانَ لا ننسى أنّ الإنسان كائن حُرّ مدرك قادر على الفعل وعدم الفعل ، ووجود الرغبة والغريزة لا تُبرِّر الزنا والاغتصاب ، كما أنّ شهوة المال لا تُبرِّر السرقة ، وشهوة النجاح والربح لا تُبرِّر الغش!

ونظرةُ الشيوعية للعقوبات ليستْ خاطئة تماماً أيضاً ، نحن نعترف أنّ الظروف الاقتصادية ذات أثر بالغ في حياة الفرد ، فالجوع قد يقود إلى الجريمة ، ولكننا بالمقابل نرى من السّفاهة ربط كل جريمة بالأسباب الاقتصادية وإلاّ فلماذا يرتكب الأثرياء الجرائم من قتلٍ ونصب وسرقة!

الآن نسألُ : هل المُجرم مسؤولٌ عن جريمته كي نوقعَ عليه العقوبة ، أم أنه كائن مسلوب الإرادة بحيث يصبح عقابه ظلماً وافتراءً واعتداءً؟!

هنا تتجلّى فلسفة الإسلام في العقوبات ، إنه لا يُقرر العقوبات جزافاً ، ولا يُنفذها بلا حساب ، وإنّما له نظرة فريدة ثاقبة تارةً تلتقي مع مبدأ الدولة الفرد ، وتارةً مع مبدأ الدولة المجتمع ، ولكنه بكلتا الحالتين مفعم بالعدلِ والرحمة ، ينظرُ إلى الجريمة بعين الفرد الذي ارتكبها ، وبعين المجتمع الذي وقعتْ عليه!

قد تبدو العقوبات في الإسلام قاسية لمن ينظر إليها نظرة سطحية بلا تفكير ولا تمحيص ، ولكن لا يدري أن الإسلام لا يُطبِّقها إلا حين يتأكد أولاً أن الفرد الذي ارتكبَها قد فعلَ هذا دون مُبرِّر ولا شُبهة!

فالإسلام حين يُقرر قطع يد السارق ، لا يقطعها وهناك شُبهة أنّ السرقة قد تمّت بفعلِ الجوع!

وحين يُقرر رجم الزاني ، فهو لا يرجمه إلا حين يكون محصناً ، ويشهد عليه أربعة شهود بالرؤية القاطعة ، أي حين يكون لديه سبيل شرعي مباح لإطفاءِ رغبته الجنسية فيتركها ويلجأ إلى الحرام على الملأ ، وإلاّ لو شهد ثلاثة أشخاص على شخصٍ بالزنا فإنّ العقوبة لا تقع عليه ، لا بد أن يراه أربعة أي حين يتبجّح بالدّعارة!

وعلى هذا المبدأ كل العقوبات في الإسلام وخُذ عندك هذه القصة :

إن غلماناً لـ«حاطِب بن أبي بلتعة» قد سرقوا ناقة رجل ، فأتى بهم على عُمر بن الخطاب ، فاعترفوا بفعلهم ، فلما حقّقَ

في الأمر تبينَ له أن سيدهم حاطباً لا يعطيهم حاجتهم من الطعام وأنّهم سرقوها لسدِّ جوعهم ، فأمرَ حاطباً أن يدفعَ للرجل ثمن الناقة التي سرقها غِلمانه ولم يقطع أيديهم ، هذا مع أنّه من أشد الناس في الله ولكنه بالمُقابل من أشدهم فهماً للشريعة السمحاء!

فكما ترى إنّ قيام ظروف تدفع إلى الجريمة يمنع تطبيق الحدود عملاً بقول رسول الله ﷺ : «ادْرأوا الحدود بالشبهات»!

وإذا نظرتَ إلى فلسفة الإسلام في العقوبات تجده أولاً يلجأ إلى وقايةِ المجتمع والأفراد من الأسباب التي تُؤدي إلى الجرائم المُوجِبة للحُدود!

فالإسلام يسعى إلى توزيع الثروة توزيعاً عادلاً ، وقد وصلَ في عهدِ عمر بن عبد العزيز إلَى القضاء على الفقر قضاءً تاماً حيث لم يعد هناك فقير يستحق الزكاة! وكذلك يُحمِّل الإسلام الدولة مسؤولية تامة تجاه الأفراد ، فهي مسؤولة عن إيجاد عمل لهم ، أو إعطائهم ما يكفيهم من بيت المال إذا لم يتوفر العمل ، أو إذا توفر وكان هناك مانع من القيام به كالإعاقة مثلاً!

فكما تُلاحظ إنّه يقضي على الأسباب أو الدوافع الشائعة للسرقة ، فإذا وُجد أنّ الدولة قد أخلّتْ بكفالتها للفرد ولم يكن له مال إلا ما يأتيه منها فإن جريمته تدخل في بابِ الاضطرار ولا يُنفذ به حد قطع اليد ، أما إذا كان ذا مال أو كانتْ الدولة قد أمَّنت لهُ حاجاته الأساسية فإنه هنا لا شكّ معتدٍ أثيم

ويستحق العقوبة ، أمّا إذا كانت العقوبة قاسية أم لا فهذا شيء سنتحدث عنه لاحقاً!

والإسلام لا ينظر للإنسان نظرة رهبنة كما عند قساوسةِ النصارى ، ولا نظرة أنه آلة جنسٍ كما في الحضارة الرأسمالية ، إنه دوماً بين بين! يعترف بالغريزة الجنسية وإلحاحِها على البشر ، ولكنّه يسعى لإشباعِ هذه الرّغبة ، وإطفاءِ هذه الغريزة عن طريق الطرق الشرعية ، ألاَ وهو الزواج ، فالإسلام يُشجّع على الزواج المُبكر ، ويُعينُ عليه من بيتِ المال إذا لم يستطع الفرد أن يتحمل هو تبعاته!

كذلك يحرصُ على تنظيف المجتمع من كلِّ ما قد يَدفع ويُثير نحو الفاحشة ، فهو يضبط الإعلام في أن لا يكون مُخِلاً ، ويأمر بالحجاب والسّتر كي لا يقع الشاب ضحية ، مع أن السُّفور ليس مبرراً للزنا إلا أنه لا يمكن لعاقلٍ أن يُنكرَ أنّه يحُضّ عليه ويدفع باتجاهه! وبعد كلّ هذا إذا وقعَ الزنا فلا يُنزل العقوبة إلا أن يُضبط الزاني من أربعةِ شهود أي حين تتحول القضية من ذنبٍ تمّ ارتكابه على استحياء إلى دعارة ومُجون!

أما عن قسوة العقوبة فسنتحدث عنها لاحقاً!

إنك تتصور أن الإسلام جاءَ ليُطبّق الحدود في مجتمع كالذي نعيش فيه اليوم! وهذا تصوُّر خاطئ ، الحدود آخر ماً يُطبَّق في الإسلام ، وأول ما يُعطَّل! لأن تطبيق الحدود يلزمه أولاً دولة تحمي الناس من الوقوع فيه!

لذا افتراضك هذا يجعلك تعتقد أن المجتمع الإسلامي عبارة عن مسلخ كبير ، أياد تُقطع ، وظهور تُجلد ، وأشخاص يُرجمون! ولكنّك لو راجعتَ تاريخ الحُدود في الإسلام فسترى عجباً!

إن حد قطع اليد بجرم السرقة نُفِّذ ست مرات منذ البعثة النبوية الشريفة وحتى أربعمئة سنة بعدها! وإن حد الرجم نُفِّذ مرتين في حياة النبي ﷺ على شخصين هما اعترفا به وجاءا يطلبان تنفيذ الحد بهما تطهيراً ، مع أن الإسلام يرى أن الأصل في الذنوب التوبة وليس إقامة الحد ، ولكن إذا وصلَ الأمر إلى الحاكم وجبَ تطبيق الحد ، ولم يذكر التاريخ أن حدَّ الرجم قد طُبِّق مرةً بأربعة شهود!

أمّا عن قسوة العقوبة ، فلا شيء في ديننا نخجلُ منه ، إنّ الله هو المُشرِّع وليس أرحم بالناس من الله ، ولكن أنتَ ومن معكَ تقفون مع الجاني ضد الضحية!

ما دام السارق قد أخذَ حقه من رعايةِ الدولة وحصلَ على ما يكفيه ، وسرقَ من غير حاجة فلماذا لا تُقطع يد آثمة غادرة نالتْ حقها من العطاء والكفاية فأرادتْ أن تأكل تعب الناس وشقاء أعمارهم ، ناهيك أنك قد رأيتَ بالأرقام أنها عقوبة رادعة أكثر منها عقوبة مُنفّذة!

وما دام الإنسان قد حصلَ على زوجة أو العكس ، وكان له الحق الشرعي في أن يحصلِ على زوجة أخرى ، أو تحصل

الزوجة على حق الطلاق إن كرهتْ زوجها ، فلماذا لا يُرجم من تركَ حقه وذهبَ ليعبث بأعراض الناس وشرفهم ، ناهيك أنك قد رأيتَ بالأرقام أنها عقوبة لم تُنفَّذ إلا اعترافاً من مرتكبها!

غـادرتُ المكان بعـد أن تناولنا غـداءنا ، حين وصلتُ إلى البيت وجدت احتفالاً عائليًا صغيرًا امتدادًا لأحداث اليوم الاحـتـفـاليـة ، كـان ثمـة الـكثـيـر من الزوار ، أقـارب وجـيـران وأصـدقـاء ،لـم يكـن بوسـعي الـتملص من البـقـاء حـتى آخـر ضيف ، فقد كنتُ نجم الحفل!

تهـالكتُ على سـريري بعـد أن انفض الجـمع ، مـضت سـاعـات على رسـالتي إليكِ دون أن يصـدر أي جـواب من جـانبكِ ، ربما لا يدل صـمـتكِ على شيء ، ربما فـقط لم يكن لديكِ جواب ، أقنعتُ نفسي بهذا لأستطيع النوم .

لكن الصمت امتد يومًا آخر ،

اتصلت . . لا يوجد ردّ!

عاودتُ الاتصال . . لا يوجد ردّ!

مضى يوم ، اثنان ، ثلاثة وأنتِ لا تجيبين ،

لا الـرسـائل تجـدي ولا الاتصـال ، كـان الرنين يمتـد دون جدوى ،

شـعـرتُ بالقلق ، لـم يكـن طبـيـعـيًا هذا الغـيـاب ، ولـم يكـن لديّ أدنى فكرة عن طريقـة للقـائكِ سـوى الحـافلة ، لذلك توجهت إلى موقفها المعتاد ، ربما انتهى طريقي إلى الجامعة الآن ، ولكن ما زال طريقي معكِ لم ينته ، صعدتُ للحافلة ،

ألقيتُ السلام على السائق ، ثم تفقدتُ الأماكن والوجوه ولكنك كنتِ غير حاضرة بينهم ، عدتُ أدراجي إلى مقعد السائق ، سألته مباشرة دون لفّ أو دوران : هل يمكنني أن أطلب منك عنوان أحد ركاب الحافلة؟

– أي راكب تريد؟

– وعد ، موظفة المصرف .

– لماذا تريد عنوانها؟

– ثمة أمور عالقة بيننا يجب أن يتم حلّها!

– لا أعرف عنوانها بالضبط ، ولكني أعرف المنطقة التي تقيم فيها ، حيث أني لا أذهب للمنازل كما تعلم ، بل أقف في مواقف محددة ، يمكنك الذهاب إلى تلك المنطقة والسؤال عنها إن كان الأمر ضروريًا .

– حسنًا ، أخبرني اسم المنطقة!

غادرتُ الحافلة مباشرة بعد أن زودني بما طلبت ، وتوجهتُ إلى هناك ، حين وصلت كانت المنطقة التي تقيمين فيها أقرب إلى الأرياف منها للمدن ، رغم أن البيوت لم تكن ببساطة بيوت الأرياف ، إلا أن بعض مظاهر الريف طاغية على المكان ، الأراضي الزراعية الصغيرة المتناثرة هنا وهناك ، مزارع القمح التي تمتد على مساحات واسعة محاذية للمباني ، بعض الحظائر الصغيرة للمواشي ، الحميمية الواضحة على الأشخاص الذين يمرون ببعضهم ، حيثُ لا أحد يمر بأحد دون أن يستوقفه للسلام

وبعض الأحاديث ، وحدي كنتُ غريبًا ودخيلاً على المكان ، لذلك سألني أول شخص انتبه لوجودي عما إذا كنتُ أبحثُ عن شخص ما أو أحتاج مساعدة ما ، في تلك اللحظة شعرتُ أنه أُسقط في يدي ، عن من أسأل؟ وكيف سأسأل! كنت مدفوعًا برغبة العثور عليك ، بعد أن شتتني غيابكِ المفاجئ ، ولكني الآن أعرف أن السؤال عنكِ هنا ضرب من الجنون والحماقة ، لذلك قلتُ للرجل : أبحث عن أقرب موقف للحافلات في هذه المنطقة!

فدلني على الموقف ، شكرته وأكملتُ طريقي ، أو بالأحرى هربتُ ، كنتُ أشعر بدافع شديد لمغادرة المكان ، وبدافع أشد للتجول هنا واكتشاف المكان الذي تعيشين فيه ، وكنتُ آمل أن تلعب الأقدار لعبتها وتجعلني ألتقيكِ ، توغلتُ قليلاً في المكان بعد أن أقنعني أملي باحتمال حدوث ما أرجو ، البيوت المتقاربة ، الأزقة الخلفية ، الأطفال الذاهبون والعائدون ، الروائح المنبعثة من مطابخ الأمهات ، أحاديث الرجال على طاولات المقهى ، تفاصيل الحياة المعتادة ، كل شيء يسير باعتيادية شديدة ، إلا قلبي ، هذا الذي انقلب رأسًا على عقب بعد أن عصف به حبكِ ، شيء بداخلي لم يعد كما كان ، ولا أظنه سيعود أبدًا ، إن أسوأ ما قد نعيشه هو حبّ بلا ثقة ، حبّ لا نطمئن إليه ، وحبيب لا نطمئن به ، في أي لحظة قد يسحب بساط وجوده من تحت قدميك ليسقطك في هاوية الأسئلة التي لا جواب لها .

كنتُ أسير على غير هدى ، كانت الشمس تدنو من مغربها ، مصباح السماء الكبير ينطفئ شيئًا فشيئًا ، وكنتُ أبحث عن طريق العودة ، هازئًا من نفسي التي سمحت لي بحماقة المجيء لاهثًا خلف الأجوبة التي لا يبدو أنها هنا ، لا شيء هنا سوى التيه الذي يغمرني ، ربما أكون مررتُ ببابك دون أن أعلم بذلك حتى ، ما كان ينبغي لي هذا ، أن أفتش عن شخص آثر الاختباء ، والانجرار خلف الكثير من لعلّ وربما . . .

لعل هناك ما يمنعها من التواصل معي ،

ربما كانت مريضة ،

ربما كانت بحاجة إليّ ولم تجد سبيلاً لتخبرني ،

ربما وربما . . .

الكثير من حجج القلب المضحكة تلك التي يدافع بها عن أحبائه ،

ولكن ثمة حقيقة واحدة . . كنتُ الطرف الوحيد الذي يحاول أن يحمل هذه العلاقة إلى النور .

في وسط كل هذا بدا لي أني سمعتُ صوتكِ ، كنتُ موقنًا أني توهمتُ ذلك ، وأن ذاكرتي تواطأت مع أشواقي وأعادت نبرتكِ على مسمعي ، ولكني رأيتكِ فعلاً ، ولم تكن تلك خدعة بصرية لأني لم أركِ وحدكِ!

كنتِ تسيرين في الطريق برفقة صبيّ في الثالثة أو الرابعة من عمره ، يده الصغيرة في يدك ، ورأسه الصغير ملتفتٌ إليكِ

ومرتفع بقدرٍ يسمح له برؤية وجهكِ بينما كنتِ تنظرين إليه مخاطبة إياه بحديث يبدو جادًا لدرجة أنكِ لم تنتبهي لشيء حولكِ ، راقبتكِ من بعيد ، وتواريتُ في إحدى الزوايا غير راغب في إظهار نفسي لكِ ، قفز إلى رأسي ألف سؤال ، وألف احتمال لم يكن أي منها جيدًا ، دخلتِ منزلاً برفقة الطفل ، يبدو أن هذا المنزل المكون من طابقين هو المكان الذي تعيشين فيه ، تأملتُ المكان ، هذا لا يشبه إطلاقًا الشقة المستأجرة من قبل مجموعة نساء كما سبق وأخبرتني ، استدرتُ قليلاً حول المنزل ، كنتُ أبحث عن أي شيء يخبرني أن ما أفكر به غير صحيح ، كان ثمة شرفة مطلة على حديقة خلفية ، لم تكن تلك الشرفة فارغة ، كان يشغلها رجل يجلس على مقعد يعبث بهاتفه على ما يبدو ، هل هذا هو ما أبحث عنه!

لم أعرف كيف حملتني قدماي إلى موقف الحافلات ، كيف استقليتُ أول حافلة قادمة ، كيف تهاويتُ على أقرب مقعد شاغر ، لم أعرف كيف تمالكتُ نفسي حتى وصلتُ إلى المنزل ، ولا كيف قطعتُ المسافة بين باب المنزل وباب غرفتي ، كيف أجبتُ على سؤال أمي : أين كنت؟

كيف وصلتُ إلى سريري؟

ولكني أعرف كيف تهاويتُ لحظتها ، كجبل ضربه زلزال فسُوّيَ بالأرض ، كنتُ أشعر بأعماقي تنصهر تحت وطأة

الاشتعال الرهيب الذي يأكل صدري ، آلاف الخيالات اندفعت في رأسي كـحطب يغـذي النار التي تلتـهم روحي ، آلاف الأفكار ، آلاف المواجع ، ذهول النظرة الأولى تلاشى ، لهـيب الاستيعاب الذي تلاه كان مريعًا .

جاء قلبي بأعذاره المعتادة ؛ ربما ليس طفلها .

ربما ذلك الرجل ليس ما تعتقده!

منزل بطابقين ، لعلها تعيش في أحدهما بينما يعيش الرجل في الآخر!

ربما كان قريبًا لها ، والطفل له!

ربما كانت تساعده فقط في الاعتناء به!

كنتُ مع كل تبرير أحتقر نفسي ، وأنقاد خلف رغبة النجاة بأمل أن يكون في ذلك شيء من الصحة

لم تمضِ تلك الليلة أبدًا ، حتى وإن انتهت ساعاتها ، فقد دام ظلامها في صدري ، ولم يكن لها فجر أو شروق!

لم أغادر سريري ، كنتُ أكثر رغبة في الاختباء ، في التلاشي ، لم أستطع مواجهة نفسي ، فكيف بمواجهة العالم وكل هذا الألم والخديعة في أعماقي!

كان هذا هو الاتصال العاشر لمحمد خلال ساعة ، الوقت الآن يشير إلى التاسعة مساءً ، لم أغادر سريري ، أقنعتُ أمي أني أعاني من المرض ، وبحاجة للنوم ، لم تتركني وشأني طبعًا ولكنها كفّت على الأقل عن الالحاح عليّ بالنهوض .

أجـبتُ على مـحـمـد قـبل أن ينفـجـر الهـاتف من الـرنين ، بصوت مثقل ضجر قلتُ : ماذا هناك يا محمد؟

- يجب أن أراك ، الأمر مهم!

- لا أرغب في رؤية أحد . . .

- يجب أن تراني ، الأمر يعنيك!

- حسنًا ، تعال إلى المنزل .

بعد نصف ساعة فقط ، كان قد وصل . .

- ما حالتك هذه؟

- ادخل في الموضوع!

- أخبرني أولاً ،

- ليس لديّ ما أخبرك به ، أنت من يحمل الأخبار ، فقل!

- أظن أني غيرت رأيي ، ليس وأنت بهذه الحال!

- لن تجد حالة أفضل من هذه ، خاصة إن كنتَ تحمل خبرًا سيئًا ، صدقني لن يؤثر بي أكثر مما أنا عليه!

- هل تقول أنكَ وصلتَ الدرك الأسفل من البؤس!

- هل ستخبرني أم ستتشاغل بالأسئلة؟

- ما أخبارك مع وعد!

- سؤال آخر وألقي بك خارجاً . . .

- حسنًا ، تحدثتُ مع سهام صباحًا ، كانت تريد أن تأتي هي إليك ولكني منعتها ، الأفضل أن أخبرك أنا

- من ساعتين وأنت تقول أنك ستخبرني يا محمد ، هل

اتفقت مع الكون ضدي لتثير جنوني أم ما خطبك ، قل يا رجل ما لديك!

- حسنًا ، قالت أنها بعد رؤية وعد ولأنها كانت متأكدة أنها تعرفها من مكان ما ، لم تترك الأمر فأنت تعرف سهام على كل حال ، فتشت عن الأمر ، لتعرف عن وعد أكثر ، ما عرفته لن يسرك ، ولكن عليك أن تعرف ، لقد رأت سهام وعدًا قبل عامين في زفاف أخيها الأكبر ، حيث جاءت برفقة زوجها الذي هو صديق عائلة سهام! إنها متزوجة به منذ ما يقارب الأربع سنوات ولديهما طفل في الثالثة من عمره!

لم أقل شيئًا ، كان محمد يتكلم ، يؤكد لي شكوكي ، أو يقيني الذي حاول قلبي التشكيك به ، قلبي الذي جعلني أضحوكة تحت ذريعة الحبّ ، الذي أخرجني بحثًا عنكِ بدافع القلق بينما كان حريًا بي أن أقلق على نفسي منكِ!

فجأة تحول ذلك الحريق الهائل في صدري إلى رماد ، انطفأ كل شيء كأن بحرًا من اللاشعور قد غمره ، لم أكن قادرًا على تمييز شيء بداخلي تلك اللحظة ، فقط أردتُ أن أخلو بنفسي ، أن أغرق في الصمت طويلاً ، أن أمسح من رأسي صوتكِ ، ومن عينيّ وجهكِ ، أن أحولك إلى لا شيء!

- كريم ، هل أنتَ بخير!

- منذ وقت طويل لم أكن بخيرٍ بهذا القدر!

- لا تبدو لي كذلك ،

- لقد شفيتُ من الأحلام الحمقاء ، والشاعرية الغبية ، سيستغرق الأمر بعض الوقت لأعيد ترميم ما أحدثته تلك العاصفة الصغير بي من خراب ، ولكني بخير ، أحتاج أن أظل وحيدًا لبعض الوقت إن لم يكن لديك مانع يا محمد . . .

- لا يمكنني أن أتركك في هذا الوضع ، فنحن أصدقاء وهذا وقت الأصدقاء!

- صدقني لو احتجت أحدًا فلن يكون سواك ، ولكني حقًا بحاجة لبعض الخلوة ، فاسمح لي بها ، ولن يطول الأمر!

- حسنًا ، أنا متأكد أنك لن تقتل نفسك لأجل علاقة ، مهما أثرت بك!

- لا لن أفعل شيئًا أكثر لأجل هذه العلاقة ، لقد أعطيتها أكثر مما تستحق أصلاً ، أنا بحاجة لذلك من أجلي . . .

- لا بأس ، أتفهمك ، سأنتظرك قريبًا في مكاننا المعتاد!

- لن أجعلك تنتظر طويلاً .

في تلك اللحظة عندما أقفلتُ الباب خلف محمد ، انتابني ذلك الشعور بأن العالم كله مجرد فراغ كبير ، وأن الصمت هو ما يجب أن يحدث ، كأن الكلمات ، كل الكلمات نفدت من هذا العالم ، الصمت الذي يأتيك كقناعة بعدم وجود ما يقال ، لا كمقاومة لما تريد قوله ، ثم بدا لي أنكِ لم تكوني ذات وجود في الواقع أبدًا ، وعد تلك ، كانت صنيعة ظنوني فقط ، صفاتك التي ظننتها لم تكن في الحقيقة صفاتكِ ، مشاعركِ التي

اعتقدتها لم تكن في الحقيقة مشاعركِ ، المرأة التي أحببتها لم تكن في الحقيقة أنتِ ، كان الأمر كله خديعة ، تواطأ في نسجها قلبي معك ، كذبك أو لنقل عدم قولك الحقيقة ، لم يكن لينطلي عليّ طيلة عام كامل لو لم أكن على استعداد للتصديق ، كل ما حدث كان يجب أن يحدث ، لأفهم الكثير ، لتتساقط تلك المفاهيم الطفولية لديّ عن كل شيء ، لذلك كنت خاليًا من الندم ، كنت مذعنًا للألم كتلميذ نجيب راغبٍ في الإدراك .

لا أعـرفُ يا وعـد لماذا كنتُ في أعـمـاقي على يقين بأنّ الحوارات بين ماهر وهشام على وشك أن تنتهي ، تماماً كما هي حكايتنا على وشك أن تنتهي هي الأخرى! أهذا الإحساس نابع من أنّ ماهراً قد أبلى بلاءً حسناً ، وكان مُنَظَّماً في أفكاره ، دقيقاً في إجاباتِه ، أم لأنّ هشاماً لم يبدُ عليه مُنذ البداية أنّه يُجادل لمجرّد أن يُجادل ، لقد بدا من أول وهلة كأنّه تائه يُريد أن يَسأل عن الطريق ليمشي فيها!

كانَ صباحاً عادياً ، كل شيء فيه يسيرُ كالمُعتاد ، روتيني بشكلٍ يُوحي أنّه قد مرَّ علينا من قبل ، أحياناً يعيشُ الإنسان ذات المشهد مرات عديدة فيحفظه عن ظهرِ قلب ، تماماً كما كنّا نحن على متن هذه الحافلة ، كنا نعرف أنّ فلاناً سيصعد هنا ، وفلاناً سينزل هناك ، نحفظُ تحايا الصباح ، حتى طريقة التلويح باليد وداعاً كنا نحفظها ، طول العشرة يجعلنا كاشفين ومكشوفين يا وعد ، نستطيع أن نتنبّأ بالآخرين ، ويستطيع الآخرون أن يتنبّأوا بنا!

غير أنّ هشاماً قرَّرَ أن ينزع عن ذاك الصباح عاديّته وروتينه ، عندما قالَ لماهر : عندي سؤال يا ماهر!

– تفضّل يا هشام!

– أنتم تقولون أنّ الله قد اختار من صحراء العرب رجلاً أُمِّياً أوحى إليه بشريعةِ الإسلام، فآمنَ به العرب، ثم نقلَ هذه الرسالة إلى البلادِ المجاورةِ كالعراق وفارس، هذه الأشياء وإن كانتْ حقائق تاريخيّة لا سبيل إلى دفعها، ولكن ما الذي يُثبت أنّ هذا الرجل نَبِيّ؟! لماذا لا يكون مُصلِحاً اجتماعياً عنده أفكار مُتقدمة استطاعَ أن يُقنع بها الناس فتحولتْ هذه الظاهرة من ظاهرةٍ فكريةٍ إلى دين! ولماذا لا يكون مُلمّاً بالأديان من قبل فسمعَ عنها وصاغَ واحداً على مِنوالها، أنا لا أُشكِّك في عظمة هذا الإنسان كونه جاءَ بأفكارٍ عاشتْ لأكثر من ألف سنة، ولديه الآن من الأتباع ما يزيد على المليار، أنا أقول: ما الذي يُثبت أنّ هذا الرجل نَبِيّ حقاً، هذا طبعاً إذا سلّمنا جدلاً أن هناك إلهًا وأنه يُرسل الأنبياء بين فترة وأخرى لهدايةِ الناس كما تقولون!

– سؤالٌ جميلٌ يا هشام، والإجابة عليه بإذن الله يسيرة، إنّ ما يبدو لكَ سؤالاً بغايةِ التعقيدِ لهو أيسر عندنا من أن تقول لنا: بَرْهِنوا أنّ هذه الشجرة شجرة فعلاً! اطمئن سآتيك بما يُقنع عقلك ويُرضي فضولك!

أعجبني أنّكَ قُلت: هذه حقائق تاريخيّة لا سبيل إلى ردِّها!

لنبقَ مع التاريخ إذاً، تحديداً عندما لم تكُن مكة ولا جزيرة العربِ قد أسلمَتْ على بَكرةِ أبيها، وكانتْ إمبراطورية الروم

على حالها ، يومذاك دارَ حوار بين رجلين كلاهما لا يُؤمن بنُبوة محمد ﷺ ، هو حوار يا للعجب كم هو قريب في مضمونِه مِمّا نَخوضه الآن أنا وأنتَ يا هشام!

هذا بالنسبة للزمن ، أما المكان فكان في إيلياء الاسم القديم لبيتِ المقدس ، وأمّا أبطال القصة ، فهما أبو سفيان بن حرب ولم يَكُن قد دخلَ الإسلام يومذاك ، على العكس كان من أشرسِ أعداء النبي ﷺ ، وهو الذي جمع العرب لقتالِه يوم أحد والأحزاب! وأما طرف الحوار الثاني فكان هرقل عظيم الروم!

أمّا القصة فهي أنّ أبا سفيان كان في تجارةٍ مع جماعة من قُريش في الشام ، فأرسلَ هرقل في طلبِهِم ، فأتوه إلى القُدس ، فأدخلَهم إلى مجلسِه وعنده عُظماء الروم ، ثم نادى تُرجُمانه ، وقال : أيُّكم أقربُ نسباً بهذا الرجل الذي يزعمُ أنه نبي؟

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً!

فقال هرقل : أدْنوه مني ، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره!

ثم قال لتُرجُمانه : قُلْ لهم إنِّي سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني تكذِّبوه!

قال هرقل : كيف نسبه فيكم؟

قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب!

- فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟

- لا
- فهل كان من آبائه من ملك؟
- لا
- فأشراف الناس يَتبعونه أم ضُعفاؤهم؟
- بل ضعفاؤهم!
- أيزيدون أم ينقصون؟
- بل يزيدون!
- فهل يرتدّ أحد منهم سخطةً لدينِه بعد أن يدخلَ فيه؟
- لا
- فهل كُنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقولَ ما قال؟
- لا
- فهل يَغدر؟
- لا
- فهل قاتلتموه؟
- نعم
- فكيف كان قتالكم إياه؟
- الحربُ بيننا سجال يَنالُ مِنّا وننالُ منه!
- ماذا يأمركم؟
- يقول : اعبدوا الله وحدَه ولا تُشرِكوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاةِ والصدقِ والعفاف والصلة!

عندها قالَ هرقل للتُرجمان : قُلْ له :

سألْتُكَ عن نسبِه ، فذكرتَ أنّه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرُّسل تُبعثُ في نسبِ قومها!

وسألْتُكَ هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرتَ أن لا ، فقلتُ : لو كان أحد قالَ هذا القول قبله لقلتُ رجل يأتي بقول قيل قبله!

وسألْتُكَ هل كان من آبائه ملك ، فذكرتَ أن لا ، فقلتُ : لو كان من آبائه من ملك قلتُ رجل يطلبُ مُلك أبيه!

وسألْتُكَ هل كنتم تتّهمونَه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرتَ أن لا ، فعرفتُ أنه ما كان لِيَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله!

وسألْتُكَ أشراف القوم اتّبعوه أم ضعفاءهم ، فذكرتَ أنَّ ضعفاؤهم اتّبعوه وهم أتباع الرُّسل!

وسألْتُكَ أيزيدون أم ينقصون ، فذكرتَ أنهم يزيدون ، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتم!

وسألْتُكَ أيرتدّ أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرتَ أن لا وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب!

وسألْتُكَ هل يغدر ، فذكرتَ أن لا وكذلك الرسل لا تغدر!

وسألْتُكَ بِمَ يأمركم ، فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة

والصدق والعفاف ، فإن كان حقاً ما تقول فسيملُك موضع قدميّ هاتين!

هذا هو رسولنا ﷺ في عيون أعدائه يا هشام ، ولكن ليس من أعدائه فقط يُعرف صدق رسالته ، إنّه العقل والمنطق والحكمة ، فتأمّلْ معي يا صديقي!

لو لم يكن محمد بن عبد الله ﷺ رسولاً لماذا سيطلُب من أتباعه أشياء صعبة على النفسِ البشريةِ كالصيامِ والاستيقاظِ يومياً لصلاة الفجر ، والزكاة ، والحج إلى مكان حارَ في الصحراء؟!

لو كان مُدَّعِياً للنُّبوة لطلبَ منهم أشياء بسيطة كي لا يَخسرهم ، لكانَ جعلَ الحج إلى مكانٍ معتدل في مناخه ، أو لماذا سيكون هناك حج أصلاً؟!

وكذلك الصلاة ، كانَ بإمكانه أنْ يجعلَها صلاةً واحدة في الأسبوع كما هي الحال في الكنائس اليوم حتى يكسب رضا الناس!

من أرادَ أن يجمعَ الناس حوله لا يأتي بفكرةٍ تقومُ في بعض أجزائِها على الزكاةِ والصدقةِ والناس يُحبُّون المال بفطرتهم ، فطلبه ﷺ هذه الأمور من أُمَّتِه رغم أنّ فيها مشقة على النفس البشرية دليل واضح على أنّها من عندِ الله سبحانه وتعالى وليستْ من عندِ بشر!

كذلك إنّ استمرار الناس على أداءِ هذه الشعائر رغم

مشقّتها بعد ١٤٠٠ سنة من وفاته ﷺ هو دليل آخر على صدقِ هذه الرسالة ، لا يُمكن لكذبة أن تعيش كلّ هذا الوقت! لا يُمكَن للأتباع أن يكونوا بهذه الحماسة لو كانتْ عقائدهم مبنية على دجلٍ وادّعاء!

ولو كان مُدَّعِياً للنُّبوة لما عادى الدنيا كُلّها من أجلِ مبادئِه ومِن أجلِ الرسالة التي جاءَ بها ، ما من مُدَّعٍ إلا والدنيا قمة غايته ، وخُلاصة أمانيه ، أما هو فطلّقَ الدنيا ثلاثاً وسارَ في طريقِ الآخرة ، كل همه أن يُبلِّغ رسالة ربه ، لقد اصطدمَ مع قُريش عندما دعاهم إلى تركِ عبادةِ الأصنام وعبادة الله الواحد ، فعرضوا عليه أن يَجعلوه أكثرهم مالاً ، وأن يُزوِّجوه أجمل النساء ، وأن يُعطوه مفاتيح الكعبة! انظر ماذا عرضوا عليه ، لقد جمعوا له كل ملذّات الدنيا المال والنساء والسُّلطة ، ولكنّه قالَ لعمه أبي طالب الذي كان وسيطاً بينه وبين قُريش : واللهِ يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه!

لو كان مُدَّعِياً للنبوة لماذا لم يكُن يبحث عن رغدِ العيش والراحة كما يفعل المُدَّعون؟! لماذا يُلزم نفسه بأمورٍ صعبةٍ وشاقةٍ هو بالغنى عنها؟! لماذا يَقوم الليل كله يُصلي حتى تتورّم قدماه ، لماذا يَصوم صِيام الوصال فلا يُفطر بين اليوم والآخر؟! لماذا يكون في مُقدمة الجيش؟! هذه أشياء لا يَفعلها إلا أصحاب الرسالة ، المُدَّعون همهم الدنيا وشهواتهم فقط!

لو كـان مُدَّعِـياً للنُّبـوة ما سَلِمَ وعاشَ كـل هذا العـمر حتى يموت على فراشـه ، لقـد كـانتْ رسـالتـه تهـديداً لكلِّ الرسـالاتِ والحضاراتِ والإمـبـراطوريات ، لماذا لـم يُقـتل ، ألا يدل هذا على رب قدير يَحوطه ويَرعاه؟!

لقد أمضى ثلاثة عشر سنة في مكة يُسفِّه دين قُريش ، ويذمُّ أصنامَهم ، ويعيبُ عليهم دينهم ، وليس له من يحميه سوى عمه أبو طالب ، ولقد كـانتْ حماية معنوية لا أكثر ، فعندما قاطعوه في شعب أبي طالب هو ومن معـه ، لـم يسـتطعْ أبو طالب نفـسـه أن يفكَّ الحصار عنه ، ويوم الهجرة عندما جَمعوا من كل قبيلة رجلاً ليقتُلوه ويَتفرّق دمه بين القبائل لم يكُن أحد إلا ربه يحميه!

الرسالةُ التي جاءَ بها النبيّ ﷺ تُعتبر تهديداً لما سواها ، وكل الأمم كانتْ لها مصلحة في قتلِه من قُريش إلى يهود المدينة إلى المُنافـقين إلى الفُـرس ثـم الروم ، ومع ذلـك لـم يتـمكّنوا منه رغـم المحـاولات الكثـيـرة وهو الرجل الذي يمشي وسط الناس ويعـيشُ عيشـة البسطاء دون تكلف أو حـراسة ، ثـمة رب قـدير كان يَحوطه ويَرعاه لأنه كان نبياً فعلاً!

لو كـان مُـدَّعِـياً للنُّبـوة مـا كـان يتـحـدّى فـحـول العـرب في الفصاحةِ والبيان أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي جاءَ به!

لقـد كـانتْ دوماً معـجـزات الأنبـيـاء من نوع مـا يبـرعُ فـيـه أقوامهم يا هشام ، كانتْ ثمود تنحتُ من الجبال بيوتاً أي تُخرِج من الجماد جماداً آخر ببراعةٍ واقتدار ، فأرسل الله سبحانه إليهم

صالحاً عليه السلام فأخرجَ لهم ناقة من الصخرة الصّمّاء ، لقد أخرجَ من الميتِ حياة!

كان الفراعنة بارعين في السحر ، فأرسلَ اللهُ إليهم موسى عليه السلام بالعصا التي تصيرُ حيّة!

كان بنو إسرائيل بارعين في الطب ، والطب مهما بلغَ من تطور فإنّه يقف عاجزاً أمام إحياءِ الموتى ، فبعثَ الله عيسى عليه السلام بمُعجزةِ إحياءِ الموتى!

والعرب كانوا أهل بلاغة وفصاحة ، ليس لهم علم إلا الشعر ، له أقاموا الأسواق والمباريات ، وإذا بُشِّرَتْ القبيلة بشاعرٍ كانتْ تُضرم النار في مضاربها ثلاث ليالٍ كاملة ، فجاءَ النبيُّ ﷺ ليتحدَّاهم بما هم بارعون فيه ، بالبلاغةِ والفصاحة ، فهل استطاعوا أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن ، أو أن يَنظموا على مِنواله ، لقد هزمَهم النبي ﷺ في أكثر شيء هم بارعون فيه ، وهكذا هو نصر الأنبياء يأتي ساحقاً!

ولو كان مُدَّعِياً للنُّبوة ولم يكُن القرآن الذي جاءَ به من عند الله لما استطاعَ هذا الكتاب أن يصمدَ لِمَا يَزيد عن ألفٍ وأربعمئة سنة دون أن يُكتشف فيه خطأ واحد لُغوي أو علمي بل إنّ العكس هو الصحيح ، إنّ العلم كلّما تَقدّم كشفَ لنا أنّ هذا القرآن كتاب مُعجز ، إنّ الحديث عن مراحل تطوُّر الجنين قبل ألف وأربعمئة سنة على سبيل المثال بهذه الدِّقة التي لم يكتشفها العلم إلا مؤخراً لَيَستحيل أن يكون من نتاجِ رجل

عاشَ في الصحراء لم يقرأ يوماً ولم يكتب ، ثمّة إله كان يُوحي إليه ، ثمة رب كان يَحوطه!

لو كان مُدَّعِياً للنُّبوة لاستطاعَ أن يَكذب على بعض الناس بعض الوقت ، ولكن يَستحيل أن يكذبَ على كل الناس كل الوقت ، فمن الذي عاشرَه ثم خرجَ وذمَّه؟! لا أحد! حتى الذين ناصبوه العداء بسببِ دعوته التي جاءَ بها من عند الله هم أنفسهم الذين سَمّوه من قبل الصادق الأمين ، وإنّ الذين تآمروا عليه لقتلِه كانوا يضعون آماناتهم عنده فهذا شأنه من أعدائه فكيف هو شأنه من أصحابه؟!

كيف لكاذبٍ أن يكذبَ على أصحابه وزوجاته وأقرب الناس إليه؟! يَستحيل أن يَعيش الإنسان مُمثِّلاً دور الصادق طوال ثلاثة وعشرين عاماً داخل بيته وخارجه دون أن تَكون له سقطة واحدة تُثبت أنّه كاذب!

لقد عاشَ أصحابه وزوجاته سنوات طويلة بعده ، فهل هناك من خرجَ ليكشف عنه كذبة أو سوء خلق؟! أم على العكس تماماً لقد أحبُّوه وأطاعوه ميتاً كما أحبُّوه وأطاعوه حياً ، الموت لم يُغيِّر من الحقيقة شيئاً ، ظلَّ هو الصادق الأمين الذي كان عليه قبل البعثة!

يقول غاري ميلر في كتابه «القرآن المذهل» :

عندما قرأتُ القرآن لأول مرة كنتُ أتوقع أن أجدَ كلاماً عن الصحراء وعن العاداتِ والتقاليدِ المحلّيةِ في تلك البيئة

الصحراوية البسيطة ، كنتُ أتوقع أن أقرأ عن بعض الأحداث العصيبة التي مرَّت على النبي محمد ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضيَ الله عنها أو وفاة بناته وأولاده ، لكني لم أجدْ شيئاً من هذا!

بل الذي جعلَني في حيرةٍ من أمري أنّي وجدتُ هناك سورة كاملة في القرآن تُسمى سورة مريم ، وفيها تكريم لمريم عليها السلام لا يُوجد له مثيل في كتب النصارى وأناجيلهم!

وفي نفس الوقت لم أجد سورة عائشة أو سورة فاطمة!

وكذلك وجدتُ أن عيسى عليه السلام ذُكر بالاسم ٢٥ مرةً في القرآن بينما لم يُذكر محمدًا ﷺ إلا خمس مرات!

أرأيتَ هذا الإنصاف يا هشام ، أرأيتَ كيف أنّ الإنسان الباحث عن الحقيقة سيُوصله الله إليها حتماً ، وأنا أحسبُك باحثاً عن الحقيقة وستصل نهاية المطاف بإذن الله ، هذا ظنِّي بكَ ولا تحسبه استعطافاً لك أو محاولة لتحريكِ مشاعرك فيتأَثّر بذلك حكم عقلك ، على العكس أنا أُريد عندما تَقبل أو تَرفض أن تفعلَ هذا عن عقلٍ تامٍّ ولكن لا تنسَ أن تصطحبَ معكَ قلبكَ!

ونرجعُ إلى ما نحن فيه ، وأزيدُكَ من الشعر بيتاً ، لو كان النبي ﷺ مُدَّعِياً للنُّبوة ، لَما تحدَّى العرب والعجم أن يُثبتوا كذبه ، لقد أعطاهُم فُرصاً ذهبية لتكذيبِه وكان مُمتلئاً ثقة أنّهم لن يفعلوا ، لأنّه كان صادقاً ومُؤَيَّداً من ربه!

لقد جاءَ بقرآن يقول «لتجدَنَّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا»!

لقد كان في يد اليهود فرصة ذهبية لتشكيكِ المُسلمين في دينهم ولا زالتْ الفرصة قائمة حتى اليوم، كل ما يَلزمهم أن يُحسنوا معاملة المسلمين ويتقرَّبوا منهم فيجعلون القرآن مَحط شك، ولكن يأبى الله إلا أن يُتمَّ رسالته، ويصدق رسوله، لقد ناصبَه اليهود العداء، وتآمروا عليه، وهُم اليوم أشدّ عداوة لأتباعه، فانظرْ إلى الثقة التي كان يتحدثْ بها النبي ﷺ!

وكما أعطى النبي ﷺ اليهود فرصة ذهبية لتكذيبِ دعوتِه لو كان كاذباً حقاً أعطى فرصة مثلها لقُريش أيضاً، شخص واحد كان بإمكانه أن يُفسد عليه دعوته كلها، إنه عمّه أبو لهب! هذا الرجل الذي كان يكره الإسلام كُرهاً شديداً نزلَ فيه قرآن يقول:

«تبَّتْ يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب»!

نزلتْ هذه الآية قبل وفاة أبي لهب بعشرِ سنوات!

تَخيَّل يا هشام عشر سنوات كاملة كان بإمكان أبي لهب فيها أن يأتي إلى النّبي ﷺ ويقول له: لقد آمنتُ بدعوتك!

تخيَّل لو أنّه فعلَها ما الذي كان سيحدث؟! ولكن الله علِمَ أنه لن يفعلَها، بهذه الثقة كان رسولنا ﷺ يُخاطب الناس، بهذا اليقين، لأنّه كان صادقاً في نُبوتِه ودعوتِه، والصادقون

يَملأهم اليقين بعكس الكاذبين الذي تُساورهم الشكوك!

ولو كان مُدَّعِياً للنُّبوة لاستغلَّ فرصَ التعالي وحظ النفس وتقديس الذات وهي كثيرة ، يقول إيميل درمنغم في كتابه حياة محمد :

وُلد لمحمد ﷺ من مارية القبطية ابنه إبراهيم الذي ماتَ طفلاً ، فحزِنَ عليه حُزناً شديداً ودفنَهُ بيده ، وبكاه! ووافقَ يوم موته كسوف الشمس ، فقالَ المسلمون : إنّها انكسفَتْ لموتِه! ولكنّ محمداً ﷺ كان من سُموّ النفس أنّ صحَّحَ ذلك الاعتقاد فقال : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد أو حياته»!

قولٌ مثل هذا لا يصدر عن كاذبٍ مُدَّعٍ للنُّبوة!

انتهى كلام إيميل وهو عين الحق ، فلو كان النبي ﷺ مُدَّعِياً للنبوة لانتهزَ الفرصة في سبيلِ مجد شخصي ، وتمرير زَيْف ، ولقال فعلاً لقد انكسفتْ الشمسُ لموتِ ابني إبراهيم! ولكنّه لم يفعل ذلك بل تجرَّد من هواه الشخصي ومن تعظيم ذاته وقامَ يُصحِّح عقيدة الناس ، إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد!

أعرفُ يا هشام أنّ ما سألتني عنه ليس رأيكَ وأنكَ قد قرأته أو سمعته ، كثيرون يقولون ماذا لو كان فيلسوفاً ادّعى كذباً أنه نبيّ من عندِ الله؟!

خدعوكَ فانخدعْتَ لهم يا صاحبي!

أين عقلك يا هشام؟!

كـيف لصـادقٍ أربعين سنة أن يَكذب وعندمـا يكذب ، يكذب على الله!

كيف لمن لا يقرأ ولا يكتب أن يأتي بما أعجزَ المتعلمين!

كيف لكذاب أن يُحدثنا عن الأجِنَّة والعلوم ثم يأتي العلم ليصدق قوله!

كيف لكذاب أن لا يقع في التناقض ولو لمرة!

كيف لكذاب أن لا يتحرَّج من أن يقول لا أعرف رغم أنه كان من قبل يكذب!

كيف لكذاب أن يرفض المال والجاه والنساء!

استفتِ عقلك يا هشام ولا تنسَ أن تصطحب معك قلبكَ!

لم أرغب في مواجهتكِ أو شيء من هذا القبيل ، كنتُ مصممًا أن أجعل بيني وبينكِ بُعد المشرقين ، لم أكن أحبّ رؤية تلك العينين اللتين جعلتاني أتخلى عن اعتقادي السابق أن العيون نوافذ الروح ، عيناك لم تكن أكثر من مصيدة!

بعد ما يقارب الأسبوع قررتُ نفض الصمت الذي دفنتُ نفسي تحته ، والخروج للحياة مجددًا ، كنتُ قد قررتُ التماثل للنسيان ، لذلك وكخطوة أولى لتنفيذ هذا القرار بدأت البحث عن أعمال تشغلني حتى تفتح الجامعة أبوابها مجددًا وأباشر عملي ، وجدتُ بعض الاعلانات المتفرقة هنا وهناك ، أحدها نادل في مطعم ، والآخر محاسب في سوبر ماركت ، وهناك إعلان عن بائع في أحد الأسواق ، صدقيني لقد فكرتُ جدياً بقبول أي عملٍ من هذه الأعمال ، كل ما كان يهمني هو أن أشغل نفسي كيٍ لا أُفكر بكِ! الشيءُ الوحيد الذي جعلني أتردد في الذهاب هو أن أمي سيُجن جنونها إن فاتحتها بالأمر ، تخيلي شعور أم تخرّج ابنها من كلية الهندسة بتقدير ممتاز ، سيذهبُ ليعمل نادلاً أو بائعاً ، لم يكن الأمر منطقياً أبداً ، حتى أبي لم أكن أعرف ماذا ستكون ردة فعله لو أخبرته بهذه الفكرة المجنونة خصوصاً أنه لم يكن ينقصنا المال ، نحن ميسورون كما تعرفين .

بدأتُ أُقلبُ الأمور بعقلي ، كان عليّ أن أخرج من عزلتي الضّيقة إلى هذا العالم الفسيح الذي غادرته بسببكِ ، ثم جاءتْ «رمية من غير رام» كما تقولُ العربُ في مثلها الشهير!

كان أبي يتحدَّثُ بالهاتف مع من يُصمم له إعلاناً لمحاسب أو محاسبةٍ بدل المرأة التي تعمل في متجره الكبير لأنها تريدُ إجازة لتضعَ مولودها ، فقلتُ في نفسي : جاء الفَرج!

قلتُ له : أنا أعملُ عندكَ بدل جلوسي في البيت بلا طائلٍ!

– ولكن هذا العمل ليس لك يا كريم ، مؤهلاتك أكبر من هذا يا بُنيّ .

– ولكنه مالنا يا أبي ومصدر رزقنا ، ثم إنّ هذه فرصة لأفهم كيف تجري الأمور هناك ، لطالما أردتَ أن تبعدني عن التجارة لأتفرغ لدراستي ، وقد رضيتُ بقرارك ولكن الآن لا بأس بخوض التجربة .

– حسناً يا كريم ، سوف تعمل معي ، ولكن دع وظيفة المحاسب هذه ما دمتَ تريدُ أن تفهم العمل عن قرب ، ستكون مشرفاً على العمال!

– اتفقنا إذاً ، متى تريدني أن أبدأ!

– متى ما أحببتَ؟

– في الغد إذاً!

– يبدو أنك متحمس جداً ، لم أركَ راغباً في العمل هكذا من قبل!

- تتغير الأمور دوما يا أبي ، وكذلك الناس!

- معك حق!

كنتُ متأكدًا أنكِ ستعاودين الظهور مرة أخرى ، ستحاولين في فراغاتكِ الروحية والوقتية البحث عني ، فكهذا كانت علاقتنا بالنسبة لكِ على كل حال ، ملء فراغات ، ترميم علاقة فترت بفعل الاعتياد ، انعاش لمشاعرك أو خلق لها ، كنتُ مجرد تجديد لفكرة الحبّ لديك ، فكرة الحبّ التي ليست من الحبّ في شيء ، شخص يجعلك تشعرين بما فقدته في علاقتك من مشاعر ، أو ربما يمنحكِ القدرة على تجديد تلك العلاقة ، لذلك جاء اتصالك بعد الأسبوع الأول لي في العمل ، كنتُ عائدًا في آخر المساء إلى المنزل حين رنّ الهاتف باسمكِ ، لم أجب ، ليس غضبًا بل لا مبالاة ، لقد فهمتُ وقتها أنكِ بدأتِ تتلاشين من داخلي ، لأن الحبّ والكراهية وجهان لعملة واحدة - كما قلتِ- وهي الاهتمام ، وأنا لم أعد أهتم .

انقطع الرنين ، ثم عاد مجددًا ، أعدتِ المحاولة ثلاث مرات ، ثم جاءت رسالتك بعدها لتخبرني «أنكِ اشتقتِ إليّ» ، هكذا بكل بساطة ، ولو لم أكن أعرف حقيقة الأمر لتزلزل قلبي شوقًا إليكِ ، ولكن كم بدا لي تصرفكِ ذلك مثيرًا للقرف لو تعلمين!

أَقفلتُ الهاتف وأويتُ إلى فراشي ، نمتُ كما لم أنم منذ وقتٍ طويل ، بعمق ودون أحلام .

لم أعد أخرج برفقة أصدقائي منذ عرفوا بأمري معكِ ، أو

بكذبكِ عليّ ، كنتُ أحاول التحجج كل مرة يطلبون إليّ فيها مرافقتهم ، شعرتُ بالخجل من مواجهتهم ، كنتُ أشعر أني أبدو لهم كالأحمق ، أو المغدور ، وأفضل ما قد يقدموه لي هو الشفقة التي هي بالنسبة لي أسوأ من التوبيخ ، لذلك آثرت الابتعاد حتى ينسوا ما حدث ، أو أنسى أنا ، لكن محمدًا لم يستلم ، كان يزورني باستمرار في البيت والعمل ، ومهاتفتي من دون انقطاع ، لم يقل كلمة واحدة عما حدث ، حتى بدا لي كأنه لا يعرف شيئًا عن الأمر ، هو دائمًا يعرف ما أحتاج ويفعله ، ربما هذا هو ما تعنيه الصداقة .

بعد شهر من الفراق ، التقينا . . .

كنتُ أعرف أن الدنيا أضيق من أن تسمح لي بطريق لا تعبرينه يومًا ، كنت أعرف أنها أبخل من أن تجمع اثنين برح بهما الشوق ، وتفرق اثنين برح بهما النفور ، هكذا ببساطة ، ستجعلنا نُعايش ما نكره معايشته ، إنها تروضنا بهذه الطريقة التي نكرهها!

كنتُ منشغلاً بعملي حيث كان ذلك الوقت وقت الذروة ، فالعيد على الأبواب ، والناس يتزاحمون بشكل يجعل التوقف عن العمل لثانية مسألة شبه مستحيلة ، كنتُ أطلب من هذا أن يُحضر شيئاً من المخزن ، ومن ذاك أن يرتب بضاعة على الرّف . . . وعلى بُعد عدة أقدام فقط كنتِ تقفين حاملة بيدكِ شيئًا ما ، أظنها ثيابًا ، فقد أشحتُ بعدَ بضع ثوانٍ ببصري

عنكِ ، حاولتُ أن أمضي بعيدًا عن مكان وجودكِ ، لكنكِ لم تساعديني على ذلك ، بل تقدمتِ خطوة أخرى قائلة :

- كريم! ماذا تفعل هنا؟

لم أُعركِ اهتماماً ، ولم أُجبكِ ولو بحرفٍ واحد ، تجاهلتكِ تماماً كأني لا أراكِ ، وأدرتُ ظهري ، ومضيتُ . . .

ولكنكِ تبعتني قائلة : هل يمكننا أن نتحدث يا كريم ، لديّ ما أقوله لك!

- لا يمكننا ، أنا أعمل كما ترين!

- ولكن لماذا تعمل هنا؟

- أرجو أن تدعيني وشأني ، ليس لدي وقت للكلام!

ثم نظرتُ إليكِ مباشرة وأضفتُ : ولا الرغبة!

- يجب أن نتكلم!

- لا يجب عليّ شيء تجاهكِ ، إذا كان ثمة ما يلزمكِ في هذا المكان سأساعدكِ كجزء من عملي عدا ذلك لا تنتظري هنا .

كان على وجهكِ تعبيرٌ يشبه الصدمة ، غير أني ابتعدتُ عنكِ مكملاً عملي في مكان آخر دون أن ألتفت ، لكنكِ بقيتِ واقفةً يبدو عليكِ التصميم على خوض هذا الحديث ، فما أن هممتُ بالمضي قدمًا حتى قطعتِ طريقي قائلة :

- علينا أن نتحدث ، وإن لم تقبل سأتبعك حتى باب بيتك!

- اتبعيني ، ليس لديّ ما أخفيه هناك كغيري!

تغيرت ملامحكِ ، فقلتِ بنبرة تشوبها الريبة :

- ماذا تعني؟

- أنتِ خير من يعرف ما أعنيه ، أنا أعرفكِ الآن جيدًا ، يمكنك التصرف بأريحية لا داعي للتصنع!

- حسنًا ، لنجلس قليلاً ونتحدث . . .

- عودي إلى بيتكِ وعائلتكِ ، لم يعد هناك ما يستحق ، لم يكن هناك ما يستحق أصلاً!

- لا يمكنك الحكم عليّ دون أن تسمعني!

- سمعتكِ كثيرًا ، لعام كامل كنتُ أسمعك ، وقد استغليتِ ذلك كله في سرد الأكاذيب ، انتهى الوقت المسموح به الآن ، لا يوجد متسع لكذبة أخرى ، ثم لا يليق بي أو بكِ اللقاء ، فأنتِ امرأة لرجل آخر!

- أنتَ لا تعرف ما أعيشه ، ولا تعرف أسبابي ، لقد خشيتُ أن أخسرك ، لم أستطع أن أخبرك ، حاولت وكل مرة كنتُ أخفق في قول أي شيء . . .

- كلا لم تحاولي ، وهل ظننتِ أنكِ كسبتني كل تلك المدة التي كذبتِ فيها عليّ ، حين كنتُ أبني أحلام الزواج بكِ وأنت فعليًا كان لكِ زوج! أراهن أنكِ كنتِ تضحكين على سذاجتي في سركِ!

- كنتُ أشاركك الحلم وإن كان مستحيلاً . . .

- إن كنتِ تريدين أن تخوضي علاقة مستحيلة فهذا شأنكِ ، ولكن ليس من حقكِ أن تجعليني أعيشُ هذه المشاعر المستحيلة!

- أنا آسفة يا كريم!

- آسفة يا وعد ، آسفة هذه تقولينها عندما ترتطمين بي وأنتِ تحملين فنجان قهوة ، أو عندما تتصرفين تصرفاً عفوياً ، لا عندما ترتكبين جريمة عن سبق إصرار وترصد . . .

- أنا أفهم غضبك ، ومعك حق في كل ما تقوله ، ولكني واللهِ أحببتكَ ، وما زلتُ ، ومستعدة أن أكون معك أمام الناس!

- كيف ستكونين معي أمام الناس؟

- أعني أن نتزوج!

- كيف نتزوج وأنتِ زوجة رجل آخر؟

- سأطلب الطلاق ، ونتزوج بعدها!

- بهذه البساطة يا وعد ، تريدين مني أن أهدمَ بيتَ رجلٍ آخر ، لأبني بيتي!

- أنتّ لن تهدم شيئاً ، البيتُ كان مهدوماً قبل مجيئكِ . . .

- حتى ولو ، لا أريد أن أحصل على إثم إطلاق رصاصة الرحمة على عائلتك!

- صدقني كنتُ سأطلبُ الطلاق حتى لو لم تظهر أنت في حياتي!

– ربما لو فعلتها قبل مجيئي وعرفتُ ظروفكِ لكان ممكناً ، أما الآن فمستحيل!

– أنتَ تُضحّي بحبنا يا كريم!

– أنتِ التي جعلتِ هذا الحُب خطيئة يا وعد ، وأنا لا أريد أن أعيش هذه الخطيئة!

– إذاً أنتَ لم تعد تحبني؟

– مشاعري تعنيني وحدي ، ولكني ولو كنتُ ما زلتُ أحبكِ ، فإني لا أحترمكِ!

– إلى هذا الحد يا كريم؟

– إلى هذا الحد يا وعد ، وأرجو أن تنتهي الأمور عند هذا الحد!

– لا بأس ، أظن أننا انتهينا فعلاً .

– لم نبدأ كي ننتهي ، كل شيء كان عبارة عن وهم .

تركتكِ ومضيتُ . . .

تركتُ خيبتي الكبيرة فيكِ ،

مشاعري الغضة التي ولدت من عينيك ،

أحلامي الصغيرة التي كبرت مع حبي لك ،

وأخذتكِ معي درسًا لا يُنسى!

وأنا الآن أقوى من قبل ، الضربات التي لا تقضي علينا تُقوّينا ، تماماً كالأمراض التي لا تفتك بنا تجعلنا أكثرة قوة لأنها تُكسبنا مناعةً!

بودّي لو رأيتني الآن بعد فراقكِ ، لن تعرفيني ، نحن نتغير عندما نتلّقى درس العُمر ، وقد كنتِ درس العمر!

بودّي لو رأيتِ الدموع في عيني ماهر حين ناوله هشام الصحيفة التي كتبَ فيها مقالةً عنوانها : كنتٌ ملحداً!

كان ماهر يقرأ ويبكي ، ثم قام ، وضمَّ هشامًا ضمةً قوية كمن يضمُّ حبيباً عاد بعد فراق سنوات

هي الطريقة التي تمنيتُ أن أضمكِ فيها عندما نوقّع على أوراق زواجنا ، ولكننا شِفاهًا وقعنا على أوراق طلاق لزواج لم نعقده!